بسم الله الرحمن الرحيم

وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية اللغة العربية
قسم الدراسات العليا

نموذج رقم (٨)

إجازة أطروحة علمية في صيغتها النهائية بعد إجراء التعديلات

الاسم (رباعي) : أحمد بن سعيد بن أحمد الزهراني قسم : الدراسات العليا العربية
الأطروحة مقدمة لنيل درجة : الدكتوراه في تخصص : الأدب العربي
عنوان الأطروحة : ((النثر الفني عند المترسلين من الشعراء في القرن الثالث الهجري))

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

فبناء على توصية اللجنة المكونة لمناقشة الأطروحة المذكورة أعلاه والتي تمت مناقشتها بتاريخ ٧ / ٦ / ١٤١٨ هـ بقبولها بعد إجراء التعديلات المطلوبة، وحيث قد تم عمل اللازم؛ فإن اللجنة توصي بإجازتها في صيغتها النهائية المرفقة للدرجة العلمية المذكورة أعلاه. والله الموفق.

أعضاء اللجنة

المشرف	المناقش الداخلي	المناقش الخارجي
الاسم: أ.د إبراهيم الحاردلو	الاسم: أ.د محمد صالح جمال بدوي	الاسم: أ.د عبد المحسن فراج القحطاني
التوقيع:	التوقيع:	التوقيع:

رئيس قسم الدراسات العليا

أ. د . محسن بن سالم العميري

المملكة العربية السعودية - جامعة أم القرى - مكة المكرمة - كلية اللغة العربية

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية اللغة العربية
قسم الدراسات العليا العربية

النثر الفني عند المترسلين من الشعراء في القرن الثالث الهجري

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراة في الأدب العربي

إعداد
أحمد سعيد أحمد الزهراني

إشراف الأستاذ الدكتور
إبراهيم الحاردلو

١٤١٧هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

"عليه توكلت وإليه أنيب"

بسم الله الرحمن الرحيم

" ملخص الرسالة"

الحمد لله على نعمائه التي لا تعد ولا تحصى، والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

فهذا بحث اختص بالنثر في العصر العباسي بعنوان " النثر الفني عند المترسلين من الشعراء في القرن الثالث الهجري" وقد اعتمدت في دراسته على المناهج المعروفة التالية: المنهج التاريخي، المنهج الوصفي، المنهج النفسي، المنهج البياني ثم مواجهة النص؛ ويتكون البحث من مدخل وبابين وخاتمة؛ تحدثت في المدخل عن الكتابة وحاجة العصر العباسي إليها؛ ثم ألمحت إلى ظاهرة الجمع بين فني القول – الشعر والكتابة – وذكرت أن الجمع بينهما مذهب مشاع بين جل الكتاب، ولكن البحث – هنا – اختص بطائفة منهم اتصفت بالتجويد فيهما معاً بدرجة سواء؛ ثم قدمت تراجم أدبية للمترسلين من الشعراء تشمل رؤية النقاد المعاصرين لهم ومن تلاهم في نتاجهم الأدبي، وختمت المدخل بالإشارة إلى مصادر ثقافتهم.

وتلا ذلك الباب الأول وكان عن نثرهم الفني: وقد جعلته في فصلين، الفصل الأول: تحدث عن الرسائل بأنواعها المطروقة الرسمية، والخاصة والبيانية والشعرية؛ والفصل الثاني: عن توقيعاتهم وأقوالهم.

وعالج الباب الثاني الدراسة الفنية، واشتمل على فصلين، الفصل الأول: خصائص نثرهم وسماته وتحدثت فيه عن شاعرية النص وموسيقاه، وعن الأسلوب الجدلي والتشكيل الفني؛ وختمت هذا الباب بالفصل الثاني وكان موضوعه عن الموازنة بين نثر المترسلين من الشعراء – موضوع هذا البحث – وبين نثر غيرهم من الكتاب الخُلّصْ، استعرضت فيه المعايير التي اعتمدها الباحث في اختيار النصوص للموازنة وهي: الصورة الأدبية، الأداء الشاعري، الغلو النثري، اعتدال المفردة؛ وهذا الباب هو لب الدراسة الجمالية للنصوص.

ثم جاءت خاتمة البحث حاملة ابرز ما توصلت إليه الدراسة من نتائج؛ منها:

١ – ارتقت لغة النثر عند هؤلاء الأدباء حتى قاربت لغة الشعر في نسيجه وتشكيله.

٢ – بعض نتاج هؤلاء الأدباء يعد رافداً من روافد نشؤ المقامات الأدبية.

٣ – أحدث المترسلون الشعراء تطوراً ملحوظاً في بعض الأساليب النثرية.

عميد الكلية	**المشرف**	**الباحث**
أ.د/ حسن باجودة	**أ.د/ إبراهيم الحاردلو**	**أحمد سعيد الزهراني**
عنه /		١٤١٨/٦/١٨هـ

شكر وتقدير

وعد الله الشاكرين بالزيادة، فقال جل شأنه ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ والله لايخلف الميعاد، فأشكره أولاً ولن يبلغ شكري له أدنى مراتب مايستحق، ولكن حسبي أن أقر بأن توفيقه وحده هو الذي أخرج هذا العمل إلى النور، وما كان ليتم له ذلك لولا تسديده سبحانه وتوفيقه، فله حمد الشاكرين المقرين بعظيم فضله وجميل إحسانه.

ثم أتقدم بالشكر إلى جامعة أم القرى بمديرها، ووكلائها، وعمدائها، ومنسوبيها من الأساتذة الأفاضل، وأخص بالذكر الأستاذ الدكتور إبراهيم الحاردلو مشرف هذه الرسالة على مابذله معي من جهد، وعلى كريم خلقه، فجزاه الله خيراً، وهو وحده القادر على مكافأته، كما أشكر كل من مد لي يد العون.

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي لا إله إلا هو حمداً يليق بجلاله، وأشكره على نعمائه، خلق فأبدع، وصنع فأحكم، وعلم الإنسان مالم يعلم، وأصلي وأسلم على سيد البشرية محمد بن عبد الله صلاة موصولة بركاتها إلى يوم يبعثون، مخرج الناس – بإذن ربه – من الغواية إلى الهداية، ومن ظلمات الجهل إلى نور العلم، نبي الرحمة، الداعي إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة.

وبعد:

فإن الدارسين للعلوم الإنسانية الأدبية، والمهتمين بها يستوحشون من النثر فيفرون منه، ويأنسون إلى الشعر فيرتمون في أحضانه، فاكتظت المكتبة العربية بشيءٍ كثير من الدراسات الأدبية حول قضايا الشعر وخفاياه، بل لا أبالغ إن ذكرت بأن ما حظي به المتنبي منفرداً يعدل أو يزيد على ما حظي به النثر من دراسات في عصوره كافة، وهذا خلل في المعادلة الأدبية، وتفريق بين الصنوين، أصاب أحدهما بالجور والظلم وذلك هو النثر، أما الآخر فنال من التقديم والتفضيل أعلى محل وذلك هو الشعر.

على أني ألتمس العذر لمريدي الشعر، لا لسهولة تناوله، ووفرة مراجعه ولكن لإمتاعه، فهو عمل مؤنس لصاحبه، يشعر معه بسعادة تقتل سهام الملل، وتطرد طيوف الضجر، لا يحس الباحث فيه بما يعانيه الدارس للأعمال الجافة، ولهذا حينما فكرت في دراسة موضوع نثري حرصت على فئة من النثر يحمل خاصية الشعر وإمتاعه، يلذ العاطفة، ويخاطب العقل معاً فوجدت ضالتي بعد لأيٍ في نثر الشعراء المجودين، وبهذا وازنت بين هذه المعادلة من الوفاء للنثر كما كان غيري وفياً للشعر، فكان هذا الموضوع بعنوانه "النثر الفني عند المترسلين من الشعراء".

على أن الدراسات النثرية السابقة قد أسهمت في بناء المكتبة العربية المتعطشة إلى هذا الفن من الأدب، وقد أفاد منها الباحث، غير أنها لم تعن كثيراً بالتحليل الفني، وتجليه السمات الأدبية، فوقفت عند جمع النصوص من مصادرها، وتصنيفها حسب العصور أوالاتجاهات أو المدارس، أو اختصت بفن من فنون النثر، وعلى كل فهي أعمال مشكورة لأصحابها، ويعتبر هذا البحث تكملة لتلك الجهود في الاهتمام بالجوانب الجمالية للنصوص، ودراسة ما امتازت به من سمات أدبية.

منهج البحث:

اعتمدت في دراسة هذا الموضوع على أربعة مناهج تتكامل فيما بينها للنهوض بالعمل إلى تحقيق النتائج المأمولة منه – إن شاء الله –.

يمثل المنهج التاريخي قاعدة انطلق منها الباحث إلى فضاء الزمن متابعاً حركة النمو والابتكار والزيادة على السابق؛ ثم المنهج الوصفي في ربط النص بمحيطه الاجتماعي؛ ولم أغفل المنهج النفسي في بعض المواطن، فقد كان مساعداً في تفهم بعض النصوص الصادرة من اللاشعور واسقاط ذلك في العمل الإبداعي؛ على أن الاعتماد كان منصباً على المنهج البياني في استجلاء القيم الأدبية؛ ثم كانت مواجهة النص ومحاورته عملاً مهماً من عوامل تفسيره، وتحليله، وسبر أغواره، وكشف أسراره.

خطة البحث:

يتكوّن البحث من مدخل وبابين؛ المدخل يشتمل على أربعة مباحث، المبحث الأول: الكتابة والعصر، المبحث الثاني: الجمع بين فني القول – الشعر والكتابة – وذكرت أن الجمع بينهما مذهب مشاع بين جل الكتاب، ولكن البحث – هنا – اختص بطائفة منهم اتصفت بالتجويد فيهما، لأن من شأن ذلك أن يبرز لنا نثرهم في حلة جديدة، وصورة مغايرة للمألوف، والمبحث الثالث: يتحدث عن المترسلين من الشعراء، وهم: أ – سهل بن هارون، ب – العتابي، جـ – الزيات، د– الحسن بن وهب، هـ – سعيد بن حميد، و – أبوعلي البصير؛ وهي تراجم أدبية تشمل رؤية النقاد المعاصرين لهم ومن تلاهم في منتوجهم الأدبي وكانوا – أي النقاد – هم الذين احتكمت إليهم في اختيار هؤلاء الأدباء دون غيرهم، وأضفت إليهم أبا العتاهية وبشار بن برد، وختمت المدخل بالإشارة إلى مصادر ثقافتهم وهو المبحث الرابع.

وتلا ذلك الباب الأول وقد قسمته إلى فصلين: الفصل الأول: يتحدث عن الرسائل، ويشتمل على ثلاثة مباحث، المبحث الأول: الرسائل الرسمية، المبحث الثاني: الرسائل الخاصة، المبحث الثالث: الرسائل البيانية والشعرية. أما الفصل الثاني: فقد خصصته لتوقيعاتهم وأقوالهم، ويشتمل على مبحثين فقط، المبحث الأول: التوقيعات، المبحث الثاني: الأقوال.

وعالج الباب الثاني: الدراسة الفنية: واشتمل على فصلين، الفصل الأول: خصائص نثرهم وسماته ويتكون من مبحثين، المبحث الأول: شاعرية النص وموسيقاه وذلك من حيث الألفاظ والتراكيب، وقد درس الباحث – هنا – ألفاظهم تحت مايعرف بالمعجم اللغوي، ثم أعقب ذلك بالحديث عن توازن الألفاظ ثم شاعرية النثر ويندرج تحته تنشيط الدلالة وفن الخطاب، وختمت هذا المبحث بالحديث عن الإيقاع الموسيقي من سجع وتوازن وجناس...

وتلاه المبحث الثاني: وكان عن الأسلوب الجدلي والتشكيل الفني، ألمحت فيه عن جدلية النثر عند المترسلين الشعراء ثم توسعت في الحديث عن التشكيل الفني، ذكرت فيه التناسب في بناء النص؛ ثم هرمية النص النثري والتكرار بأنواعه.

وختمت هذا الباب بالفصل الثاني وكان موضوعه عن الموازنة بين نثر هؤلاء الأدباء ونثر غيرهم من الكتاب الخُلَّص، وقد اشتمل على أربعة مباحث: المبحث الأول: الصورة الأدبية، المبحث الثاني: الأداء الشاعري، المبحث الثالث: الغلو النثري، المبحث الرابع: اعتدال المفردة.

وهذا الباب في مجمله هو لب الدراسة الجمالية للنص، وقد بذلت فيه جهداً جهيداً ذلك أني سلكت طريقاً غير معبد ولا مطروق.

المدخل

ويشمل المباحث التالية:

المبحث الأول: الكتابة والعصر.

المبحث الثاني: الجمع بين فني القول.

المبحث الثالث: المترسلون من الشعراء.

المبحث الرابع: مصادر ثقافتهم.

المبحث الأول

الكتابة والعصـــر

النشوء والتطور من طبائع الأمور، فيعز علينا أن نجد أمة من الأمم في عصر من العصـور تـراوح مكانهـا، وترضـى بخمولهـا، وذلـك هـو الطمـوح المحـرك للحضارات، والباعث على الرقي البشري.

وعصرنا الذي نحن بصدده كـان عصـر البنـاء، فبدأ بالانفتـاح علـى معطيـات الحضارات السابقة له عن طريـق الترجمـة[1] والنقـولات، ومـن هنـا كـانت الانطلاقـة الصـحيحة.

والكتابة بخصائصها دون الشعر كانت الرائدة في العملية الحضارية، فاستعانت بها الدولة في نقل معارف الأمم الأخرى، ومـن ثـم الاطـلاع علـى خلاصـة تجاربهـا، فالبداية السليمة تكون عادة مـن حيـث انتهـى الآخـرون، وهـذا مـاحدث بفضـل الكتابـة وصناعها، وتبعاً لذلك كان الكاتب – حينذاك – أسنى مرتبة من الشاعر وأعلى منزلـة، لحاجة العصر إليه، وافتقاره له، وتصديقـاً لذلـك مـا رواه الصولـي عـن إبراهيـم* بـن العباس في مناظرته أحد الشعراء الذين يرون أن زمن الشعر كان في العصر الأمـوي وفيها تتجلى منزلة الكاتب قياساً بالشاعر، يقول في رده: [٠٠ إن كانت دولة بنى أميـة حلبة الشعراء، فدولة بنى هاشم حلبة الكتاب][2].

---

(١) انظر ما كتبه خفاجي د: محمد عبد المنعم في الأدب العربي وتاريخه، دار الجيـل، بيروت، ١٩٩٠م ج ٢ ص ٥٢ وما بعدها حول أثر الترجمة في تكوين الحضـارة العربيـة الإسـلامية في العصر العباسي.

* هو: إبراهيم بن العباس بن محمد بن صول، ينتسب إلى أسرة عريقة في المجد، فجده محمـد من رجال الدولة العباسية ودعاتها، نشأ في بغداد، ولفضله وتمكنـه مـن ناصيـة البيـان قربـه الخلفاء، فكتب للمعتصم والواثق والمتوكل، توفي سنة ٢٤٣هـ، الأصبهـاني، أبوالفـرج علـى ابـن الحسـين، الأغـاني، جمـال للطباعـة ج ١٠ ص ٤٣ – ٦٨، الحمـوي، يـاقوت، معجـم الأدباء، دار الفكر، ١٩٨٠م، ج ١ ص ١٦٤ – ١٩٨.

(٢) الصولى، أبوبكر محمد، أخبار أبي تمام، المكتبة التجارية، بيروت، ص ١٠٩.

بل أصبح الكاتب يطاول الخليفة ذاته، وهو نائبه يقوم مقامه في كبير أمر الدولة وصغيرها، وقد يملي على ولي أمره شروطه كما فعل " علي بن زيد" الكاتب حين طلب منه سلطانه أن يصحبه فعلق موافقته بتنفيذ شروطه. قال: [أصحبك على ثلاث خصال... لا تهتك لي ستراً، ولا تشتم لي عرضاً، ولا تقبل فيّ قول قائل حتى تستبرئ][(١)].

وقد يتجاوز الحال إملاء الشروط، ويصبح هو الآمر الناهي من دون الخليفة، وهذا حدث كثيراً في العصر العباسي، كما فعل البرامكة مع الرشيد ردحاً من الزمن، **والفضل* بن الربيع مع الأمين والفضل بن سهل** مع المأمون والفضل*** بن مروان مع المعتصم**، فعن طريق الكتابة وصلوا إلى الخلافة الفعلية، وبها استولوا على مقدرات الأمة، وصدق سهل بن هارون حين وصف الكتابة بأنها أول زينة الدنيا التي إليها يتناهى الفضل، وعندها تقف الرغبة[(٢)].

ولا يعني ماقدمته – عن الكتابة وشرفها – خفوت صوت الشعر، بقدر ما عنيت ارتفاع منزلة الكتابة وصناعها.

---

(١) القلقشندي، أحمد بن على، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، الكتب العلمية، بيروت، ط: أولى ١٩٨٧م، ج ١ ص ١٦٥.

* هو: الفضل بن الربيع بن يونس أبوالعباس، وكان حاجب هارون الرشيد ومحمد الأمين، وكان أبوه حاجب المنصور والمهدى، ولما أفضت الخلافة إلى الأمين أكرمه، وألقى أزمة الأمور إليه، وعول في مهماته عليه، توفي بطوس سنة ٢٠٨

البغدادي، الحافظ أحمد بن على الخطيب، تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية، بيروت، ج١٢ ص ٣٤٣ – ٣٤٤.

** هو: الفضل بن سهل بن عبدالله، أبوالعباس، الملقب بذي الرياستين، كان من أولاد ملوك المجوس، وتولى الوزارة للمأمون وغلب عليه، توفي بسرخس سنة ٢٠٢هـ. انظر البغدادي، تاريخ بغداد ١٢/٣٣٩-٣٤٣.

*** هو: الفضل بن مروان، أول وزراء المعتصم، وكان عامياً لا علم عنده، ولا معرفة، وكان ردئ السيرة، انظر: ابن الطقطقا، محمد بن علي، الفخري في الآداب السلطانية، والدول الإسلامية، دار صادر، بيروت، ١٩٦٦م، ص ٢٣٢.

(٢) ابن عبد ربه، أحمد بن محمد، العقد الفريد، دا رالكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى، ١٩٨٣م، ٤/٢٦٢.

أما الخطابة فقد تلاشى دورها، فالعصر عصر معرفة وعلم واستقرار وأمان – في الأغلب الأعم – ومثل هـذه البيئـة لا تسـاعد علـى نمائهـا، فخلـت السـاحة للكتابـة، وتسنم روادها المجد الأدبي والسياسي معاً.

المبحث الثاني:

الجمع بين فني القول:

وإذا ما تفاخر الأموي بدولة الشعر، والعباسي بدولة الكتابة – كما رأينا في نص إبراهيم بن العباس السابق – فإن الفخر كله يأتي من التكامل في الشخصية الأدبية، وذلك بالجمع بين الحسنيين، "الشعر والكتابة" والتجويد فيهما.

وقل أن تجد كاتباً غير شاعر، لأن الشعر طبع في جبلة العربي، وسجية من سجاياه، والكتابة فن طارئ أكتسبه الأديب بعوامل ثقافته العامة والخاصة، مع تأصل الموهبة في داخله.

فالجمع بين فني القول من الظواهر المألوفة في العصر العباسي، ولكن البحث معنيٌ بفئة نادرة جمعت بينهما، وامتازت بالإبداع فيهما، وحددهم النقاد بالإسم، وهم عموماً لا يتجاوزون أصابع اليدين لأن الجمع مع صفة الإبداع في كلا الفنين عسير، يقول سهل بن هارون – في تقرير هذه الحقيقة، وهو من القلائل المبدعين في الفنين– [اللسان البليغ، والشعر الجيد، لا يكادان يجتمعان في واحد، وأعسر من ذلك أن تجتمع بلاغة الشعر وبلاغة القلم (الكتابة)(١)] ويؤكد هذا المعنى ابن خلدون يقول: [لا تتفق الإجادة في فني المنظوم والمنثور معاً إلا للأقل(٢)] وإذا ما اجتمع العسير للأقل فيكون لاجتماعهما ثمرات يانعات، تحسن في الأنظار، وتحلو في الصدور، والثمرة المعنية هي "النثر الشعري" لأن من الطبيعي أن ينعكس شعر الشاعر المبدع – بلغته وعواطفه وخياله – على نثره، ومن هنا يحدث عمله بهذه الخصوصية الإبهار الفني في نفس المتلقي فيطرب له، ويخاطب عقله فيرضى به، أي أنه بكنهه هذا يعمل على إقامة التوازن بين العاطفة والعقل في الآن معاً.

---

(١) الجاحظ، عمرو بن بحر، البيان والتبيين، دار الفكر، ط: الرابعة ٢٤٣/١؛ د/ عمر فروخ، الأدب العربي، دا رالعلم للملايين، بيروت، ط: الرابعة، ١٩٨١م، ٢١٤/٢.

(٢) المقدمة، دار القلم، بيروت، ط: الرابعة، ١٩٨١م، ص ٥٦٨.

وهذا الأثر الجميل هو وظيفة النثر عند هؤلاء المبدعين، تأمل جواب بشار ابن برد على إعجاب الأصمعي حين قال له: [يا أبا معاذ والله ما سمعت أحسن من قولك في المشورة:

إذا بلغ الرأيُ المشورةَ فاستعنْ ... برأي نصيحٍ أو نصاحة حازمِ

ولا تجعل الشُّورى عليك غضاضةً ... فإن الخوافي قوةٌ للمقادمِ

فقال بشار لصاحبه: أو ماعلمت أن المشار بين إحدى الحسنيين، بين صواب يفوز بثمرته، أو خطأ يشاركه في مكروهه][1] فقال الأصمعي – بعد أن سلب هذا القول الشاعري لبه – [أنت في هذا الكلام أشعر منك في شعرك][2] وعلى هذا النحو يضرب المترسلون الشعراء في مجالات النثر الفني، إذ نقلوه من الجفاف إلى الخصوبة، ومن الرتابة إلى الإمتاع الأدبي، وسنستعرض في الصفحات القادمة أرباب البيان، وحملة الأقلام، من المترسلين الشعراء، ونرى صورتهم من منظور النقاد، ونعرض لسيرتهم.

---

(١)،(٢) الثعالبي، أبومنصور عبد الملك بن محمد، أدب الملوك، ط: الأولى ١٩٩٠م، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ص ٩٢؛ والحصري، أبواسحاق إبراهيم بن علي، زهر الآداب وثمر الألباب، دار الجيل، بيروت، ط: الرابعة ٣/٨٨١.

المبحث الثالث

المترسلون من الشعراء

أ – سهل بن هارون [٠٠٠ – ٢١٥هـ]

هو: سهل بن هارون بن راهبون الدستميساني[١]، فارسي الأصل، عربي المنشأ، أخباره في مصادر الأدب ومراجعه كثيرة، تصوره في أشكال مختلفة، تدعو إلى الإعجاب به، والثناء عليه، وإن كانت قد توحي في مجملها بتناقض شخصيته، من مثل اتصافه بالبخل ووسمه بالحكمة معاً، وسوف نلقي عليها الضوء في مكانها من البحث – إن شاء الله –.

والباحث هنا معنيٌ بالإبانة عن أبعاد شخصيته، وهي في عمومها ترتكز على محاور رئيسة تكوّن أبرز ملامحه، وهي:

١ – بلاغته وخزانة الحكمة. ٢ – شعوبيته والجدل. ٣ – دهاؤه.

(١) النديم، أبوالفرج محمد، الفهرست، دار المسيرة، ط: الثالثة، ١٩٨٨م، ص ١٣٣؛ ابن نباتة، جمال الدين محمد، سرح العيون شرح رسالة ابن زيدون، ط: الأولى ١٩٥٧م، ص ١٣٦.

١ - بلاغته، وخزانة الحكمة:

ونستهل الحديث عن سهل بالإبانة عن منزلته في البيان، لأنها الممهد له في ظهوره على مسرح الأحداث الأدبية والسياسية، وهو من القلائل المجودين في فنون القول شعره ونثره وخطابته كما قال الجاحظ[١]، وكان فيها نادرة زمانه فقهاً وإبداعاً وافتناناً، بل وأصبح مضرب المثل في البلاغة، يقول صاحب معالم الكتابة ومغانم الإصابة: [بفضل الكتابة في ديوان الرسائل العباسي، وُجد جماعة من البلغاء صاروا مضرب المثل...][٢] وعد منهم سهل بن هارون، وقريب منه رأي ابن نباته، يقول: [انفرد سهل بن هارون في زمانه بالبلاغة والحكمة ...][٣] وإذا ما وازناه بالجاحظ -إمام البيان وصاحب الإبداع - فإنا واجدون من يفضل سهل بن هارون عليه، فهذا ابن شهيد الأندلسي في مقارنة عقدها بين عقلي الجاحظ وسهل، ينتصر فيها لسهل، ويقول متسائلاً: [وربما أنكر منكر قولنا في شرط جميع أدوات الكتابة، فقال: وأي أداة نقصت الجاحظ؟ فنقول: أول أداة الكاتب العقل، ولا يكون كاتب غير عاقل، وقد نجد عالماً غير عاقل، وجدلياً غير حصيف، وفقيهاً غير حليم، وقد وجدنا من ينسب العقل إلى سهل بن هارون أكثر من نسبته إلى الجاحظ][٤] ورأي ابن شهيد - على فضله - فيه مافيه من الإفراط والجنوح عن الجادة، وفيه من الحيف والجور والظلم ما قد أصاب عقلاً عظيماً كعقل الجاحظ، أثرى المكتبة العربية بأفانين الأسفار في شتى مناحي العلم والمعرفة، أبعد ذلك ينفى عنه العقل؟! وهبْ أنا سلمنا بتقديم عقل سهل على صاحبه - لمنزلته وأستاذيته - وسلمنا - حيناً - بانتفاء الحصافة عن الجدلي، والحلم عن الفقيه، فكيف نسلم بانتفاء العقل عن العالم، بل وكيف يكون عالماً بلا عقل؟!

---

(١) انظر ما كتبه الجاحظ عن سهل بن هارون في البيان والتبيين ٥٢/١.

(٢) القرشي، عبد الرحيم بن على بن شيث، الكتاب طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى ١٩٨٨م، ص ٧، وانظر القلقشندي، صبح الأعشى ١٢٧/١.

(٣) سرح العيون، ص ١٣٦، د/ شوقى ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف، مصر، ط: الخامسة، ص ١٤٩.

(٤) رسالة التوابع والزوابع، دار صادر، بيروت، ١٩٨٠م، ص ٥٢.

ومقارنة ابن شهيد لم تنشأ من فراغ، فبين الرجلين - سهل والجاحظ - علاقة وطيدة، فالجاحظ تتلمذ على يدي سهل، وأفاد من أساليبه في الكتابة، حتى شُهر بها، وأصبح يُعرف بها، وتنسب إليه أكثر من نسبتها إلى سهل، يقول د/ عبد الحكيم بلبع في تنوير هذه النقطة: [ليس من شك في أن سهلاً يحتل مكانة فريدة في تاريخ النثر العربي، ولا نكاد نبعد إذا قلنا إنه هو البذرة التي أنبتت الجاحظ](١) ويؤكد هذه الحقيقة أنيس المقدسي في قوله: [طريقة الجاحظ في الكتابة لم يبتدعها بل أخذ فيها أخذ من تقدمه من كتاب الدولة العباسية، ولا سيما **سهل بن هارون**](٢) وهذه الدلائل تشير إلى أستاذية الرجل والتي نالها بمواهبه، وبجملة من المحاسن، يقول عنه **الحسن* بن سهل** - وهو من كبار الوزراء، وصناع الكتابة - [... وازن العلم، واسع الحلم، إن حودث لم يكذب، وإن موزح لم يغضب، كالغيث أين وقع، وكالشمس حيث أولت أحيت، وكالأرض ما حَمّلتها حملت، وكالماء طهور لملتمسه، ونافع لغلة من حَرّ إليه، وكالهواء الذي تقطف منه الحياة بالتنسم، وكالنار يعيش بها المقرور، وكالسماء التي قد حسنت بأصناف النور](٣) وهذا الرأي - وإن شابه الغلو وفرط المبالغة - دليل على منزلة عالية بلغها سهل بفضل علمه وبيانه.

وما تسامح الرشيد معه - بعد نكبة البرامكة - وكان من خواصهم - إلا دليل آخر على براعته وامتيازه عن غيره من الأقران، قال الرشيد بعد أن مثل أمامه: [أيها ياسهل من غمط نعمتي، وتعدى وصيتي، وجانب موافقتي، أعجلته عقوبتي](٤) قال سهل: فوالله ما وجدت جواباً حتى قال: [يُفرخ روعك، ويسكن جأشك، وتطيب نفسك،

---

(١) النثر الفني وأثر الجاحظ فيه، الاستقلال، الكبرى، ط: الثالثة، ١٩٧٥م، ص ١٦٤،١٦٥.

(٢) تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، ط: السابعة، ١٩٨٢م، ص ١٧٦.

* هو الحسن بن سهل أخو الفضل الذي وردت ترجمته في ص ٣ البحث، ولي الوزارة للمأمون بعد أخيه، وكان عظيم القدر عند المأمون خاصة بعد أن تزوج من ابنته بوران بنت الحسن، توفي سنة ٢٣٦ في أيام المتوكل. ابن الطقطقا/ الفخري ص ٢٢٢-٢٢٣.

(٣) د/ شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، دار المعارف، ط: السابعة، ص ٥٢٨.

(٤) ابن عبدربه، العقد الفريد ٥/٣١٩.

وتطمئن حواسك، فإن الحاجة إليك قربت منك، وأبقت عليك٠٠][(١)] ولم تذكر مصادر الأدب أو التاريخ جرم سهل الذي اقترفه، واستحق به هذا التقريع، غير أن الخليفة الحصيف أبقى عليه لحاجة الدولة إليه، وافتقارها له، فالرجل كان وافر المواهب، متعدد المناقب، جم العلم، فآلت به إلى بلاط الخلفاء، حتى إنه كان يدخل على الرشيد وهو يلاعب ابنه بدون كلفة أو احتشام[(٢)]، وأفضى به الحال أخيراً إلى توليه خزانة الحكمة في زمن المأمون[(٣)]، واشتهر بها حتى لقب "بُزُرْجِمَهْر الإسلام"[(٤)] أي أنه يحل في العربية محل بُزُرْجِمَهْر * في الفارسية.

أما عن آراء المحدثين في الرجل فإنها لا تقل عن آراء القدامى، يقول خليل مراد بك: [وقد نبغ في العصر العباسي فحول من الكتاب تحسد الأرض عليهم السماءُ[(٥)]] وعد منهم سهل بن هارون، وبعض المترسلين الشعراء من مثل العتابي ومحمد بن عبد الملك الزيات.

---

(١) السابق نفسه.

(٢) المصدر السابق ١٤/٢، والحصرى، زهر الأداب ٥٨٦/٢.

(٣) الحموي، معجم الأدباء ٢٦٦/١١، وانظر التوحيدي، أبوحيان، البصائر والذخائر، ت: د إبراهيم الكيلاني ٤٣/١، أحمد أمين، ضحى الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، ط: العاشرة ٦٣/٢.

(٤) ابن نباتة، سرح العيون، ص ١٣٧، وشوقي ضيف، العصر العباسي الأول، ٥٢٧.

* بُزُرْجِمَهْر بن بختكان، كان وزير الأكاسرة، وكان ذا علم ورأي وفطنة، كان بالغاً في الحكم الخطابية، ولما وضعت الهند الشطرنج بعثوا به إلى كسرى ولم يذكروا كيفية اللعب به، فاستخرجه بزرجمهر ووضع في مقابلته النرد، وبعث به إلى الهند، القزويني، زكريا بن محمد، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، ص ٢٣٥، وحكمه مبثوثة في جل مصادر الأدب والتاريخ، انظر ابن قتيبة، ابومحمد بن عبدالله بن مسلم، عيون الأخبار، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦م، ٩٤/١، ١٣٦/٢، ١٣٧، ١٣٩، ١٤٢، وانظر الجاحظ، البيان والتبيين ٧/١، النديم، الفهرست ٣٦٤، والتوحيدى، الصداقة والصديق، المطبعة النموذجية، ت: على متولي صلاح، ص ٤١، ٥٦.

(٥) محاضرات الخليل في الإنشاء العربي، مطبعة: خالد بن الوليد، ط: الأولى ١٩٨٥م، ص ٢٠، ٢١.

٣ - شعوبيته والجدل:

سهل كغيره من الكتاب الفرس لم ينسوا لحظة أصولهم الفارسية، وأرومتهم غير العربية، وأمجادهم الغابرة، فكانوا كثيراً ما يفاخرون أندادهم من العرب بمجدهم الذي قد كان، ويتباكون خفية تارة، وجهرة أخرى على حضارتهم البائدة، وهم يرون أحقيتهم بالولاية من دون العرب، ولعل طبيعة الحياة أجبرتهم على التعايش مع العرب مكرهين لامختارين، وسهل من زمرة هؤلاء الشعوبيين، يقول النديم عنه: [كان شعوبي المذهب، شديد العصبية على العرب](١) ويقول أيضاً: [وله في ذلك كتب كثيرة ورسائل](٢) وبلغ من شعوبيته الحد الذي دعاه إلى تأليف كتاب أسماه "لصوص العرب"(٣) ولا أعلم أمن حسن حظنا أم من سوئه أنْ ضاع هذا الكتاب.

وشعوبية سهل مع مذهبه في الاعتزال أخرجتا لنا عقلية جدلية، فأراد أن يحيل مكارم العرب وفضائلهم إلى مثالب - بعد أن أستنفذ معايبهم في كتبه التي أشار إليها النديم-، ولا يتحقق له ذلك إلا بالجدل في الثوابت، فعمل على وضع رسالته الشهيرة التي يمتدح فيها البخل، وكأنه أراد أن يهدم ركناً حصيناًطالما فاخر به العرب أمم الأرض - وحُق لهم ذلك - فصور الكرم على أنه سفه وحمق، والبخل على أنه اقتصاد وفطنة.

ويرى المستشرق المجرى "غولد سهير"(٤) أن بخله إدعائي لا طبع في جبلته، ولعل "غولد" وجد هذا التعارض الصريح بين الحكمة التي اشتهر بها سهل، وبين هذه الدعوة، وقدر أنها من التضاد بحيث لا يمكن أن تجتمعا في رجل واحد، فمال إلى هذا

---

(١)،(٢) الفهرست ١٣٣، والحموي، معجم الأدباء ٢٦٦/١١.

(٣) د/ صالح آدم، الثقافات الأجنبية في العصر العباسي الأول، مكة، ط: الأولى، ١٩٨٨م، ص ٢٠٢.

(٤) بلبع/ النثر الفني وأثر الجاحظ فيه، ص ١٦٤.

التخريج، وانتهى إلى هذا الحكم، والحق أن "الباحث" ميال إلى أن الرجل كان[1] بخيلاً فعلاً، ولهدم ما للعرب من قيمة أخذ يجاهر به، ويدعو إليه، ويحبب الناس فيه، ذلك أنه مبتلى بالبخل، غير راضٍ عنه في قرارة نفسه، لا سيما وهو الحكيم، ولكنه اضطر إلى إشاعته بين الناس، وامتداحه لينال من تلك القيمة المتأصلة في كيان أي عربي.

وهذا التعارض – بين الحكمة وسوء الدعوة عند سهل – انتهى ببعض الباحثين المحدثين إلى أن يقعوا – أيضاً – فيما وقع فيه المستشرق المجري، فأخذ بعضهم يشكك في صحة نسبة هذه الرسالة إلى سهل كما فعل شوقي ضيف[2]، غير أن الرجل يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، وغيره يأخذ جانب اليقين فهذا د/طه الحاجري يؤكد بأنها من وضع الجاحظ، ويبرئ ساحة سهل منها، يقول [نحلها لسهل، ووضعها عليه، وتكلم فيها بلسانه... ودلائل نسبتها إليه – أي إلى الجاحظ – قوية غالبة ظاهرة][3] ولم يبين لنا د/ الحاجري هذه الدلائل القوية الغالبة الظاهرة التي استند عليها في حكمه الذي جانبه الصواب، ولعله تأثر من اعتراف للجاحظ ذكر فيه بأنه كان يكتب الكتاب – في بداية أمره – وينسبه لغيره من أكابر الكتاب كسهل والعتابي وابن المقفع

---

(١) آثاره تدل على أنه مضرب المثل في البخل كما أنه مضرب المثل في الحكمة والبلاغة، ذكره مسافر بن يسار في المقامة الساسانية.
انظر: الخفاجي، شهاب الدين أحمد بن محمد، ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا، ت: عبد الفتاح الحلو، ط: الأولى ١٩٦٧م، ٢/٣٨٩، والجاحظ، البخلاء، دار صادر، بيروت، = ص ١١،١٢؛ والأبشيهي، شهاب الدين بن محمد/ المستطرف في كل فن مستظرف، دار القلم، بيروت، ص١٨٥؛ الكتبي محمد بن شاكر، فوات الوفيات، ت: د/ إحسان عباس، دار صادر، بيروت ٢/٨٤؛ والجاحظ، كتاب الحيوان، ت: عبد السلام هارون، ط: الثالثة، ١٩٦٩م، دار احياء التراث، بيروت، ٢/٣٧٤، ٣٧٥؛ والعباسي، عبد الرحيم بن أحمد، معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، ت: محمد محيي الدين، عالم الكتب، بيروت، ١٩٤٧م، ٢/١٩٣؛ وابن خلكان، شمس الدين، وفيات الأعيان وانباء ابناء الزمان، دار صادر، بيروت، ت: د/إحسان عباس ٢/٢٦٩؛ ومحمد كرد علي، أمراء البيان، دار الكتب، بيروت، ط: الثالثة، ١٩٦٩م، ص ١٤٢-١٤٤.

(٢) الفن ومذاهبه في النثر العربي ١٤٩.

(٣) محمد بركات، سخرية الجاحظ من بخلائه، ط: الأولى، ١٩٧٤م، جمعية أعمال المطابع التعاونية، عمان ص ٦٥.

لينفق[1] فاطمأن إلى هذا الإقرار من الجاحظ، فنسبها إليه، وأيّد فكرته هذه تقارب اسلوب الرجلين، وقد نسي في غمرة إندفاعه علاقة التلمذة التي كانت تربط الجاحظ باستاذه سهل.

إضافة إلى ماسبق فالجاحظ لم يُعرف بالشعوبية بل كان يدافع عن العرب دفاعاً مجيداً، فهو القائل عن عبد المطلب [لم يكن لعبدالمطلب في قريش نظير، كما أنه ليس في العرب لقريش نظير، وكما أنه ليس للعرب في الناس نظير ... وإذا قالوا سيد قريش فقد قالوا سيد العرب، وإذا قالوا سيد العرب فقد قالوا سيد الناس][2].

---

(١) الجاحظ، المحاسن والأضداد، دار إحياء العلوم، بيروت، ط: الأولى ١٩٨٦م، ص ٧؛ ورسائله، ط: أولى ١٩٨٨م، ١/٢٤٣.

(٢) الحيوان ٢/٢٤٥، ٢٤٦.

٣ - دهاؤه:

ومن ملامح شخصيته التي قدمته على أقرانه، الفطنة والذكاء، وله آثار تحكي ذلك، قال للمأمون ذات مرة: [يا أمير المؤمنين إنك ظلمتني وظلمت فلاناً الكاتب، فقال له: ويلك وكيف؟ قال: رفعته فوق قدره، ووضعتني دون قدري، إلا أنك له في ذلك أشد ظلماً، قال: كيف؟ قال: لأنك أقمته مقام هزؤٍ، وأقمتني مقام رحمة، فضحك المأمون وقال له: قاتلك الله ما أهجاك][1].

وهذا دهاء نشر في طرافة، استطاع به أن يستميل قلب خليفته إليه، بروعة عرضه لمسألته، وإبانته عن مشكلته.

وخاطب بعض الأمراء، فقال له: كذبت، فقال: أيها الأمير إن وجه الكذاب لا يقابلك[2]، وهي كناية خفية، تعني أن الأمير هو الكاذب، لأن وجه الإنسان لا يقابله.

وصدق الجاحظ حين وصفه بقوله: [كان سهلٌ سهلاً في نفسه، عتيق الوجه، حسنَ الشارةِ، بعيداً من الفدامة، معتدل القامة، مقبول الصورة، يُقضى له بالحكمة قبل الخبرة، وبرقةِ الذهنِ قبل المخاطبة، وبدقة المذهب قبل الامتحان، وبالنبل قبل التكشف][3]

---

(١) ابن نباته، سرح العيون، ص ١٣٨.

(٢) السابق نفسه، في الملك الأفضل، نزهة الظرفاء وتحفة الخلفاء، ت: نبيلة عبدالمنعم، مكتبة الثقافة، مكة، ص ٢١؛ روي قريب من هذا القول للفضل بن الربيع، ونصه: [قال الرشيد للفضل وهو مغضب: كذبت، فقال الفضل: وجه الكذوب يا أمير المؤمنين لا يقابلك، ولسانه لا يخاطبك] وأكبر الظن أن سهلاً أقتبس الفقرة الأولى، ولم يكملها بالثانية، لأنه إنما عنى الذم.

(٣) الجاحظ، البيان والتبيين ٨٩/١.

ب - العتابي [٠٠٠ - ٢٢٠هـ]

هو: كلثوم بن عمرو بن أيوب بن عبيد بن حبيش بن أوس بن مسعود بن عمرو[١]، عربي قح، ينتمي إلى جذور أصيلة، وأرومة كريمة، فجده الأكبر هو الشاعر الجاهلي عمرو بن كلثوم، لذا قال حين أراد الافتخار بنسبه:

إنـي امـرؤٌ هـدم الإقتـار مـأثرتي　　　واجتـاح مـا أَبْدَتِ الأيـامُ مـن خطـري

أنـا ابـنُ عمـرو بـن كلثـوم يسـوّدهُ　　　حيّـا ربيعـةَ والأحيـاءُ مـن مضـرِ

أرومـةٌ عَطَّلتنـي مـن مكارمهـا　　　كالقَوسِ عطّلها الرامي من الوترِ[٢]

وإذا أردنا أن نرسم صورة للعتابي، فعلينا أن نحصرها في العناصر المنهجية التالية، لعلها – إن شاء الله – تبين عن شخصيته.

١ – بيانه ومكانته الأدبية.

٢ – منزلته الاجتماعية.

٣ – مذهبه الاعتزالي، وعزلته.

---

(١) الأصبهاني، الأغاني ١٣/١٠٩، وانظر جملة من أخباره: الحصري، زهر الأداب ٣/٦٧٤ وما بعدها، ابن خلكان، وفيات الأعيان ٣/٢١٩ وما بعدها، البغدادى، تاريخ بغداد ١٢/٤٨٨ وما بعدها.

(٢) الحصري، زهر الأداب ٣/٦٧٤.

١ - بيانه ومكانته الأدبية:

رضع العربية بالفطرة والاجتهاد، إلى جوار نهمه المعرفي بالآثار الفارسية – كما سنبين ذلك لاحقاً –، فأكمل نقصه، وزاد في علمه، وأصبح ينظر إلى الأشياء بعينين اثنتين، واكتسب بذلك مزيتين:

أولاهما: روعة اللغة، وسلامتها.   وثانيهما: حداثة المعنى، وطرافته.

وللقدماء آراء فيه، تحكي عن مكانته في تاريخ الأدب، فهذا **عبدالله* بن المعتز** يشير الي علو كعبه في فني القول "الشعر والكتابة" يقول: [كان العتابي مجيداً مقتدراً على الشعر، عذب الكلام، وكاتباً جيد الرسائل حاذقاً، وقلما يجتمع هذا لأحد...][(١)] ومثله قول ابن قتيبة [كان شاعراً محسَناً، وكاتباً في الرسائل مجيداً، ولم يجتمع هذان لغيره][(٢)].

ويقول الحصري في تعداد محاسنه [وكان صاحب بديهة في المنظوم والمنثور، حسن العقل والتمييز، والعرب تقول: من تمنى رجلاً حسن العقل، حسن البيان، حسن العلم، تمنى شيئاً عسيراً، وقد اجتمع ذلك كله للعتابي][(٣)] وتتوالى آراء النقاد في الرجل مُشكِّلة صورة رائعة له، يقول الجاحظ [ومن الخطباء الشعراء ممن كان يجمع الخطابة، والشعر الجيد، والرسائل الفاخرة، مع البيان الحسن، كلثوم بن عمرو العتابي][(٤)] وقريب من هذا القول، ماذهب إليه البغدادي، قال: [كان شاعراً

---

* هو: أبوالعباس عبدالله بن المعتز بن المتوكل العباسي، كان أديباً بليغاً شاعراً، اتفق مع جماعة من رؤساء الأجناد وخلعوا الخليفة المقتدر سنة ٢٩٦هـ وولي مكانه ابن المعتز، ثم استعاد المقتدر خلافته، واختفى ابن المعتز ثم أُخذ وقتل، وكانت خلافته يوماً وليلة، ابن خلكان، وفيات الأعيان ٧٦/٣.

(١) طبقات الشعراء، ت: عبد الستار أحمد فرّاج، دار المعارف، مصر، ط: الثالثة، ص ٢٦٢.
(٢) الشعر والشعراء، ت : أحمد محمد شاكر، دار المعارف، ٨٦٣/٢.
(٣) زهر الآداب، ٦٧٤/٣.
(٤) البيان والتبيين ٥١/١.

خطيباً بليغاً مجيداً ... وله رسائل مستحسنة][1] وتتجلى قدرته التي فاق بها الأنداد في قول المسعودي [كان من العلم والقراءة والأدب والمعرفة، والترسل، وحسن النظم للكلام، وكثرة الحفظ، وحسن الإشارة، وفصاحة اللسان، وبراعة البيان، وملوكية المجالسة، وبراعة المكاتبة، وحلاوة المخاطبة، وجودة الحفظ، وصحة القريحة على مالم يكن كثير من الناس في عصره][2]،

ومكانة العتابي عند الباحثين المحدثين لا تقل بحالٍ عن منزلته عند أسلافهم، يقول شوقي ضيف [ومن الشعراء الذين جمعوا بين براعتهم في الشعر والكتابة الاخوانية، العتابي، وكانت قدرته في الكتابة لا تقل عن قدرته في الشعر][3]

وسوف نلامس اقتداره البياني في نثره عملياً في موضعه من البحث – إن شاء الله – أما عن شعره وجودته فيكفي أن أشير إلى أنه أصبح المعيار الفني الذي يحتكم إليه النقاد في تقييم أشعار الآخرين، فمن أتى بمثله فقد أجاد واستحق النوال، ومن قعدت به موهبته عن ذلك فلا عطية له، ولا أبالغ إذا قلت بأن شعره غدا تعجيزاً للشعراء في الإتيان بمثله، يقول الأصبهاني: [كثر الشعراء بباب المأمون، فأذن بهم، فقال لعلي بن صالح صاحب المصلَّى: اعرضهم، فمن كان منهم مجيداً فأوصله إليّ، ومن كان غير مجيد فاصرفه، وصادف ذلك شغلا من علي بن صالح كان يريد أن يتشاغل به عن أمر نفسه، فقام مغضباً، وقال: والله لأعمَّنَّهم بالحرمان، ثم جلس لهم، ودعا بهم، فجعلوا يتغالبون على القرب منه، فقال لهم: على رسلكم فإن المدى أقرب من ذلك، هل فيكم من يحسن أن يقول كما قال أخوكم العتابي:

ماذا عسى مادحٌ يثني عليك وقد ... ناداك في الوحي تقديسٌ وتطهيرُ

فُتَّ المَمَادحَ إلا أنّ السننَا ... مُستنطقات بما تحوي الضمائير

---

(١) تاريخ بغداد ٤٨٨/١٢.

(٢) مروج الذهب ومعادن الجوهر/ ت: محمد محيي الدين، دار المعرفة، بيروت، ١٥/٤.

(٣) العصر العباسي الأول ٤٩٦.

قالوا: لا والله مابنا أحدٌ يحسن أن يقول مثل هذا، قال: فانصرفوا جميعاً][1]

ويروي الأصبهاني عنه أيضاً، يقول: [وفد إلى عبد الله بن طاهر جمعٌ من الشعراء فعلم أنهم على بابه، فقال لخادم له أديب: أخرج إلى القوم وقل لهم من كان منكم يقول كما قال العتابي للرشيد:

مستنبط عَزَماتِ القلب من فِكَرٍ ... ما بينهن وبين الله معمور

فليدخل، وليعلم أني إن وجدتُه مقصراً عن ذلك حرمته][2]

فأضحى شعره هو الأنموذج الذي يقاس به جيد الشعر من رديئه، وأصبح المثال المحكم من الوجهة النقدية المعاصرة له، فأي مكانة أرفع من هذه؟ وأي منزلة أسنى منها؟.

وهذا التجويد الشعري من العتابي يحسده عليه الشعراء. يقول دِعْبِل*: [ماحسدتُ أحداً على شعر كما حسدت العتابي على قوله:

هيبة الإخوان قاطعةٌ ... لأخي الحاجاتِ عن طَلَبه

فإذا ماهِبتُ ذا أَمَلٍ ... مات ما أمّلت من سَببِهِ[3]

---

(١) الأغاني ١٣/١٠٩، ١١٠.

(٢) المصدر السابق ١٣/١١٢، وانظر إلى آراء أخرى حول شعره في المرزباني، أبوعبيدالله محمد بن عمران، الموشح، ت: علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي القاهرة، ١٠٦، ٣٦٠، ٣٦١؛ الحصري، زهر الآداب ٤/١٠١٥؛ الأصبهاني، الأغاني ٣/١١٠، العباسي، معاهد التنصيص ١/٩٠، ومنزلته هذه أهلته لنقد الشعر. انظر المرزباني، الموشح ٣٣٧.

* هو دِعْبِل بن علي بن رزين الخزاعي، أصله من الكوفة، وأقام ببغداد مدة، ثم خرج منها هارباً من المعتصم لما هجاه، وكان خبيث اللسان، قبيح الهجاء، ت ٢٤٦هـ، البغدادي، تاريخ بغداد ٨/٣٨٢، ٣٨٣، أخباره في: الأصبهاني، الأغاني ٢٠/١٢٠-١٨٣.

(٣) الأصبهاني، الأغاني ١٣/١١٦.

وموهبته الشعرية واتته في حداثة سنه، جاء ذات مرة إلى بشار بن برد، فأنشده:

أيصــدِف عــن أمامــةَ أم يُقِيــم ... وعهــدُك بالصِّبــا عهــدٌ قديــمُ

أقــول لِمُســتعارِ القَلــب عَفِّــي ... علــى عَزَماتِــه السّــيرُ العديــمُ

أمــا يكفيــكَ أنّ دمــوعَ عينــي ... شــآبيبٌ يفيــض بهــا الهمــوم

أشــيمُ فــلا أردُّ الطــرف إلا ... علــى أرجائِــه مــاءً سَــجُوم

فمد بشار يده إليه ثم قال له: أنت بصير؟ قال: نعم، قال: عجباً لبصير ابن زانية أن يقول هذا الشعر](١)

وهكذا دخل العتابي المجد في عصره من باب العلم والأدب، فأبدع في فني القول بدرجة سواء، حتى أصبح مثالا يُحتذى، نستمع إلى وصية **يحيى* بن خالد** لبنيه يقول: [إن قدرتم أن تكتبوا أنفاس كلثوم بن عمرو العتابي فضلاً عن رسائله، وشعره، فلن تروا مثله](٢)

---

(١) المصدر السابق ١١٣/١٣.

* هو: يحيى بن خالد بن برمك، وزر للرشيد، فنهض بأعباء الدولة، وكان كاتباً بليغاً أديباً سديداً صائب الرأى، حسن التدبير، جواداً، ونكبه الرشيد بعد حين هو وأسرته. ابن الطقطقا الفخري ص ١٩٨؛ وابن قتيبة، عبدالله بن مسلم، المعارف، ط: الرابعة، دار المعارف، القاهرة، ٣٨١، ٣٨٢.

(٢) المصدر السابق ١١٤/١٣.

٣ - منزلته الاجتماعية:

آلت به مواهبه الأدبية والعلمية إلى ذروة المجد، فاتصل بالخلفاء، واحتفوا بـه، تقديراً منهم لمكانته، يقول الأصبهاني: [وجِدَ الرشيد على العتـابي، فدخل سراً مع المتظلمين بغير إذن، فمثل بين يدي الرشيد، وقال لـه: يا أمير المؤمنين، قد أذتني الناس لك، ولنفسي فيك، وردّني ابتلاؤهم إلى شكرك، وما مع تذكرك قناعةٌ بغيرك، ولنعم الصائن لنفسي كنت لو أعانني عليك الصبر، وفي ذلك أقول:

أخِضني المقام الغَمر إن كان غرّني ... سنا خُلّبٍ أو زلّتِ القدمان

أتتركُني جَدبَ المعيشةِ مُقْتِراً ... وكفاك منَ ماء الندى تَكِفان

وتجعلُني سَهْمَ المطامع بعد ما ... بَلّلت يميني بالندى ولساني

قال: فأعجب الرشيد قولُه، وخرج عليه الخِلَعُ، وقد أمر له بجائزة٠٠٠][(١)]

وبينه وبين المأمون علاقة قوية، فقد كان عنده أثيراً، وله مقدماً، كتب المأمون في إشخاص كلثوم بن عمرو العتابي، فلما دخل عليه قال لـه: ياكلثوم بلغتني وفاتك فساءتني، ثم بلغتني وفادتك فسرتني، فقال له العتابي: ياأمير المؤمنين لو قُسمت هاتان الكلمتان على أهل الأرض لوسعتاها فضلاً وإنعاماً، وقد خصصتني منهما بما لا يتسع له أمنية، ولا يبسط لسواه أقل، لأنه لادين إلا بك، ولا دنيا إلا معك، فقال لـه: سلني فقال العتابي: يدك بالعطاء أطلق من لساني بالسؤآل، فوصلـه صلات سنية، وبلغ بـه من التقديم والإكرام أعلى محل][(٢)]

---

(١) الأغاني ١١٣/١٣؛ التنوخي، أبوعلى المُحَسَّن بن على، الفرج بعد الشدة، دار صادر، بيروت، ١٩٧٨م، ٣٨٠/١، ٣٨١.

(٢) الأصبهاني، الأغاني١١١/١٣؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان ١٢٤/٤، الحصري، زهر الأداب ٦٧٦/٣، ٦٧٧؛ البغدادي، تاريخ بغداد ٤٩٠/١٢؛ البيهقي ابراهيم بن محمد، المحاسن والمساوئ، دار صادر، بيروت، ١٩٧٠م، ٤٣٨ مع اختلاف يسير لايذهب بالمعنى.

وإجابات العتابي الممتازة تدل على ملوكية المجالسة، وحلاوة اللفظ، وصحة القريحة، كما أشار المسعودي إلى ذلك في نص سابق[١]

والقيام على خدمة شيوخ العلم والأدب، شرف لا يأنف منه علية القوم، فهذا المأمون يستأثر بإنهاض العتابي إعزازاً لقدره، واحتراماً لسنه، واعترافاً بفضله، يروى أحد معاصريه، يقول: [رأيت العتابي جالساً بين يدى المأمون، فأخذه بيده، واعتمد الشيخ على المأمون، فما زال ينهضه رويداً رويداً حتى أقله فنهض][٢]

---

(١) انظر ص ١٧ البحث.
(٢) الأصبهاني، الأغاني ١٣/١١٦.

٣ – مذهبه الاعتزالي، وعزلته.

من المهم أن نبين عن مذهبه الديني لما لذلك من آثار على صفحة التاريخ الإسلامي، فقد كان الرجل يقول بالاعتزال، فاتصل ذلك بالرشيد وكُثِّر عليه في أمره [فأمر فيه بأمر عظيم، فهرب إلى اليمن فكان مقيماً بها، فاحتال يحيى بن خالد إلى أن سمع الرشيد شيئاً من رسائله، وخطبه، فاستحسن الرشيد ذلك، وسأل الكلام لمن هو؟ فقال: هذا للعتابي ولو حضر حتى يسمع منه الأمين والمأمون هذا الكلام، ويصنع لهما خطباً لكان ذلك أصلح، فأمره بإحضاره، وأخذ الأمان له•••][(١)] ولا أستبعد أن يكون المأمون قد تشرب مذهبه في الاعتزال من العتابي، وهو في سن لم تسمح له بالتمييز الكامل، حتى غدا هذا المذهب متأصلاً في دينه، ولم تقف المشكلة عند هذا الحد، لما أحدثه المأمون عقب ذلك من فتن لحقت علماء المسلمين من أهل السنة، في القول بخلق القرآن، وما تبعه من ظهور الكثير من الفرق الدينية، وانعكاس ذلك كله سلباً على جمهرة المسلمين، وعامتهم.

وأبوحيان التوحيدي[(٢)] ينفي عن العتابي الاعتزال، وتبعه من المحدثين د/ محمد بن سعد فقد أكد براءته من مذهبه، ودليله قوله [•• لوكان معتزلياً حقاً لكانت له الصدارة في الكتابة الديوانية أيام المأمون، ولكان لم يقل شأناً عن سهل بن هارون أو غيره من الكتاب الذين قربهم الاعتزال، وأعلى من شأنهم][(٣)] وهذا الدليل الذي ساقه د/ محمد لا يرقى إلى منطقية البحث العلمي ولا إلى منهجيته، فلم يؤخره عن الخدمة في دواوين الخلفاء إلا فلسفته في الأنفة من خدمتهم [سئل: لماذا لا تخدم الأمير؟ أو لا تكتب للأمير؟ فقال: لأني رأيته يعطي رجلاً ألف مثقال بلا خصلة، ويرمي آخر من أعلى السور على رأسه بلا ذنب، فلا أدري أي الرجلين أكون

---

(١) الجهشياري، محمد بن عبدوس، الوزراء والكتاب، البابي الحلبي، مصر، ط: الثانية، ١٩٨٠م، ص ٢٣٣؛ التنوخي، الفرج بعد الشدة ٤/٢٧٠، ٢٧١؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان ٤/١٢٢.

(٢) مثالب الوزيرين، ت: د/ إبراهيم الكيلاني، دار الفكر، دمشق، ص ١٩٦.

(٣) اسم الكتاب "كلثوم بن عمرو العتابي" ط: الأولى، ١٩٨٦م، ص ٤٥.

عنده..][1] لذا آثر الرجل الأمان، ورضـي من الغنيمة بالسلامة، ولست أميل إلى تصديق اعتزاليته لرواية الجهشياري السابقة فقط، ولكن لتواتر الأدلة الدامغة على تأكيد مذهبه هذا، ومنها اعترافه على نفسه في شعره إذْ يقول:

إنـي لأخفـي مـن علمـي جواهـره ... كي لا يرى العلم ذو جهل فيفتتنا

ورب جوهـر علـم لـو أبـوح بـه ... لقيل لي أنت ممن يعبد الوثنا

ولاسـتحل رجـال دينـون دمـي ... يـرون أقبح مـا يأتونـه حسـنا

وقـد تقـدم فـي هـذا أبوحسـن ... أوصى حسينا بما قد خبّرَ الحسنا[2]

هذا ما كان عن مذهبه الديني. أما مذهبه في الحياة الاجتماعية فكان العزلة، ولعله لجأ إليها بعد أن خبر الناس، وساءت أخلاقهم، يخبر عن راحته، واستقرار نفسه، يقول: [مارأيت الراحة إلا مع الخلوة، ولا الأنس إلا مع الوحشة][3].

وقيل له من تجالس اليوم؟ فقال: من أبصق في وجهه ولا يغضب! قيل له: ماهو؟ قال: الحائط][4] وهذه العزلة التي عاشها تنطوي على إحباط تعرض له من مجتمعه وناسه، فآثر عليهم مجالسة الكتب والأنس بها، يقول:

---

(١) القرطبي، يوسف بن عبدالله، بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذهن والهاجس، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الثانية، ٣٤٨/١. ورد في الأصبهاني الراغب، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء البلغاء، دار الجيل، بيروت، ط: الثانية ١٩٨٦م، ص ٨١ قوله: [قيل للعتابي لم لا تقصد السلطان فتخدمه، فقال: لأنى أراه يعطي واحداً لغير حسنة ولا يد، ويقتل الآخر بلا سيئة ولا ذنب، ولست أدري أي الرجلين أنا، ولست أرجو منه مقدار ما أخاطر به].

(٢) البغدادي، تاريخ بغداد ٤٨٩/١٢.

(٣) ابن عبد ربه، العقد، ١٦٥/٣.

(٤) المصدر السابق ١٦٦/٣.

لنـا جُلسـاءٌ مـا نَمـلُّ حديثَهـمْ   أمينُـون مـأمُونونَ غَيْبـاً ومشـهدا
يُفيدوننـا مـن علمِهم علـى مـامضى   ورأيـاً وتأديبـاً وأمـراً مُسَـددا
بـلا عِلـةٍ تُخشَـى ولا خـوف ريبـةٍ   ولا نتقـي منهـم بنانـا ولا يـدا
فـإن قلتَ هـم أحيـاءُ لسـت بكـاذبٍ   وإن قُلتَ هم موتـى فلستَ مُفنِّـدا(١)

تحمل الأبيات الآنفة معاناة الرجل من الحياة الاجتماعية فاعتزل المجتمعات العامة، والمنتديات الخاصة – طلباً للسلامة – كما ذكرت سابقا – فالريبة بالإنسان بدون دليل استشرت في العصر حتى غدت شعاره، وصار القذف بالتهم يسيراً، فالخاصة على حذر تتوجس خيفة من خليفة أو وزير، بل والوزير لا يأمن على نفسه من سلطانه، وهكذا فقد رجال الدولة من كتاب وعلماء الأمان، والقليل منهم آثر العزلة – كما فعل العتابي– فسلم، والكثير أنغمس في الحياة فنبهه الموت من غفلته، والتاريخ يموج بأحداث كثيرة كهذه.

---

(١) الشكعة د: مصطفى، معالم الحضارة الاسلامية، دار العلم، بيروت، ١٩٨٢م، ص ٢٦٥؛ والشكعة، الشعر والشعراء في العصر العباسي، دار العلم للملايين، ط: السابعة، ١٩١١م، ص ٤٩٩، لم تنسب هذه الأبيات لأحد عند ابن الطقطقا، الفخرى، ص ٦؛ وورد عند القرطبي في بهجة المجالس ٥١/١، قوله: [وأنشد أبوعبدالله بن الاعرابي صاحب الغريب٠٠٠] وذكر الأبيات السابقة، ولفظه أنشد لا تفيد أنه صاحبها، والراجح عند الباحث أن الأبيات السابقة للعتابي لسببين: أولهما: نهمه المعرفي كما رأينا ذلك سابقاً، واعتزاله المجتمعات، وهذه إشارة الأبيات. ثانيهما: رقة ألفاظ الأبيات، وهي إلى شعر الكتاب أقرب منها إلى شعر غيرهم.

ج - الزيات [٠٠٠ - ٢٣٣هـ]

هو: محمد بن عبد الملك بن أبان الزيات، لم يكن بيته من بيوتات الأدب، فقد اشتغلوا بالتجارة، وشهروا بها، يقول النديم عن عميد أسرتهم: [وكان أبان من أهل قرية يقال لها الدسكرة يجلب الزيت إلى بغداد من مواضعه][١] غير أن صاحبنا لم يكن راضياً عن عمله مع أبيه وجده، فكانت همته أكبر من بيع الزيت، وطموحه أن يرتقي بنفسه، ولم يكن المجد - آنذاك - إلا عن طريق الأدب، يبين ابنه عمر عن همته، يقول: [كان جدي مؤسراً من تجار الكرخ، وكان يريد من أبي أن يتعلق بالتجارة، ويتشاغل بها، فيمتنع من ذلك، ويلزم الأدب وطلبه، ويخالط الكتاب، ويلازم الدواوين، فقال له ذات يوم والله ما أرى ما أنت ملازمُه ينفعك، وليضُرّنّك لأنك تدع عاجلَ المنفعة وما أنت مكفيٌّ، ولك ولأبيك مال وجاه، وتطلب الآجل الذي لاتدري كيف تكون فيه، فقال: والله لتعلمن أيُّنا ينتفع بما هو فيه أأنا أم أنت؟ ثم شخص إلى الحسن ابن سهل بفم الصلح، فامتدحه بقصيدته التي أولها:

كأنها حين تناءَى خَطْوها أَخْنَسُ مَوْشِيِ الشَّوى يرعى القُلَلْ

فأعطاه عشرة آلاف دراهم، فعاد بها إلى أبيه، فقال له: لا ألومك بعدها على ما أنت فيه][٢] لذا نجد ابن عبد ربه يعده من الذين نبلوا بالكتابة بعد الخمول[٣]

وبعد فالزيات له صورتان بارزتان، صورة في الأدب، والأخرى في السياسة تؤلف شخصيته.

١ - مكانته العلمية والأدبية. ٢ - مكانته السياسية.

---

(١) الفهرست ١٣٦؛ الأصبهاني، الأغاني ٤٦/٢٣ وما بعدها؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان ٩٤/٥ - ١٠٣ و ١٠١؛ البغدادي، عبد القادر بن عمر، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، ت: عبد السلام هارون، ط: الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٩م، ٤٤٩/١ ومابعدها؛ الذهبي، الحافظ، العبر في خبر من غبر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى ١٩٨٥م، ٣٢٦/١ أحداث سنة ٢٣٣.

(٢) الأصبهاني، الأغاني ٤٦/٢٣.

(٣) العقد الفريد ٢٥٢/٤، والقلقشندي، صبح الأعشى ٦٩/١.

١ - مكانته العلمية والأدبية:

أعطى ابن الزيات نفسه كلها للأدب والعلم، فأعطاه أدبه وعلمه مع ذكائه ومواهبه العديدة عزاً ومجداً وسؤدداً، يقول ابن الطقطقا: [نشأ محمد فتأدب وقرأ وفهم، وكان ذكياً فبرع في كل شئ، حتى صار نادرة وقته عقلاً وفهماً وذكاء وكتابة وشعراً وأدباً وخبرة بآداب الرياسة، وقواعد الملوك](١) ولعلو كعبه في فنون القول، إضافة إلى مواهبه الذاتية ذكره إبراهيم* بن المدبر في رسالته الموسومة "بالعذراء" ، وكان ابن المدبر لا يورد فيها إلا بلغاء العصر، وأفذاذ الزمان، يقول عنه: [وكان محمد من ألطف الناس ذهناً، وأدقهم طبعاً، وأصدقهم حساً، وأرشقهم قلماً، وأملحهم إشارة، إذا قال أصاب، وإذا كتب أبلغ، وإذا أشعر أحسن، وإذا اختصر أغنى عن الإطالة](٢) وعده "ابن رشيق القيرواني"(٣) من الكتاب الشعراء المبرزين.

وامتاز ابن الزيات عن غيره من الكتاب بتبحره في النحو، وتفوقه على الانداد، حتى غدا أنموذجا فريداً، ظهرت مقدرته لعلماء النحو الخلص، الذين أوقفوا أنفسهم لهذا العلم دون غيره، تروي مصادر الأدب القصة التالية تقول [لما قدم المازني بغداد في أيام المعتصم كان أصحابه وجلساؤه يحضرون بين يديه في علم النحو، فإذا اختلفوا فيما يقع فيه الشك يقول لهم المازني: ابعثوا إلى هذا الفتى الكاتب – يعني محمد بن عبد الملك – فاسألوه واعرفوا جوابه، وكان يصوب جوابه، فعلا

---

(١) الفخري في الأحكام السلطانية ٢٣٤.

* إبراهيم بن محمد بن عبيد الله المدبر، من الكتاب المترسلين، وهو من أهل بغداد، توفي ببغداد متقلداً ديوان الضياع للمعتضد؛ الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك ٣١/١٠، أحداث سنة ٢٧٩؛ وانظر: الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط: السادسة ١٩٨٤م، ٦٠/١.

(٢) انظر الرسالة العذراء لإبراهيم بن المدبر في: أحمد صفوت، جمهرة رسائل العرب، المكتبة العلمية، بيروت ٢٠٨/٤.

(٣) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد ١١٠/٢.

شأنه بذلك][1] ولم يكن النحو من الأمور الثانوية لثقافة الكاتب، بل هو من الأسس الأولية، واللبنات المهمه لذا نجد الرجل يأبى إلا أن يتم أدواته كما ارتضتها له نفسه، وكما أمله طموحه، وكان ذلك في سني عمره الأولى.

وصورته عند علماء البيان، وأرباب الأقلام رائعة روعة مأثورة، وصف أبوتمام بلاغته فقال:

لـك القلـم الأعلـى الـذي بشـباته يُصاب من الأمر الكُلى والمفاصلُ

لعـابُ الأفـاعي القـاتلاتِ لعابُـهُ وأرْيُ الجنى اشتارتهُ أيدٍ عواسلُ[2]

وللبحتري فيه قصيدة طويلة يصف فيها بلاغته وبيانه[3].

وهذه الآراء في اقتداره شعرياً ونثرياً إنما هي انعكاس طبيعي لمكانته، وتعبير دقيق نبع من تفاعلهم مع نتاجه، يقول المسعودي: [... وكان كاتباً بليغاً، وشاعراً مجيداً][4] ويعززه قول الأصبهاني: [كان محمد شاعراً مجيداً، لا يقاس به أحد من الكتاب، وإن كان إبراهيم بن العباس مثله في ذلك، فإن إبراهيم مقل وصاحب قصار ومقطعات، وكان محمد بن عبد الملك الزيات شاعراً يطيل فيجيد، ويأتي بالقصار فيجيد، وكان بليغا، حسن اللفظ إذا تكلم وإذا كتب][5] ومسوغات تقديم ابن الزيات على

---

(١) البغدادي، خزانة الأدب ٤٤٩/١؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان ٩٤/٥، البغدادي، تاريخ بغداد ٣٤٢/٢، الخضري محمد، تاريخ الأمم الإسلامية، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ١٩٧٠م، ص ٢٣٢، الكروي، ابراهيم بن سليمان، نظام الوزارة في العصر العباسي الأول، ط: الثانية ١٩٨٩، ص ٢٣٠.

(٢) الديوان، ضبط: شاهين عطية، ط: بيروت ١٨٨٩، ص ٢٢٧، ٢٣٠، وانظر: ما جمعه طه حسين وغيره في المنتخب من أدب العرب، دار الكتب، القاهرة، ١٩٣١م، ٢٣٢/٢، ٢٣٣.

(٣) ديوانه، دار بيروت للطباعة، ١٩٨٠م، ٣٢٧/٢ – ٣٢٩.

(٤) مروج الذهب ٨٨/٤؛ والجرجاني، عبد القاهر، الطرائف الأدبية، المكتبة الأزهرية للتراث، ص ١٢٢.

(٥) الأغاني ٤٧/٢٣.

إبراهيم بن العباس الإطالة مع التجويد والإحسان، وإلا فهما قد تساويا في المقطعات مع الإبداع، ويروي أبوبكر الصولي في ذات الموضوع، يقول: [اجتمع الكتاب فتذاكروا الماضين منهم فأجمعوا ... على أن أشعر كتاب دولتهم إبراهيم بن العباس وابن الزيات](١).

هذا رأي الأسلاف في مكانة الرجل أما رأي المحدثين فلا يقل أعجابهم بمأثوره عن السابقين، رغم تغير الزمان، واختلاف الأذواق، يقول شوقي ضيف: [ونمضي إلى عصر المعتصم والواثق وفيه يتألق في الكتابة البليغة اسم ابن الزيات وزيرهما](٢)

وإبداعه في إنشاء الشعر أهله إلى نقده، من مثل قوله لأبي تمام – بعد أن امتدحه بقيصدة منها قوله:

ديمةٌ سَمْحةُ القيادِ سكوبُ   مستغيثٌ بها الثرى المكروبُ

لوسعت بقعةٌ لإعظام أخرى   لسعى نحوها المكانُ الجديبُ

قال ابن الزيات بعدما طرب للبيتين: يا أبا تمام إنك لتحلي شعرك من جواهر لفظك، وبديع معانيك ما يزيد حسناً على بهيّ الجواهر في أجياد الكواعب، وما يدّخر لك شيءٌ من جزيل المكافأة إلا ويقصر عن شعرك في الموازاة](٣) ومن نقده في المنثور لعبد الله بن الحسين الأصبهاني حين كتب إلى خالد بن يزيد بن مزيد [إن المعتصم أمير المؤمنين ينفخ منك في غير فحم، ويخاطب أمرءاً غير ذي فهم، قال: هذا كلام ساقط سخيف، جعل أمير المؤمنين ينفخ بالزِّق كأنه حداد...](٤)

---

(١) الجرجاني، الطرائف الأدبية ١٢٤.

(٢) العصر العباسي الأول ٤٨٨.

(٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان ٢/١٦؛ الزيات، أحمد حسن، تاريخ الأدب العربي، دار الثقافة، بيروت، ص ٢٩٢.

(٤) الأغاني ٢٣/٥٣.

٢ - مكانته السياسية:

هي إمتداد لمنزلته الأدبية، تروي الكثير من مصادر الأدب والتاريخ نبوغه واتساع ثقافته، وما انتهى إليه أمره بتولي منصب الوزارة أعلى مراتب الشرف السياسي، أمل الكتاب وطموحهم، وتسوق تلك المصادر قصته مع المعتصم والوزارة، تقول:[كان في أول أمره من جملة الكتاب، وكان أحمد بن عمار بن شادي البصري وزير المعتصم، فورد على المعتصم كتاب من بعض العمال فقرأه الوزير عليه، وكان في الكتاب ذكر الكلأ، فقال له المعتصم: ما الكلأ؟ فقال لا أعلم وكان قليل المعرفة بالأدب، فقال له المعتصم: خليفة أمي، ووزير عامي! وكان المعتصم ضعيف الكتابة، ثم قال له: أبصروا من بالباب من الكتاب، فوجدوا محمد بن عبد الملك الزيات، فأدخلوه إليه فقال: ما الكلأ؟ فقال: الكلأ العشب على الاطلاق، فإن كان رطباً فهو الكلأ، فإذا يبس فهو الحشيش، وشرع في تقسيم أنواع النبات، فعلم المعتصم فضله فاستوزره][1] ولهذا كان ابن الزيات وفياً للمعتصم، حافظاً لجميله إذْ نقله من حال إلى حال يقول: [إن أمير المؤمنين صنعني صنيعة تفرد، نقلني من ذل التجارة، إلى عز الوزارة][2] واستمر نجمه في العلو، فوزر للواثق من بعد المعتصم رغم أن العلائق قد ساءت بينهما، ومرد ذلك يعود إلى منع ابن الزيات لمال قد أمر به المعتصم لابنه الواثق، فأحنق ذلك الواثق وأغضبه، وحلف بأن يقتل ابن الزيات شر قتلة إن هو ولي الأمر، وكتب على نفسه بذلك كتاباً حلف فيه بالحج والعتق والصدقة، فلما جلس على

---

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان ٩٤/٥، ٩٥، ١٠١، ١٠٢؛ البغدادي، خزانة الأدب ٤٤٩/١؛ التنوخي أبوالقاسم على بن المحسن، لطائف الأخبار وتذكرة أولي الأبصار، دار عالم الكتب، الرياض، ١٩٩٣م، ص ٣٣؛ القلقشندي، مآثر الأناقة في معالم الخلافة، ت: عبد الستار أحمد، عالم الكتب، بيروت، ط: الأولى ١٩٦٤م، ٢١٨/١، ٢١٩؛ الخضري، تاريخ الأمم الإسلامية ٢٣١، ٢٣٢، وذكر ابن قتيبة أبومحمد بن عبدالله بن مسلم في أدب الكاتب، دار المطبوعات العربية، بيروت، ص ٧،٦. القصة السابقة، ولعلها من أهم الأسباب التي دعته إلى تأليف كتابه هذا.

(٢) الثعالبي، عبد الملك بن محمد، خاص الخاص، مكتبة الحياة، بيروت، ص ٨.

كرسي الخلافة أدخل عشرة من الكتاب فاختبرهم فلم يجد فيهم غناء عن الرجل(١) فقال للحاجب: [ادخل من المُلكُ محتاج إليه، محمد بن الزيات، فأدخله، فوقف بين يديه خائفاً، فقال للخادم: احضر إليّ المكتوب الفلاني، فأحضر له الكتاب الذي كان كتبه وحلف فيه ليقتلن ابن الزيات، فدفعه إلى ابن الزيات، وقال: اقرأه، فلما قرأه قال: يا أمير المؤمنين أنا عبدك إن عاقبته فأنت حاكم فيه، وإن كفّرت عن يمينك واستبقيته كان أشبه بك، فقال الواثق: والله ما أبقيتك إلا خوفاً من خلو الدولة من مثلك، وسأكفر عن يميني، فإني أجد عن المال عوضاً، ولا أجد عن مثلك عوضاً، ثم كفر عن يمينه، واستوزره، وقدمه، وفوض الأمور إليه](٢) فأي مكانة هذه التي أذهبت حفيظه الخليفة، وجعلت المغضوب عليه موطن الرضا، هي بالتأكيد كفاءته، وانعدام أمثاله من الساسة المقتدرين، فآثره الواثق على شهوة الانتقام التي كانت تشتعل في صدره، إعزازاً للدولة به، وزاد في تقديمه، وأفرط في إكرامه، حين أمر أن يقوم له جميع الناس، ولم يجعل في ذلك رخصة لأحد فكان **ابن أبي* دؤاد** – وهو من أشراف الناس – [يستعجل صلاة الضحى إذا أحس بقدومه، أنفة من القيام له في دار السلطان، وامتثالاً للأمر](٣)

واستمر نجمه في السطوع، وحاله في الارتفاع، حتى وزّر – للمرة الثالثة على التوالي– للمتوكل، فكان بذلك أحد نوادر التاريخ، يقول الفضل بن مروان: [ولا

---

(١) ابن الطقطقا، الفخري في الأحكام السلطانية ٢٣٤ بتصرف.

(٢) السابق نفسه، والتنوخي أبوعلى المحسن بن على، نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، ت: عبود الشالجي، ١٩٧٣م، ٨/١٧-١٩، مع اختلاف يسير؛ والحصري، ذيل زهر الآداب الرحمانية، مصر، ١٣٥٣هـ، ص ٢٥٠، ٢٥١.

* هو أحمد بن أبي دؤاد بن جرير، ولي القضاء للمعتصم ثم الواثق، وكان موصوفاً بالجود والسخاء، وحسن الخلق غير أنه حمل السلطان على الامتحان بخلق القرآن ت٢٤٠هـ. انظر: البغدادي، تاريخ بغداد ٤/١٤١.

(٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان ٥/١٠٢، والمصدر نفسه ١/٨٥، والحصري، زهر الآداب ٣/٧٥١، ٧٥٢، والبيتي، جعفر بن السيد العلوي، مواسم الأدب، وآثار العجم والعرب، السعادة، ط: الأولى ١٣٢٦هـ، ١/١٢٦.

نعلم وزيراً وزّر وزارة واحدة بلا صرف لثلاثة خلفاء متسقين، غير محمد بن عبد الملك الزيات][1].

وفي وزراته للمتوكل بدأ نجمه في الأفول، فلم يعجب الخليفة نهجه السياسي، فقد كان يأخذ الناس – جليلهم ودقيقهم – بالشدة والعنف، فلم يعرف الرحمة، ولم تعرفه بعد ذلك، يروي اليعقوبي أحمد عن قسوة ابن الزيات، يقول: [وكان محمد بن عبد الملك الزيات رجلاً شديد القسوة، قليل الرحمة، جباهاً للناس، كثير الاستخفاف بهم، لا يُعرف له إحسان إلى أحد، ولا معروف عنده ··· فلما نُكب لم يُر إلا شامت به، وفرح بنكبته][2]

وأبلغ تعبير هو اعتراف ابن الزيات على نفسه قال متفاخراً: [الرحمة خور في الطبيعة، وضعف في المنة، مارحمت شيئاً قط][3] فكانوا يطعنون عليه في دينه بهذا القول، فلما وضع في الثِّقْل والحديد قال: ارحموني، فقالوا له: [الرحمة خور في الطبيعة][4].

ومن عجائب القدر وعدله، أن يعذب ابن الزيات بالأداة ذاتها التي كان يُعذب بها ضحاياه، يروى المسعودي قصة قتله فيقول: [··· وقد كان ابن الزيات اتخذ للمصادرين، والمغضوب عليهم تنُّوراً من الحديد، رؤوس مساميره إلى داخل، قائمة مثل رؤوس المسالّ في أيام وزاراته للمعتصم والواثق، فكان يعذب الناس فيه، فأمر المتوكل بإدخاله في ذلك التنور، فقال محمد بن عبد الملك للموكل به أن يأذن له في دواة وبطاقة ليكتب فيها مايريد، فاستأذن المتوكل في ذلك، فإذن له فكتب

هي السبيل فمن يوم إلى يوم — كأنه ما تُريكَ العين في النوم

لا تجزعَنّ رويداً إنها دول — دنيا تنقل من قوم إلى قوم

---

(١) التنوخي، نشوار المحاضرة ١٩/٨، وابن عربي، محيي الدين، محاضرة الأبرار، ومسامرة الأخيار، دار اليقظة، ١٩٦٨م، ٧٨/١، ٧٩.

(٢) تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت ٤٨٤/٢.

(٣)،(٤) ابن خلكان، وفيات الأعيان ١٠٢/٥.

وتشاغل المتوكل في ذلك اليوم، فلم تصل الرقعة إليه، فلما كان الغد قرأها، فأمر بإخراجه، فوجده ميتاً، وكان حبسه في ذلك التنور إلى أن مات أربعين يوماً][1] فكانت هذه نهاية التمادي في الظلم، والاستمرار في الغي، ولعل ماحل به كان من أثر دعوة مظلوم حملها الغمام إلى رب الغمام، فأجابها بعد حين، وما ربك بظلام للعبيد.

---

(١) مروج الذهب ٤/٨٨؛ البغدادي، خزانة الأدب ١/٤٥٠؛ ذكر العاملي بهاء الدين، الكشكول، ت: الطاهر أحمد الزاوي ٢/٥٢ أن البيتين لأبي العتاهية، وفي مطلعهما بعض الاختلاف /هو السبيل، / لا تعجلن رويداً

د - الحسن بن وهب [٠٠٠ - ٢٤٧هـ]

هو الحسن بن وهب بن سعيد بن عمرو بن حصين الكاتب[١]، فارسي الأرومة، عربي المنشأ والمقام، وكان يدّعي بأنه أصل في العرب، أصيل في النسب، ولعل مادفعه إلى التملص من فارسيته، والتنكر لها، هو مايراه من نظرة العرب للموالي آنذاك، فكانوا يحسون إزاء ذلك بالغبن، وعقدة الدون، رغم مابلغوه من منزلة عالية، ومكانة رفيعة. فالعربي دواخل أنفسهم هو السيد، وهم دون ذلك، وكان أخوه سليمان ينكر عليه ذلك، ولا يرتضيه منه، يقول الصولي: [كان الحسن بن وهب أشد تمسكاً بالنسب إلى بني الحارث بن كعب من أخيه سليمان، وكان سليمان ينكر ذلك، ويعاتب أخاه الحسن وابنه أحمد بن سليمان، وأصلهم من قرية من سواد واسط في جسر سابور، يقال لها "سَارَ قيقا"][٢].

وأسرة آل وهب كانت تدين[٣] بالنصرانية في غابر أيامها، وهي من الأسر القلائل التي أشتغلت بالكتابة، وأعرقت فيها، واشتهرت بها، يقول الكتبي [فآباؤه وأجداده كلهم كتبة في الدولتين الأموية والعباسية][٤].

وفصّل النديم[٥] شخصيات الأسرة في الدولتين، وأشار إلى من خدموا من الخلفاء والأمراء؛ وللرجل مسلكان في حياته قل أن يندّ عنهما، عُرفا به، وعرف بهما.

١ - بيانه ومعاصروه. ٢ - لهوه ومجونه.

---

(١) الكتبي، فوات الوفيات ٣٦٧/١ عند: النديم، الفهرست ١٣٦، ورد اسمه [الحسن بن وهب ابن حصين بن قيس بن قنان بن متى] فحذف اسم جده (سعيد) وجد أبيه (عمرو) واستكمل نسبه.

(٢) الأصبهاني، الأغاني ٩٦/٢٣.

(٣)،(٤) فوات الوفيات ٣٦٧/١.

(٥) الفهرست ١٣٦.

١ - بيانه ومعاصروه:

حفظ لنا التاريخ الأدبي الكثير من مأثوره وأخباره، أضعاف ما حفظه لسائر أسرته وهذا دليل على تفوقه، لذا فهو عميد أسرة آل وهب، وللنقاد آراء فيما أنتجه، وهي تراه في قمة المجد الأدبي، وسنورد بعضها لنتلمس منزلته في عيونهم، فهذا ابن رشيق يذكره من الكتاب الشعراء المبرزين[١]، والنديم واحد من هؤلاء الحكام فقد صنفه من البلغاء الحذُث[٢]، ويقول أيضا في وصف براعته في فني القول [كان شاعراً بليغاً، مترسلا فصيحاً، وأحد ظرفاء الكتاب][٣] وابن عبد ربه عدّه في عقده من الذين نبلوا بالكتابة واستحقوا اسمها[٤]، ويؤكد هذا المعنى الحصري، يقول: [حسن الشعر والبلاغة، جيد اللسان، حلو البيان][٥] وفي شدوه وإبداعه يتغنى به المسعودي في قوله: [وكان شاعراً ظريفاً، له حظ في المنثور والمنظوم، وله أشعار حسان، ومعان جياد][٦].

وأقرانه من خاصة الكتاب أدركوا تساميه في صنعة الشعر، وإبداعه، فأصبحوا يتهادون به، كأجمل ماتكون الهدية، يقول عمر بن نصر الكاتب: [كنا نتهادى ونحن في الديوان أشعار الحسن بن وهب، ونتباهى بحفظها][٧] وإذا انتقلنا إلى معاصر آخر نجد أحمد بن اسماعيل يقرن - بلطف - بين بلاغة الحسن، وبين أدواته الكتابية، وكأنه يلمح إلى عشق إيجابي متبادل بينهما، فالحسن - عند صاحبه - عاشق للكتابة وأدواتها، وهي بدورها عاشقة له، يقول - منصفاً في حكمه، موفقاً في ربطه -:

---

(١) العمدة، ١٠٩/٢، ١١٠.
(٢) الفهرست ١٤٠.
(٣) المصدر السابق ١٣٦.
(٤) ٢٥٢/٤.
(٥) زهر الآداب ٦٨٠/٣.
(٦) مروج الذهب ٧٥/٤.
(٧) الأصبهاني، الأغاني ٩٦/٢٣.

مـــدادٌ مثـــلُ خافيـــة الغـــراب وأقـــلامٌ كمرْهفـــةِ الحـــراب

وقرطـــاسٌ كرقـــراقِ الســـرابِ وألفـــاظٌ كأيـــام الشـــباب(١)

فألفاظ الحسن معاصرة، ينداح منها روح الشباب وفتوته، فهي ليست معجمية ميتة، ولا عامية مبتذلة.

والحسن ذاته يتغنى بأدوات الكتابة يقول:

ومـا شـيءٌ بأحسـن مـن ثيـابٍ علـى حافاتهـا سـمةُ المـدادِ(٢)

فجمال الثوب عنده ليس في بياضه، ولا في نصاعته، بل في اختلاطه بالمداد، رفعة لصاحبه، وشرفاً له، وهذا هو الارتباط بالصنعة، والعشق لها.

وهذه العلائق الحميمة التي تربط الحسن بأدوات الكتابة، أكسبته ثقة الكتاب، فأخذ يوجههم إلى ماينبغي أن يكون عليه القلم وبريه ورسمه، ومنتهى ذلك من خط وتصحيف ومقاطع، يقول: [يحتاج الكاتب إلى خلال: منها جودة بري القلم، وإطالة جِلْفَتِه، وتحريف قطّته، وحسن التأتي لامتطاء الأنامل، وإرسال المدة بقدر اتساع الحروف، والتحرز عند فراغها من الكسوف، وترك الشكل على الخطأ، والإعجام على التصحيف، واستواء الرسوم، وحلاوة المقاطع](٣) ومن آلات الكتابة الدواة، يقول الحسن فيما يجب أن تكون عليه: [سبيل الدواة أن تكون عليها من الحِلْية أخف

---

(١) العسكري، أبوهلال، ديوان المعاني، عالم الكتب ٨٣/٢؛ ورد عند الصولي محمد بن يحيي، أدب الكتاب، دار الباز، ص ١٠١ قوله [أنشدنا أحمد بن اسماعيل للحسن بن وهب

مداد مثل خافية الغراب وقرطاس كرقراق السراب

وأقلام كمرهفة الحراب وألفاظ كأيام الشبـــــاب

(٢) الأصبهاني، محاضرات الأدباء ٤٨.

(٣) ابن عبد ربه، العقد الفريد ٤٨١/٤.

مايكون، ويمكن أن تُحلى به الدَّويُّ في وثاقةٍ ولطف، ليأمن من أن تتكسر أو تتقصم في مجلسه، قال: وحق الحلية أن تكون ساذجة بغير حُفَرٍ ولا ثنيات فيها، ليأمن من مسارعة القذى والدنس إليها، ولا يكون عليها نقشٌ ولا صورة][1].

وإذا كانت هذه حاله في العناية الشديدة، والاهتمام الواضح بأدق أدوات الكتابة من قلم وقرطاس... ومواصفات ذلك كله، أدركنا في غير عناء سبب اتقانه في هذه وتلك، إلى الحد الذي أهله إلى أن يكون أستاذاً لأقرانه في الكتابة، تأمل توجيهه لهم يقول: [كاتب رئيسك بما يستحق، ومن دونك بما يستوجب، واكتب إلى صديقك كما تكتب إلى حبيبك][2] وهذا الإرشاد يبين لنا عن طريقته، ويسفر عن نهجه في مكاتبة الطبقات المتباينة، إذْ لا يُعقل أن يوجههم بخلاف نهجه، أو يرشدهم وهو دونهم في الصنعة. ومن لمحاته النقدية في الشعر قوله لأبي تمام – بعد أن أنشد أمامه قوله:

جاري إليه البينُ وَصْلَ خَريدةٍ ... ماشَتْ إليه المَطْل مشيَ الأكبد

ياليوم شرّد يوم لهْوي لَهْوَهُ ... بصبابتي وأذلّ عِزّ تجلدي

يوم أفاضَ جوىً أغاض تعزيا ... خاض الهَوى بحرى حجاه المُزبدِ

قال بعد أن فرغ من استماعه: ياهذا لقد شددت على نفسك، والكلام إذا كان بهذه المثابة كان مذموماً][3] ومكانته في صناعة الكتابة والشعر، وتوافر مواهبه، أفضى به ذلك إلى تولي ديوان[4] الرسائل في وزارة محمد بن عبد الملك الزيات.

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى ٤٧١/٢.

(٢) الصولي، أدب الكتاب ص ٢٣٦.

(٣) العسكري، أبوهلال الحسن، الصناعتين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الثانية ١٩٨٤م، ص ٥٧؛ ابن المعتز، عبدالله، البديع، تعليق: اغناطيوس كراتشقوفسكي ص ٥٥ مع اختلاف يسير.

(٤) النديم، الفهرست ١٣٦؛ السامرائي يونس بن أحمد، آل وهب، المعارف، بغداد، ١٩٧٨م، ط: الأولى ص ٨٤.

٣ - لهوه ومجونه:

بيئة الخواص من الأدباء في العصر العباسي - بترفها، ونعيمها، ومجونها- أنبتت الحسن بن وهب، وغذته، ولا أعني أن للبيئة هذا القدر من الأثر الصريح، بقدر ما عنيت أنها - أي البيئة - وجدت في الحسن قابلية النمو، وروح الاستعداد، فكانت المعايشة بينه وبين ماوجده مهيئاً في عصره، من جوارٍ، وغلمانٍ، وشراب، فأتبع نفسه هواها، وأطلق لها العنان تسيّره كيف شاءت، وانغمس في اللذات.

أهدى ذات مرة إلى بنان - جارية كان يتعشقها - هدية في علة اعتلتها، وكتب:

شفاءُ انيـنِ بالشفانين[١] أمّلت ... لكم نفسُ من أهدى الشفافين عامدا

كُلُوها يكِلُّ الداءُ عنكم فإنني ... أزوركمُ للشوق لازرتُ عائداً[٢]

ويقول وهو يناجي طيف حبيبته:

أرِقْتُ، وكيف لي بالنوم كَيْفا ... فألقَى من حبيبِ النفسِ طَيْفاَ

أقولُ لها: متى؟ وتقول حتى ... وتمطُلُني الهوى بنعم وسَوْفَا[٣]

وغراميات الرجل تشي بضعف دينه، يقول في نص آخر:

---

(١) الشفانين: ضرب من الحمام جميل الصوت، بهي المنظر.

(٢) الأصبهاني، الأغاني ١٠٣/٢٣.

(٣) المرتضى، على بن الحسين، طيف الخيال، عيسى البابي الحلبي، ١٩٦٢، ط: الأولى، ص ١٨٩.

جَسَّ عِرْقِي فقالَ: حبٌّ، طبيبي ... مالَهُ في عِلاجِهِ مِنْ مُصيبِ

فغمزتُ الطبيبَ سِرّاً بعيني ... ثم حلّفتُهُ بحق الصليبِ

لا تقل: لوعةُ الهوى اسْقَمَتْهُ ... فينالُوا بدعوةٍ من حبيبي[1]

ومن الأمور الشائعة آنذاك اجتماع الثالوث المحرم - الخمر والجواري والغناء - في أي مجلس من تلك المجالس الماجنة التي كانت تضمهم، والحسن رئيسهم في ذلك، تأمل ماكتبه إلى الحسن بن رجاء في يوم شك وقد افطر الواثق:

هَزَزْتُك للصبوح وقد نهانا ... أميرُ المؤمنينَ عن الصيام

وعندي من قنان المصرِ عشرٌ ... تطيبُ بهنَّ دائرةُ المدام

فكنْ أنتَ الجوابَ فليسَ شيءٌ ... أحبَّ إليَّ من حذف الكلام[2]

ولعل الخمر بلغ منه مبلغاً استحال معه الفكاك، أو قل إنه إدمان برغبة، وقتل للنفس التي حرم الله قتلها بإصرار، فهو لايرى اليوم من عمره إذا خلا من الشراب، يقول:

إذا كان يومي يوم غير مدامة ... ولا يوم فتيان فما هو من عمري

وإن كان معموراً بعودٍ وقهوة ... فذلك مسروق لعمري من الدهر[3]

---

(١) السراج، محمد جعفر، مصارع العشاق، دار صادر، بيروت ٢٣٩/١.

(٢) العسكري، ديوان المعاني ٢٣٥/٢.

(٣) السامرائي، آل وهب ٤٢.

وهذا التمادي في الغي، واتباع الهوى في الملذات، والتهالك على الشهوات، أورثه ذلك كله جسماً بالياً، ورسماً ضئيلا، تراه العين فتتكره، وتبصره ولا تكاد تستبينه، يقول شاهداً على رمي نفسه في التهلكة:

أبليتُ جسمي من بعد جدّته فما تكادُ العيونُ تبصرُه

كأنه رسمُ منزل خلقٍ تعرفهُ العينُ ثم تنكرهُ[1]

ولم يدرك د/ السامرائي في بحثه عن آل وهب دلالة البيتين رغم وضوحهما، واستشف منهما صفات الحسن الخِلْقِيَّة، وملامحه الجسدية، ومناسبة ذلك لما ينبغي أن يكون عليه جسم الكاتب من منظور النقاد يقول: [وأكبر الظن أنه لم يكن بديناً][2] واستشهد بالبيتين، وهذا وهم وقع فيه السامرائي، فالبيتان يدلان على أن الرجل أهلك نفسه بمعاقرته الخمر، وتعلقه بالنساء، انظر إليه يكرر اعترافه في نص آخر، يقول:

دَوَاعي السُّقمِ تُخبرُ عن ضَمِيري ويُخبرُ عن مُفَارَقَتي سُرُوري

ألا ياسائلي عن سُوءِ حَالي وعن شَأني سَقَطتَ على الخبيرِ

شَرِبْتُ من الصَّبابَةِ كأسَ سُقم بعَيْنَيْ شَادِنٍ ظَبْيٍ غَرِيرِ[3]

وخلاصة القول يمكن أن نقول أن تجاوزات الحسن على الدين، واستهتاره بقيم الإسلام أهلكه وأفناه، ولو حفظ الله لحفظه في صحته، وسائر أحواله.

ولهذه النزعة عند الرجل آثارها على بعض أدبه، وملامحها على شئ من مأثوره، قال لرجل رآه يعبس عند الشرب: [ما أنصفتها تضحك في وجهك، وتعبس

(١) العسكري، ديوان المعاني ١/٢٧٢.
(٢) ص ٣٤
(٣) السرّاج، جعفر بن محمد، مصارع العشاق، دار صادر، بيروت، ١/٢٣٩.

في وجهها][1]، وذكر الحسن مغنياً فقال: [كأنه خلق من كل قلب، فهـو يُغنـي كـلا بمـا يشتهيه][2].

وحسبنا من ذلك هذا القدر، وهي تخبر عما وراءها من حياته وحياة بعض الأدباء الآخرين في عصره، وانغماسهم في الملذات.

(١) الحصري، زهر الآداب ٢/٥٠٢؛ العسكري، الصناعتين ٣٤٣؛ ابن المعتز، البديع ٤٥.
(٢) الثعالبي، آداب الملوك ١٤٩.

هـ – سعيد بن حميد [٠٠٠ – ٢٥٠هـ]

هو : سعيد بن حميد بن سعيد بن حميد بن يحيى، يُكنى أبا عثمان، فارسي الأصل، بغدادي المولد والمنشأ[١]، يقول المسعودي بأنه من أبناء المجوس[٢]، وكان يدعي بأنه من أولاد ملوك الفرس[٣]، وليس لدينا من الأدلة ما يثبت هذا الإدعاء أو ينفيه.

وكان شعوبياً وإن لم تشر مظان البحث إلى ذلك، غير أن النديم ذكر له كتاب انتصاف العجم من العرب، ويعرف بالتسوية[٤].

ومن خلال استقراء النصوص الأدبية، وتتبع آراء معاصريه فيه، نجد ملامح شتى عن شخصيته، إذا ما ركبت تجلت لنا صورة سعيد بن حميد، وهي:

١ – منزلته العلمية والأدبية. ٢ – سرقاته. ٣ – لهوه.

---

(١) الأصبهاني، الأغاني ١٨/١٥٥؛ والبغدادي، تاريخ بغداد ١٩/١٢٣.
(٢) مروج الذهب ٤/١٤٦.
(٣)،(٤) الفهرست ١٣٧.

١ - منزلته العلمية والأدبية:

انطلق - كغيره من أبناء جلدته - إلى المجد عن طريق الأدب، فقرأ وحفظ، وحبّر الرسائل، وأنشأ الشعر.. ساعده على ذلك مواهبه الذاتية، وقدراته الشخصية، فقد رُوي أنه شديد الذكاء، متقد الذهن، حفاظة لكل ماتقع عليه عيناه، أو تلتقطه أذناه يروي الأصبهاني القصة التالية، يقول: [ذكر محمد بن موسى أن أبا يوسف بن الدقاق اللغوي أخبره أن حميد بن سعيد دفع إليه ابنه سعيداً وهو صبي، فقال له: امض به معك إلى مجلس ابن الاعرابي قال: فحضرناه ذات يوم، فأنشدنا أُرجوزة لبعض العرب فاستحسنتها، ولم تكن معنا محبرة نكتبها فلما انصرفنا قلت له: فاتتنا هذه الأرجوزة، فقال: لم تفتك، أتحب أن أنشدكها؟ قلت: نعم، فأنشدنيها، وهي نيف وعشرون بيتاً قد حفظها عنه، وإنما سمعها مرة واحدة، فلقيت أباه من غد فقال لي: كيف رأيت سعيداً؟ قلت له: إنك أوصيتني به، وأنا أسألك الآن أن توصيه بي فضحك، وسألني عن الخبر، فأعلمته فسُرّ به][1] فاستغنى ابن حميد بذاكرته عن القلم والقرطاس، وهو حدث صغير، ولا خفاء فيما أحدثه ذلك في مستقبله الأدبي، ويظهر أن الخليفة المستعين قربه بسبب مابدا له من نبوغه، يقول المسعودي: [قلده المستعين ديوان الرسائل، وكان سعيد حافظاً لما يُستحسن من الأخبار، ويُستجاد من الأشعار، متصرفاً في فنون العلم، ممتعاً إذا حدث، مفيداً إذا جُولس..][2].

وبلوغه ديوان الرسائل أكبر برهان على مكانته، إذْ لا يصل الكاتب إلى ذلك المنصب إلا بعد أن يستوي علمه، ويكتمل نضجه، لذا لا نعجب إذا عده ابن رشيق[3] من صفوة الكتاب الشعراء، ولم يذكر معه إلا إبراهيم بن العباس، ويؤكد رأي ابن رشيق الأصبهاني، يقول عنه: [كاتب شاعر مترسل، حسن الكلام

---

(١) الأغاني ١٨/١٥٦.

(٢) مروج الذهب ٤/١٤٥.

(٣) العمدة ٢/١٠٩، ١١٠.

فصيح..][1] وقريب منه قول النديم [.. كاتب شاعر مترسل عذب الألفاظ، مقدم في صناعته][2]، ويصف الحصري منظومه ومنثوره بالحلاوة[3].

ولمكانة الرجل في الصنعة، نجده كغيره من أكابر الكتاب يصور رؤيته لما يجب أن تكون عليه أدوات الكتابة، يقول: [من أدب الكاتب أن يأخذ قلمه في أحسن أجزائه، وأبعد ما يتمكن المداد منه، ويعطيه من القرطاس حقه][4] ويحذر من النقط والإعجام لأنهما كانا في زمن الكاتب من المعايب، ويرى إشكال الكلمة أهون عليه من ضبطها، يقول: [لان يشكل عليّ الحرف أحب إليّ من أن يعاب بالنقط والإعجام][5] وهذا نهج فيه غرابة، وربما أدى التصحيف إلى قلب المعنى المراد، وأحدث أضراراً بسبب تعنت الكاتب، وعلى كل فهذه طريقة جل الكتاب أنذاك، ولذا حفظت لنا مصادر الأدب الكثير من الطرائف المضحكة والمبكية أيضاً بسبب هذا النهج.

---

(١) الأغاني ١٨/١٥٥.

(٢) الفهرست ١٣٧.

(٣) زهر الأداب ٤/١١٠١.

(٤) ابن عبد ربه، العقد الفريد ٤/٢٨١.

(٥) أحمد صفوت، جمهرة رسائل العرب ٤/١٩١، ورد النص في الرسالة العذراء المنسوبة لإبراهيم بن المدبر.

٣ - سرقاته:

لا أعلم عقلاً رفع صاحبه ووضعه في الآن معاً إلا عقل سعيد بن حميد، رفعه حين ولي ديوان الرسائل، ووضعه حين غدا مثار شك، وموضع اتهام، ولا أعلم كاتباً غيره حامت حول مأثوره الشبهات، حتى قال عنه النديم: [٠٠٠ جيد التناول للسرقة، كثير الإغارة، لو قيل لكلام سعيد وشعره إرجع إلى أهلك لما بقي معه منه شئ][1] ومثله رأي الحصري، يقول: [٠٠ قليل الاختراع، كثير الإغارة على من سبقه، وكان يقال: لو رجع كلام كل أحد إلى صاحبه لبقي سعيد بن حميد ساكتاً][2] إلى هذا الحد بلغ سوء الظن به، والريبة بنتاجه.

وحين أقول بأن عقليته كانت يقوم بدور الموجب والسالب في وضعه الأدبي، والاجتماعي، فإني أشير إلى الصلات الخفية التي تجمع بين حافظته وبين اتهامه بالسرقة، فمثل هذه القدرة على الاستيعاب، والاستطاعة على التخزين منذ صباه، لها تأثير - شعوري أو لا شعوري - على ما يكتبه، فإن كان التأثر بوعي فتخرج التهمة من دائرة التجريم إلى نطاق استلهام التجارب السابقة، والخبرات المعاصرة له، وهو في هذه الحالة قد يشير إلى صاحب السبق، ويرد الفضل لأهله، تأمل ما كتبه إلى أحدهم: [فليت شعري هل خطرنا ببالك، أو أنساك عهدنا من يصبو إليك من أودائك؟ هذا من قول الشاعر:

ليت شعري عن الذين تركنا ... خَلفنا بالعراق هل يَذْكُرونا

أم لعلَّ المَدَى تَطَاول حتى ... بَلِي العَهدُ بعدنا فَنسونا٠٠][3]

---

(١) الفهرست ١٣٧.

(٢) زهر الأدب ١١٠١/٤.

(٣) الكرخي، محمد بن سهل المرزبان، الشوق والفراق، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط: الأولى، ١٩٨٨م، ص ١٤٠؛ والقالي، على بن اسماعيل، ذيل الأمالي والنوادر، دار الكتاب العربي، بيروت، ص ١٢٨.

فنثر الشعر ليس عيباً وإن لم يشر الكاتب إلى صاحبه، ورغم ذلك فقد أشار ابن حميد هنا.

أما إذا كان التأثر بغير وعي، فتخرج أيضاً من السرقة إلى الإشكال، وله عند المنصفين مايبرره، ألا ترى تزاحم محفوظه وكثرته - مع تقادم العهد به - وامتزاجه بعطائه حتى اختلط الأمر عليه، فما عاد يميز بين ماهو له وبين ماهو لسواه، هذا فضلاً عن موانع السرقة عند الرجل من شرف بلغه، ومنزلة حظي بها، كل تلك عوامل مهمة تحول بينه وبين الإغارة على نتاج غيره.

ولا يعني هذا براءته التامة، وخلو ساحته مما نسب إليه من سرقات - رغم تحفظي على اللفظة - ولكنها أيضاً ليست بهذا القدرمن التهويل الذي نطالعه، وإذا أردنا أن نبحث فيما نسب إليه من سرقات فيمكن حصرها في بعض تهنئآته بالنيروز[1] الي ذوي المقام، كتب إلى أحدهم: [النفس لك والمال منك، والرجاء موقوف عليك، والأمر مصروف إليك، فما عسانا أن نهدي لك في هذا اليوم، وهو يوم قد شملت فيه العادة للأتباع الأولياء بإهدائهم إلى السادة العظماء، وكرهنا أن نخليه من سننه، فتكون من المقصرين، أو ندعي أن في وسعنا مايفي بحقك فنكون من الكاذبين، فاقتصرنا على هديه نقضي بها الحق، وتقوم عندك مقام أجمل البر، وهي الثناء الجميل، والدعاء الحسن، فقلت: لازلت أيها السيد الكريم دائم السرور والعطية في أتم

---

(١) النيروز: معرب نوروز، وهي مركبة من الجزء الأول [نو] الجديد، والثاني [روز] اليوم بمعنى [اليوم الجديد] وهو عيد رأس السنة الإيرانية، الذي يوافق الأول من الربيع من كل عام [٢١ مارس] انظر: الخرساني، محمد غفراني عبدالله بن المقفع، الدار القومية للطباعة والنشر، ص ٢٨؛ القلقشندي، صبح الأعشى ٢/٤٤٥، ٤٤٦، ويذكر أبوهلال العسكري في ديوان المعاني ١/٩٥ [أن أول من افتتح المكاتبة في التهاني بالنيروز والمهرجان هو أحمد ابن يوسف الكاتب]

العافية، وأعلى منازل الكرامة، تمر بك الأيام المفرحة، والأعياد الصالحة فتخلقها وأنت جديد][1].

يقول العسكري معقباً على هذه الرسالة: [فأول كلامه مأخوذ من قول المعلى ابن أيوب للمعتصم: "النفس لأمير المؤمنين، والمال منه، وليس فيما أوجبه الحق نقيصة، ولا على أحد فيه غضاضة" وباقيه من كلام أحمد بن يوسف: "هذا يوم جرت فيه العادة بألطاف العبيد للسادة..." والدعاء الذي في آخر الرسالة لعلي بن عبيدة الريحاني لم يزد سعيد بن حميد فيه شيئاً][2]

وجل رسائله في التهنئة بالنيروز تأخذ هذا النهج في المعالجة، وأمّا مانسب إليه من السرقات الشعرية فقد ذكرها أحمد أمين وزكي مبارك[3].

وخلاصة القول: شغلت السرقات الأدبية النقاد القدماء، واهتموا بها اهتماماً كبيراً، وأكثرها ليس بسرقة لأن المعاني مطروحة في الطريق كما يقول الجاحظ[4]، ولكن المدار على الصياغة والعرض، والراجح الآن في هذه القضية أن السرقة لا تثبت إلا بنقل الألفاظ نفسها.

---

(١)(٢) ديوان المعاني ١/٩٥، ٩٦.

(٣) ضحى الإسلام ٣/٣٥٣؛ الموازنة بين الشعراء، البابي الحلبي، مصر، ط: الثالثة، ١٩٧٣م، ص ٨١ وما بعدها.

(٤) الحيوان ٣/١٣١.

٣ - لهوه:

قل أن تجد أديباً في العصر العباسي لم يأخذ نفسه ببعض الملذات، وصاحبنا كنظرائه من الكتاب، روت عنه مصادر الأدب أخباراً مطولة مع جارية أديبة تدعى "فضل" ، وكان لها دور رئيس فيما أنتجه ابن حميد في فن "الرسائل الشعرية" والتي سنرد عليها – إن شاء الله – في موضعها من البحث.

ولكن هذه العلاقة وإن كانت محظورة من الناحية الشرعية، إلا أنها لم تكن مسرفة في التبذل والمجون، كما رآها د/ عمر فروخ[١]، يؤكد هذا أمران:

أولهما: لم تشرجلّ مظان البحث إلى شئ من ذلك

وثانيهما: تمثله لبيت من الشعر يدل على صحة دينه، يقول:

ماصِحَّةٌ أبداً بِنافعــــــــةٍ حتى يصحَّ الدينُ والخلقُ[٢]

---

(١) تاريخ الأدب العربي ٣٢٢/٢.

(٢) الماوردي، على بن محمد، أدب الدنيا والدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى ١٩٨٧م، ص ١١١.

و – أبو علي البصير [٠٠٠ – ٢٥٥هـ]

هو: الفضل بن جعفر، وكان ضريراً أعمى، واشتهر بأبي علي البصير، من باب الفال الحسن، وإشارة إلى تمتعه ببصيرة أغنته عن بصره.

ولم تكشف المصادر التي بين أيدينا عن أرومته، بل ولم تحفل بأخباره كما فعلت مع انداده من المترسلين الشعراء، والمظنون أنها ضاعت، يؤكد ذلك المسعودي يقول: [وكان لسعيد بن حميد، وأبي علي البصير، وأبي العيناء، معاتبات ومكاتبات ومداعبات، وقد أتينا على ذكرها في الكتاب الأوسط][(١)] وهذا الكتاب الذي أشار إليه المسعودي من كنوز العربية التي احتواها الضياع.

وبعد: يمكن أن نحدد إتجاه الرجل في جانبين:

١ – بلاغته.　　　٢ – عاهته.

---

(١) مروج الذهب ١٤٧/٤.

١ - بلاغته:

لم يقدمه أصل ولا نسب، غير أصل موهبته، ونسب فنه، فكان بارعاً في صنعته، مجيداً في فني القول معاً، يقول ابن المعتز: [وكان أبوعلي كاتباً رسالياً، ليس في زمانه ثان، شاعراً جيد الشعر، وقد قلنا في أخبار العتابي: أن هذا قلما يتفق للرجل الواحد، لأن الشعر الذي للكتاب ضعيف جداً، وكتابة الشعراء ضعيفة جداً، فإذا أجتمعا في الواحد فهو المنقطع القرين][١] وفي مفاضلة عقدها أبوحيان التوحيدي بين النثر والنظم قدم أبا علي البصير على أبي العيناء - وهو من مشاهير الكتاب - لإبداعه في كلا الفنين، يقول: [٠٠ وقد قدم الناس أبا علي البصير على أبي العيناء، لأن أبا علي جمع بين الفضيلتين، وضرب بالسيفين في الحومتين، وفاز بالقدحين المُعَلَّيَيْن في المكانين][٢] ويعزز الحصري مقولة التوحيدي في تأكيد مواهب الرجل، وبلاغته في كلا الفنين، يقول: [أبوعلي البصير أحدُ من جمع له حظُ البلاغة في الموزون والمنثور][٣] وعده ابن رشيق من عميان الشعراء الكتاب المبدعين[٤]، ويقول المسعودي: [كان أبوعلي البصير من أطبع الناس في زمانه، لايزال يأتي بالبيت النادر، والمثل السائر الذي لا يأتي به غيره][٥] وينتقد المسعودي ابن ميادة لتقديمه أبا على البصير على جرير يقول [وكان ابن ميادة بسوء اختياره يرى أنه أشعر من جرير، ويحسبه مقدماً على أهل عصره][٦] فالمسعودي وازن في حكمه، فهو عنده من أطبع الناس وأقدرهم إلا أن جريراً أشعر منه، وهذا حق، وأبوعلي البصير أكثر تكاملاً في الشخصية الأدبية من صاحبه.

---

(١) طبقات الشعراء ص٣٩٧.

(٢) الإمتاع والموانسة، مكتبة الحياة، بيروت، ١٣٧/٢.

(٣) زهر الأداب ٤٣٥/٢.

(٤) العمدة ٢٢/١.

(٥)،(٦) مروج الذهب ١٤٧/٤.

٣ - عاهته وانعكاسها على شخصيته:

للعاهة انعكاس نفسي غير محمود علـى الإنسـان عمومـاً، وعلـى الأديـب علـى وجه الخصوص، لفرط أحاسيسه، ورهافة شعوره، وأبوعلى البصير من هؤلاء، فقد أورثته عاهته نفساً مضطربة، وحساسية مفرطة، ونظرة تشاؤمية تجاه الأشـياء، يقـول معبراً عن اعتزازه بمواهبه، وحاجة الغير إليه:

لئـن كـان يهدينـي الغـلامُ لوجهتـي ... ويقتـادني فـي السـير إذ أنـا راكـب

لقد يستضيئ القومُ بي في وجوههم ... ويخبو ضياء العيـن والقلـب ثـاقب(١)

ويقول عن محبرته ودفتره:

إذا عدمـت طلابـة العلـم مالهـا ... من العلم إلا مـا تسـطر فـي الكتـب

غـدوت بتشـمير وجـد عليهـم ... ومحبرتي سـمعي وهـادفتري قلبـي(٢)

ويستمر في الاعتداد بنفسه:

إن يـأخذ اللـه مـن عينـيّ نورهمـا ... ففـي لسـاني وسـمعي منهمـا نـور

فهمـي ذكـي وقلبـي غـير ذي غفـل ... وفي فمي صـارم كالسيف مشـهور(٣)

ثم يقول في ألم وحرقة بعد مكابرة مظهراً قنوطه من الدنيا، واستسلامه لها، وهنا تبدو الشخصية الحقيقية بعد أن رفع عنها ثوب الاعتداد بالنفس.

---

(١)-(٣) الابشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف ص٤٩٥.

عــزاؤك أيهــا العيــن الســكوب وحقــك إنهــا نــوب تنــوب

وكنــت كريمتــي وســراج وجهــي وكــانت لــي بــك الدنيــا تطيــب

علــى الدنيــا الســلام فمــا لشــيخ ضرير العيـن فــي الدنيــا نصيــب

يمــوت المــرء وهــو بعــد حيــا ويخلــف ظنــه الأمــل الكــذوب

إذا مــات بعضــك فــابك بعضــا فــإن البعـض مـن بعـض قريـب[١]

---

(١) السابق نفسه.

المبحث الرابع

مصادر ثقافتهـــــم

كان الأديب في العصر الأموي منكفئاً على ثقافته العربية – غالباً – ومستغنياً بها، لأن الدولة – آنذاك – رأت في هذه الثقافة غناءً يكفيها عما سواها لتسيير أمورها الإدارية والسياسية، لذلك استعانت بالعنصر العربي، واحتفت به، وقدمته على سائر الأجناس، وكانت تأنف من غير العربي، فعاش العجم – كالفرس مثلاً – على هامش التاريخ لا دور لهم يستحق الذكر، واستمر الحال على هذا المنوال حتى تغير المناخ العام بسقوط دولتهم، وقيام الدولة العباسية التي استعانت بالعنصر الفارسي في تأسيس مملكتها، فكانوا من قادتها المؤثرين كسلمة الخلال، وأبي مسلم الخرساني وغيرهما، فقربهم خلفاء بني العباس، وبالغوا في إكرامهم، وفي ذات الوقت احتفظ العربي بمنزلته لم تُمس، وإن تفوق عليه الفارسي لسابقته في تأسيس الدولة.

فالدولة الجديدة أقامت ميزان العدل تقريباً بين الجنسين المتنافسين (العربي والفارسي) وأصبح التفاضل بينهما بقدر الامتياز، وأصالة الموهبة، والاقتدار، لذا أهتم كل جنس بتوسيع مداركه، وزيادة معارفه كي يحظى بالتقديم، وينال الحظوة.

فالفارسي تبحر في العلوم العربية إلى جانب ثقافته الأصلية، ولغته الأم، والعربي توسع في العلوم الفارسية إلى جانب ثقافته الأصلية، ولغته الأم أيضاً، بل ولم يكتفوا بما نقلته الترجمات فأخذ العربي يتقن الفارسية، ويقرأ علومها المختلفة، وفنونها المتباينة باللسان الفارسي، يروي يحي بن الحسين عن العتابي، يقول: [إني بالرقة بين يدي محمد بن طاهر بن الحسين على بركة إذْ دعوت بغلام له فكلمته بالفارسية، فدخل العتابي – وكان حاضراً في كلامنا – فتكلم معي بالفارسية، فقلت له: يا أبا عمرو مالك وهذه الرطانة؟ فقال لي: قدمت بلدتكم هذه ثلاث قدمات، وكتبت كتب العجم التي في الخزانة بمرو، فقال: كتبت منها حاجتي ثم قدمت نيسابور وجُزْتها بعشرة فراسخ إلى قرية يقال لها دِوَدَرْ، فذكرت كتاباً لم أقض حاجتي منه، فرجعت إلى مرو فأقمت

أشهراً، قلت: يا أبا عمرو لم كتبت كتب العجم؟ فقال لي: وهل المعاني إلا في كتب العجم، والبلاغة لنا، والمعاني لهم، ثم كان يذاكرني، ويحدثني بالفارسية كثيراً](١).

ولا خفاء فيما يحدثه هذا التفاعل مابين لغتين، وحضارتين، وثقافتين على نتاج أدباء العصر في الأغراض والمعاني، والأخيلة، والأساليب، والمستشرقون قد تلمسوا هذه الظاهرة ولكنهم بالغوا في تقدير حجم تأثر العرب بالفرس، والحق أن العربي تأثر بالحضارات التي سبقته ومنها الفارسية، والفرس أيضاً كان تأثرهم كبيراً بالحضارة الإسلامية العربية.

ويبدي أحمد أمين شديد إعجابه بثقافة العتابي المزدوجة، وبأدبه، يقول: [··· ونرى قوماً من العرب تعلموا الفارسية، ووجدوا فيها من الغذاء مالم يجدوه في العربية، فعكفوا على كتبها يتدارسونها، ويمعنون في دراستها ثم يخرجون بعد أدباً عربياً فيه معاني الفرس، وبلاغة العرب](٢) وأورد اسم العتابي مثلاً على ذلك، ولا أشك في أن أحمد أمين قد نظر إلى النص السابق وخلص إلى هذه النتيجة، وانتهى إلى هذه الغاية، والتي هي انسياق منه وراء ما قدره المستشرقون.

وعلى كل فالتبعات الملقاه على كواهل الكتاب في تحصيل معارفهم جد ثقيلة، وهم مطالبون – دون غيرهم من الأدباء – بأن يضربوا بسهم وافر في كل علم، تليده وطريفه، جده وهزله، عظيمه وحقيره، حتى لنرى ناقداً مثل ضياء الدين بن الأثير لا يعفي الكاتب بجهل ما تقوله الماشطة، وما يقوله المنادي على السلعة في السوق(٣)، وإذا كان هذا دأبهم مع صغائر الأمور ومحتقرها فهم إلى العظيم الثمين أدعى، وبه أوصى، من مثل العناية بحفظ القرآن الكريم، وجملة من الأحاديث النبوية الشريفة،

---

(١) طيفور، أحمد بن طاهر، كتاب بغداد، السعادة، ١٩٦٨م، ص ٢١٥؛ أحمد أمين، ضحى الإسلام ١/١٨٠؛ صالح آدم، الثقافات الأجنبية في العصر العباسي وصداها في الأدب، ص ٤٩ – ٥٠.

(٢) ضحى الاسلام ١/٨٠.

(٣) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، الفجالة، مصر، ١/٧.

ومختارات من رسائل السابقين، وخطبهم وأشعارهم، والإلمام بلغة أجنبية، وغيرها كثير، وخصص النقاد كتباً قيمة لهذه الفئة من الأدباء، تحثهم على الإفادة منها، وتبين لهم جادة الطريق، ويكفي أن أشير إلى بعض منها، يأتي في طليعتها: أدب الكاتب لابن قتيبة وأدب الكتاب للصولي، والمثل السائر لابن الأثير، وإحكام صنعة الكلام للكلاعي•••.

وكان مترسلو الشعراء أتم الكتاب ثقافة، وأحرصهم على تحصيل معارفهم، مما انعكس على مأثورهم في النثر الفني، وهذا ما سنراه – إن شاء الله – لاحقاً.

وصفوة القول يمكن للباحث أن يقول بأن ثقافتهم كانت مزيجاً من الثقافتين العربية والفارسية، وكان تأثرهم عظيماً ببلاغة على بن أبي طالب – كرم الله وجهه – على وجه الخصوص، قيل لعبد الحميد الكاتب [ماالذي مكنك من البلاغة، وخرجك فيها؟ فقال: حفظ كلام الأصلع، يعني أمير المؤمنين علياً][(١)] ويقول ابن أبي الاصبع في الإبانة عن نهج جُلّ الكتاب: [ولا تجعل كلامك مبنياً على السجع كله، فتظهر عليه الكُلْفة، ويبين فيه أثر المشقة، ويتكلف لأجل السجع ارتكاب المعنى الساقط••• فإن جاء الكلام مسجوعاً عفواً من غير قصد، وتشابهت مقاطعه من غير كسب كان، وإن عز ذلك فاتركه وإن اختلفت أسجاعه ••• وتلك طريقة الإمام على رضي الله عنه، ومن اقتفى أثره من فرسان الكلام••][(٢)] وذكر منهم سهل بن هارون وغيره من الفصحاء البلغاء، وسوف نرى – إن شاء الله – في القادم من الصفحات مدى كلفهم بأساليب علي بن أبي طالب فضلاً عن معانيه.

---

(١) الجهشياري، الوزراء والكتاب ص ٨٢.

(٢) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، ت: د/ حفني محمد شرف، القاهرة، ١٣٨٣هـ، ص ٤١٤، ٤١٥.

الباب الأول

نثرهم الفني

ويحتوي على فصلين

الفصل الأول: الرسائل.

الفصل الثاني: التوقيعات والأقوال

الفصل الأول

الرسائل

ويتضمن ثلاثة مباحث

المبحث الأول: الرسائل الرسمية

المبحث الثاني: الرسائل الخاصة

المبحث الثالث: الرسائل البيانية والرسائل الشعرية

تمهيد:

تشعبت فنون الكتابة الفنية باتساع الحياة العباسية، فتعددت اتجاهاتها، وتباينت مقاصدها، وكانت كائناً حياً يقوم بدوره في خضم الحياة الجديدة باقتدار ونشاط مذهلين.

والمأثور النثري للمترسلين الشعراء يختلف كثيراً عن غيره من نثر الكتاب، فله خصوصية الامتياز، وأعلى مراتب التفرد، وذلك أمر طبعي، لأن فيه تظهر حتمية التكامل الأدبي، فهم شعراء تحركهم العاطفة، ويصدرون عن الوجدان، وهم أيضاً كتابٌ يأسرهم العقل، ويقدمون المنطق، صحيح أنه قد تطغى شاعريتهم على مأثورهم النثري، وهنا يكمن الإبداع.

فهذه الازدواجية الايجابية في تعانق عواطفهم مع معطيات عقولهم هي التي وهبت لمأثورهم هذا التفرد، وليس هذا تعصباً من الباحث ولكنه الحق الذي أشار إليه جُلّ النقاد كما أسلفت ذلك في المدخل، وما سوف نراه – إن شاء الله – في الصفحات القادمة.

سئل العتابي عن مرجع بلاغته فقال: [بحل معقود الكلام، فالشعر رسائل معقودة، والرسائل شعر محلول][1] وقد كان هؤلاء في كلا الفنين سواءً إبداعاً وتألقاً.

ونثرهم الفني يضرب بجذوره في ميادين الإبداع كافة، فلهم الرسائل بأنماطها المتعددة، وأشكالها المختلفة، والتوقيعات المبهرة، ولهم أيضاً قطوف من الأقوال الممتازة في صناعة الكتابة، وفي المناظرات، وفي التحليل النفسي، وفي الفكاهة، وفي الحكمة، وسوف نأتي على ذلك كله – إن شاء الله – في الفصلين الأول والثاني، ونفصل القول فيه بحسب الترتيب المذكور.

---

(١) ابن طباطبا العلوي، محمد بن أحمد، عيار الشعر، ت: د/ محمد زغلول سلام، المعارف، الاسكندرية، ص١١٤.

الرسائل:

عُرفت الرسائل في العصرين الإسلامي والأموي[١]، وكانت تقوم بدورها في المجالين الرسمي والخاص، واستمرت في الإطراد والنماء حتى بلغت أوج أزدهارها في العصر العباسي.

ويكاد يجمع النقاد على أن الرسائل لا تخرج عن النمطين السابقين، والحق أن هنالك نوعين آخرين يمثلان الرقي الحقيقي لما بلغته الرسالة في هذه الحقبة، أولهما: [الرسائل الأدبية] وثانيهما: [الرسائل الشعرية].

---

(١) انظر ماجمعه محمد حميد الدين في الوثائق السياسية

المبحث الأول

الرسائل الرسمية

متعلق هذه الرسائل الديوان الرسمي للدولة، وهو أول ديوان وضع في الإسلام يضئ ذلك القلقشندي، يقول: [اعلم أن هذا الديوان أول ديوان وضع في الإسلام، وذلك أن النبي – صلى الله عليه وسلم – كان يكاتب أمراءه، وأصحاب سراياه من الصحابة – رضوان الله عليهم – ويكاتبونه، وكتب إلى من قرب من ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام][١].

ولم تزل الحاجة ملحة إلى خدمات هذا الديوان، وبالأخص في العصر العباسي، فقد عولت عليه الدولة كثيراً في إدارة مملكتها، فنهضت الرسالة الرسمية بهذا العبء الثقيل في ربط الأمصار المتباعدة بمركز الخلافة، لهذا أولته الدولة العباسية جل اهتمامها، وبالغ عنايتها، حتى أصبح القائم عليه وزيراً أو يوازيه[٢].

وهذا الضرب من الرسائل قلّ في أدب المترسلين الشعراء، فلم يحفظ لنا التاريخ الأدبي منه إلا النزر القليل، وذلك لسببين مهمين:

أولهما: ضياعه مع ماضاع من تراث أمتنا، ساعد على ذلك بعده عن الإمتاع الفني والأدبي.

وثانيهما: لم ينل المترسلون الشعراء مناصب سياسية ذات بال مثل الوزارة عدا ابن الزيات، مما نتج عنه قلة مأثورهم في هذا الجانب المتصل بالإدارة.

على أن ما حفظه لنا التاريخ لا يبين عن سياسة، ولا يخبر عن أوضاع اجتماعية إلا بعد لأيٍ واجتهاد، وهي في عمومها تمثل بعض الفصول لابن الزيات

---

(١) صبح الأعشى ١٢٥/١.
(٢) المصدر السابق ١٣٧/١.

بحكم مركزه السياسي، ورسالة يتيمة لـ **(سعيد بن حميد)** على لسان **محمد بن عبدالله ابن طاهر** إلى أهل بغداد، ويمكن للباحث تأطيرها في:

أ - الحقوق بين الراعي والرعية.

ب - الولاية والعزل.

جـ - إخماد الفتن.

أ - الحقوق بين الراعي والرعية:

نظم الإسلام الحقوق بين الحاكم والمحكوم، وقسم الواجبات بينهما، وهذا الأثر الإسلامي يلقي بظلاله على رسائل (ابن الزيات الوزير)، فقد استقت مادتها التأسيسية من القرآن الكريم، ومن سنة المصطفى - صلى الله عليه وسلم - ، وهي لذلك غير قابلة للخلل، وليست مظنة للجور أو الخطأ، إذا ماعرف كلّ منهما ماله وما عليه، تأمل ما كتبه في هذا الجانب: [إن الله أوجب لخلفائه على عباده حق الطاعة والنصيحة، ولعبيده على خلفائه بسط العدل والرأفة، وإحياء السنن الصالحة، فإذا أدى كلّ إلى كلٍ حقه، كان ذلك سبباً لتمام النعمة، واتصال الزيادة، واتساق الكلمة، ودوام الأُلفة](١).

فلم يند الرجل فيما كتبه عن الحكم الشرعي القويم الذي أقره المولى عز وجل في آيات محكمات، تبغي التلاحم بين المجتمع، وتهدف إلى ضبط الأهواء، لتستقيم الحياة، وينعم الأحياء.

فالطاعة المشار إليها مأخوذة من منهج الله في قوله: "أطيعُوا اللهَ، وأطيعُوا الرسُولَ، وأولي الأمرِ منكم"(٢).

والنصيحة تأخذ مفهوم الشورى بين المسلمين ووليهم، يقول تعالى: " وأمْرُهُم شُورَى بينهم"(٣)، هذا ما للحاكم على المحكوم، أما ما للمحكوم على الحاكم فهو شأن آخر، تتجلى فيه سماحة الإسلام ونبله، فلهم بسط العدل من وليهم، والرأفة بهم، وإحياء السنن الصالحة، لنستمع إلى رب العباد "وإن حكمتَ فاحْكُم بينهم بالقسط"(٤) وقال: "وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل"(٥) وقوله أيضاً "اعْدِلُوا هو أقربُ للتقوى"(٦).

---

(١) ابن عبد ربه، العقد الفريد ٣٢٣/٤.
(٢) النساء ٥٩.
(٣) الشورى ٣٨.
(٤) المائدة ٤٢.
(٥) النساء ٥٨.
(٦) المائدة ٨.

وخطابه على لسان رسوله – صلى الله عليه وسلم – "وأُمرتُ لأعدِلَ بينكم"(١).

وهذا التكرار يعنى أهمية العدل، وضرورته، ولا خفاء فيما يحدثه بين الناس من أمن نفسي، وأمن حسي.

ثم ينتقل (ابن الزيات) إلى الإبانة عن الأبعاد السياسية في معاملة الخاصة من أولياء الخليفة، فلهم حقوق يجب مراعاتها، والاهتمام بها، إذْ هم بطانة الحاكم، وعليهم يقع العبء السياسي في إدارة المملكة الإسلامية، وبقدر هذه الخطورة في مواقعهم من الدولة، كان هذا الرسم السياسي، والمنهج الخلقي، من الحاكم في معاملتهم، كتب (ابن الزيات) في إقرار ذلك: [إن حق الأولياء على السلطان تنفيذ أمورهم، وتقويم أوَدِهم، ورياضة أخلاقهم، وأن يميز بينهم، فيقدم محسنَهم، ويؤخر مسيئهم، ليزداد هؤلاء في إحسانهم، ويزدجرَ هؤلاء عن إساءتهم](٢).

ومبدأ الثواب والعقاب نهج تربوي إسلامي حميد، ذلك أن التمييز بين المحسن والمسئ من مظاهر العدل، ومن ثماره هذا العطاء الممتاز من ازدياد المحسن في إحسانه، وازدجار المسئ عن إساءته، وربما أفضى به الحال إلى الاستقامة.

ويظهر من قول (ابن الزيات) تأثره ببلاغة الإمام على بن أبي طالب – كرم الله وجهه – إذْ قال في ذات الموضوع [أزجر المسئ بثواب المحسن](٣) ويتضح تأثره بشكل أكبر ومباشر من قول علي أيضاً: [لا يكونن المحسن والمسئُ عندك بمنزلة سواء، فإن في ذلك تزهيداً لأهل الإحسان في الإحسان، وتدريباً لأهل الإساءة على الإساءة](٤).

---

(١) الشورى ١٥.
(٢) ابن عبد ربه، العقد الفريد ٣٢٣/٤.
(٣) الشريف الرضي، نهج البلاغة، ت: محمد أبوالفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٨م، ٢٤٤/٢.
(٤) المصدر السابق ٢٤٥/٢.

والإعجاب - هنا - والاتباع لم يكن ببلاغة علي - رضي الله عنه - فحسب، بل وبنهجه السياسي في وضع كلٍ منهما موضعه الذي استحقه بعمله، لأن في المساواة بينهما ظلماً لهما معاً، وجوراً على أعمال الدولة، تجر أضراراً فادحة من التواكل والإهمال.

ومن الحقوق في الرسائل الرسمية ما كتبه (ابن الزيات) أيضا: [إن من أعظم الحقّ حقَّ الدين، وأوجب الحرمة حرمة المسلمين، فحقيق لمن راعى ذلك الحق، وحفظ تلك الحرمة، أن يراعي له حسب ما راعاه الله، ويحفظ له حسب ماحفظ الله على يديه](1).

والإلفة قائمة بين الوالي وعماله ورعيته، في ظل قيام كل منهم بدوره على أكمل وجه، وأتم أداء، وإن حدث خلل ما من عامل من عمال الوالي أقام أودَه، وأصلح ما أفسده، مراعياً التحقيق في المسألة، والتروي في الحكم، كتب (ابن الزيات) إلى أحد العمال - ويبدو أنه أحدث حدثاً أخل بالتوازن المطلوب، وخالف المعادلة الشرعية في علاقته بالرعية، مما حدا بالوزير أن يخاطبه بلهجة فيها بعض الحدة، بغية التعديل والتهذيب، واستجلاء حقيقة الأمر-: [أما بعد: فقد انتهى إلى أمير المؤمنين كذا فأنكره، ولا تخلو من إحدى منزلتين، ليس في واحدة منهما عُذر يوجب حجة، ولا يزيل لائمة، إما تقصير في عملك دعاك إلى الإخلال بالحزم، والتفريط في الواجب، وإما مظاهرة لأهل الفساد، ومداهنة لأهل الريب، وأية هاتين كانت منك لمحلة النكر بك، وموجبة العقوبة عليك، لولا ما يلقاك به أمير المؤمنين من الأناة والنَّظرَة، والأخذ بالحجة، والتقدم في الإعذار والإنذار، وعلى حسب ما أقِلْتَ من عظيم العثرة يجب اجتهادك في تلافي التقصير، والإضاعة، والسلام](2).

---

(١) ابن عبدربه، العقد الفريد ٣٢٣/٤.

(٢) المصدر السابق ٣٢٤/٤.

لم يظهر الكاتب هنا ماهية الجرم الذي استحق عليه هذا التقريع، ونجد (ابن الزيات) بدهائه وحنكته يحاصره بالذنب، ولا يترك له منفذاً للتملص، ولا مجالاً للتبرير، ثم تخفت هذه الحدة مبيناً سياسة الخليفة في الأناة والنظرة، والأخذ بالحجة، مشيراً في خفاء إلى إنذاره بهذا الكتاب، ويجعل إقالته من عثرته بعد ثبوت الذنب دافعاً له لتلافي ماوقع منه، والاجتهاد في سائر الأعمال، أي أنه يمنحه الفرصة، ويجدد له الثقة، لإثبات مقدرته الإدارية، وهي سياسة حكيمة، لأنه في أغلب الظن سوف يثابر في عمله، ويضاعف من جهده، أو هكذا ينبغي أن يكون.

ب - الولاية والعزل:

إتساع رقعة الدولة، وتعدد أمصارها، كانت التربة التي نبت على أديمها هذا الضرب من الرسائل، فشرعت في التنظيم الإداري بتعيين أمراء المناطق، أو عزلهم إنسجاماً مع سياسة البلاد، ومراعاة لمصالح العباد.

ويميز هذا النوع من الرسائل جودة العرض، والبعد عن الإسهاب الممل، من ذلك العهد الذي كتبه (ابن الزيات) للواثق على مكة بحضرة المعتصم، أبان فيه الكاتب خصائص المكان، وشرف الموقع من نفوس المسلمين، كتب: [أما بعد، فإن أمير المؤمنين قد قلدك مكة وزمزم، تراث أبيك الأقدم، وجدك الأكرم، وركضة جبريل، وسقيا إسماعيل، وحفر عبدالمطلب، فعليك بتقوى الله تعالى، والتوسعة على أهل بيته][(١)].

للطبيعة - بصخرها ومدرها، وأغانيها ومغانيها- أثر أي أثر على عطاء الأديب الحق، ويزداد العطاء والتفاعل حين تكون الطبيعة مكة برموزها المقدسة، فزمزم، والكعبة .. ثوابت قائمة تهز وجدان المسلم المشوق إلى رؤيتها.

وأهل مكة يسمون بسموها، ويشرفون بشرفها، فحقيق بمن ولي أمرهم أن يعي أمارتهم في الإسلام، لذا نجد المعتصم يدفع بمكة وأهلها إلى الواثق ولي عهده، لصلة قرابته من الرسول - صلى الله عليه وسلم -، فهو لذلك أرأف الناس بجيران بيت الله، وأحرصهم على أداء الأمانة، فالتعيين - هنا - ارتكز على أسس من شأنها أن تفضي إلى نجاح منتظر.

وإذا كان التعيين هو بداية العمل الإداري فإن الإقالة هي نهايته، ولأنها - أي الإقالة - مُرة مؤلمة، يحسن عرضها عرضاً لطيفاً، مراعاة لنفس المعزول المنكسرة،

---

(١) الحصري، زهر الآداب ١٠٩٧/٤.

كتب (ابن الزيات) بأمر من الواثق إلى **عبدالله* بن طاهر** يعلمه فيها بأنه صرفه عن أمر الجزائر والعواصم، وفوض ذلك إلى ابن عمه **إسحاق** ** **بن ابراهيم**، وأمره الخليفة أن يتلطف في عرض الأمر، فكتب: [أما بعد، فإن أمير المؤمنين رأي أن يخلع مافي يمينك من أمر الجزائر والعواصم فيجعله في شمالك، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته][(1)] قد يتبادر إلى ذهن القارئ لهذه الرسالة عامل الشك في نسبتها إلى (ابن الزيات). ومسوغات الريبة عائدة إلى هذا التعارض الواضح بين سيرة الرجل وعنفه، وبين شفافية الرسالة ولطافتها في عرض المسألة، وأقول – رغم وجاهة الشك – إن الرسالة لابن الزيات، وذلك لسببين:

أولهما: أمره الواثق أن يتلطف في عرضها، فآثر طاعة خليفته عن طاعة نفسه.

ثانيهما: لأنه لم يروض نفسه على الرأفة، ولم يدرب ذاته على الرفق نجده – هنا – عالة على غيره، فأخذ هذه المعاني والألفاظ من أكابر الكتاب في العصر العباسي (يحيى بن خالد البرمكي) حين أمره (الرشيد) أن ينقل الوزارة من (الفضل ابن يحيى) إلى أخيه (**جعفر*****)، فكتب [قد أمر أمير المؤمنين بتحويل الخاتم من يمينك إلى شمالك][(2)] وهنا يبدو القدر الذي اقتبسه (ابن الزيات) من (يحيى بن خالد البرمكي).

---

* هو: عبدالله بن طاهر بن الحسين الخزاعي بالولاء، أمير خراسان، وهو من أشهر الولاة في العصر العباسي، أصله من "باذغيس" بخراسان توفي سنة ٢٣٠هـ. الزركلي، الأعلام ٩٣/٤، تاريخ الطبرى ١٣١/٩.

** هو: اسحاق بن ابراهيم بن الحسين الخزاعي، صاحب الشرطة ببغداد أيام المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل، وكان وجيهاً مقرباً من الخلفاء، توفي سنة ٢٣٥هـ. الزركلي، الأعلام ٢٩٢/١.

(١) أحمد صفوت، جمهرة رسائل العرب ٢٠٨/٤؛ المقدسي، تطور الأساليب النثرية ١٤٢.

*** هو: جعفر بن يحيى البرمكي، وزير هارون الرشيد، كان عظيم القدر عند الرشيد، وما لبث أن قتله بعد ذلك؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان ٣٢٨/١.

(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان ٢٧/٤؛ ابن الطقطقى، الفخري ص ٢٠٥.

جـ - إخماد الفتن:

لم يسلم العالم الإسلامي من القلاقل والفتن والحروب في تاريخه الطويل.

والعصر العباسي نال نصيبيه منها كغيره من العصور، ولكن العصر كان رمز قوة ومنعة، فكانت تلك الفتن توأد في مهدها، وتخمد في بدايتها، وما تلبث أن تعود الحياة بعد ذلك سريعاً إلى سيرتها الأولى من أمن، ودعة، واستقرار.

ويحتاج الأمر بعد إخماد الفتنة، وتحقيق النصر إلى كتاب يبين لجمهرة الناس حقيقة ماوقع وأسبابه، من ذلك ماكتبه (سعيد بن حميد) على لسان (*محمد بن عبدالله ابن طاهر) إلى أهل بغداد، بدأ بتحميد أسهب فيه، وأكثر من شكر الله الذي أعان على النصر، يقول:

[بسم الله الرحمن الرحيم: أما بعد، فالحمد لله المنعم فلا يبلغ أحد شكر نعمته، والقادر فلا يعارض في قدرته، والعزيز فلا يغالب في أمره، والحكم العدل فلا يرد حكمه، والناصر فلا يكون نصره إلا للحق وأهله، والمالك لكل شئ فلا يخرج أحد من أمره، والهادي إلى الرحمة فلا يضل من انقاد لطاعته، والمقدم إعذاره ليظاهر به حجته، الذي جعل دينه لعباده رحمة، وخلافته لدينه عصمة، وطاعة خلفائه فرضاً واجباً على كافة الأمة ...

وصلى الله على نبيه المصطفى، ورسوله المرتضى، والمنقذ من الضلالة إلى الهدى، صلاة تامة نامية بركاتها، دائمة اتصالها، وسلم تسليماً.

والحمد لله تواضعاً لعظمته، والحمد لله إقراراً بربوبيته، والحمد لله اعترافاً

---

* هو: محمد بن عبدالله بن طاهر بن الحسين الخزاعي، كان جواداً ممدحاً أديباً شاعراً، ولاه المتوكل على بغداد، وعظم سلطانه في دولة المعتز إلى أن مات سنة ٢٥٣هـ، الكتبي، فوات الوفيات ٣/٤٠٣.

بقصور أقصى منازل الشكر عن أدنى منزلة من منازل كرامته، والحمد لله الهادي إلى حمده، والموجب به مزيده، والمحصى به عوائد إحسانه، حمداً يرضاه ويتقبله، ويوجب طوله وإفضاله، والحمد لله الذي حكم بالخذلان على من بغى على أهل دينه، وسبق وعده بالنصر لمن بُغى عليه من أنصار حقه...][١].

وبعد هذا التحميد، وقبل أن يلج في صلب الموضوع يظهر ولاءه لـ (محمد بن عبدالله بن طاهر)، ويذكر خصاله، ويمتدح سيرته، وعراقته في القيادة، يقول:

[ولله عند أمير المؤمنين – في رئيس دعوته، وسيف دولته، والمحامي عن سلطانه، ومحل ثقته، والمتقدم في طاعته ونصيحته لأوليائه، والذابُ عن حقه، والقائم بمجاهدة أعدائه، محمد بن عبدالله مولى أمير المؤمنين – نعمةٌ يرغب إلى الله في إتمامها، والتوفيق لشكرها، والتطول بمن أراد المزيد فيها، فإن الله قدّر لآبائه القيام بالدعوة الأولى لآباء أمير المؤمنين، ثم جمع له آثارهم بقيامه بالدولة الثانية، حين حاول أعداء الله أن يطمسوا معالم دينه ويعفوها، فقام بحق الله، وحق خليفته، محامياً عنها، ومرامياً من ورائها، متناولاً للبعيد برأيه ونظره، مباشراً للقريب بإشرافه وتفقده، باذلاً نفسه في كل ما قربه من الله، وأوجب له الزُلفة عنده، وسيمتع الله أمير المؤمنين به ولياً، مكانفاً على الحق، وناصراً موازراً على الخير، وظهيراً مجاهداً لعدو الدين][٢].

ثم يخاطب أهل بغداد مبيناً لهم جوانب المسألة وملابساتها، ويكاشفهم بنوايا تلك الفئة الباغية، يقول: [وقد علمتم ماكان أمير المؤمنين تقدّم به إليكم فيما أحدثته الفرقة الضالة عن سبيل ربها، المفارقة لعصمة دينها، الكافرة لنعم الله ونعم خليفته عندها، المباينة لجماعة الأمة التي ألف الله بخلافته نظامها، المحاولة لتشتيت الكلمة بعد

---

(١) تاريخ الطبري ٩/٢٩٦، ٢٩٧.

(٢) المصدر السابق ٩/٢٩٨.

اجتماعها، الناكثة لبيعته، الخالعة لربقة الإسـلام من أعناقها، الموالي الأتراك، وما صارت إليه من نصر الغلام المعروف بأبي عبدالله المتوكل لإقامتها عند مصير أمير المؤمنين إلى مدينة السلام، محل سلطانه، ومجتمع أنصاره، وأبناء أنصار آبائه، وما قابل به أمير المؤمنين خيانتهم، وآثره من الأناءة في أمرهم.

ثم إن هؤلاء الناكثين جمعوا جمعاً من الأتراك والمغاربة، ومن ولج في سوادهم، ودخل في غُمارهم، مؤاتياً للفتنة من ألفاف الغي، ورأسوا عليهم المعروف بأبي أحمد بن المتوكل، ثم ساروا نحو مدينة السلام في الجانب الشرقي، معلنين للبغي والإقتدار، مظهرين للغي والإصرار، فتأناهم أمير المؤمنين، وفسح لهم في النظرة لهم، وأمر بالكتاب إليهم بما فيه تبصيرهم الرشد، وتذكيرهم بما قدموا من البيعة، وإفهامهم ما لله عليهم وله في ذلك من الحق٠٠٠][1].

ثم يأخذ في وصف ماقام به **(محمد بن عبد الله بن طاهر)**، من أعمال قتالية تدل على دربته في الحرب، وفروسيته في النزال، وحنكته في إدارة رحى الحرب، وتوجيه معاونيه، يقول في ذلك: [وقد رتب محمد بن عبدالله مولى أمير المؤمنين بذلك الباب والأبواب التي سبيلها سبيله من أبواب مدينة السلام، والجيوش في العُدة الكاملة، والعِدة المتظاهرة، معاقلهم التوكل على ربهم، وحصونهم الاعتصام بطاعته، وشعارهم التكبير والتهليل أمام عدوهم، ومحمد بن عبد الله مولى أمير المؤمنين يأمرهم بتحصين مايليهم، والإمساك عن الحرب ماكانت مندوحة لهم، فبادأهم الأولياء بالموعظة، وبدأهم الغواة الناكثون بحربهم، وعاودوهم أياما بجموعهم وعدادهم، مُدلين بعدتهم، ومقدرين ألا غالب لهم، ولا يعلمون أن الله بقدرته فوق قدرتهم، وأن أقداره نافذة بخلاف إرادتهم، وأحكامه عادلة ماضية لأهل الحق عليهم، حتى إذا كان يوم السبت للنصف من صفر وافوا باب الشماسية بأجمعهم، قد نشروا أعلامهم، وتنادوا بشعارهم، وتحصنوا بأسلحتهم، وبدأ الأمر منهم لمن عاينهم، ليس لهم وعيد دون

---

(١) المصدر السابق ٩/٣٠٠.

سفــك الدماء، وسبي النساء، واستباحة الأموال، فبدأهم الأولياء بالموعظة فلم يسمعوا، وقابلوهم بالتذكرة فلم يُصغوا إليها، وبدأوا بالحرب منابذين لها، فتسرع الأولياء عند ذلك إليهم، واستنصروا عليهم، واستحكمت بالله ثقتهم، ونفذت به بصائرهم، فلم تزل الحرب بينهم إلى وقت العصر من هذا اليوم، فقتل الله من حُماتهم، وفرسانهم، ورؤسائهم، وقادة باطلهم جماعة كثيراً عددها، ونالت الجراحة المثخنة التي تأتي على من نالته أكثر عامتهم.

فلما رأى أعداء الله وأعداء دينه أنْ قد أكذب ظنونهم، وحال بينهم وبين أمانيهم، وجعل عواقبها حسرات عليهم، استنهضوا جيشاً من سامراء من الأتراك والمغاربة في العتاد والعدة، والجلد والأسلحة في الجانب الغربي، طالبين المعرّة، ومؤملين أن ينالوا نيلاً من أهله باشتغال إخوانهم في الجانب الشرقي بأعدائهم][1] ويسترسل عقب ذلك في رصد بشائر الخير، وما تحقق من نصر لجيش **(محمد بن عبدالله بن طاهر)**، وهزيمة نكراء حلت بجيش **(أحمد بن المتوكل)**، ويختم هذه الرسالة بالحمد لله والثناء عليه كما بدأها به، يقول: [ولم تزل الحرب بين الأولياء وبين الفرقة التي كانت في الجانب الشرقي، والقتل محتفل في أعلامهم، والجراح فاشية فيهم، حتى إذا عاينوا ما أنزل الله بأشياعهم من البَوار، وأحل بهم من النقمة والاستئصال، مالهم من الله من عاصم، ولا من أوليائه ملجأ ولا موئل، ولوا منهزمين مفلولين منكوبين، قد أراهم الله العِبَر في إخوانهم الغاوية، وطوائفهم المضلة، وضل ماكان في أنفسهم لما رأوا من نصر الله لجنده، وإعزازه لأوليائه، والحمد لله رب العالمين، قامع الغواة الناكبين عن دينه، والبغاة الناقضين لعهده، والمرّاق الخارجين من جملة أهل حقه، حمداً مبلغاً رضاه، وموجباً أفضل مزيده، وصلى الله أولاً وآخراً على محمد عبده ورسوله، الهادي إلى سبيله، والداعي إليه بإذنه، وسلم تسليماً][2].

---

(١) المصدر السابق ٩/٣٠٠.

(٢) المصدر السابق ٩/٣٠٢، ٣٠٣.

المبحث الثاني

الرسائل الخاصة:

وهي ماتعرف بالإخوانية عند بعض النقاد[١] المحدثين، وهذا الإسم يحد من دورها، بينما تسميتها بـ (الخاصة) أدعى إلى شموليتها، وتعدد مقاصدها، ذلك أن هذه الرسائل تدور بين الأصدقاء والخلان، ممثلة حالة النفس في تقلباتها من الرضا والسخط، والحب والكره، والفرح والحزن، ونتاج ذلك كله رسائل خاصة متعددة المقاصد، ومختلفة الأهداف، فنرى الهجاء بجانب المدح، والوعيد بجانب الوعد، فإن جاز لنا تسميتها بالإخوانية بناءً على ما تحمله من مدح ورثاء، وشوق وعتاب... فكيف يجوز لنا تسميتها بذلك وهي تحمل معاني الكره والبغض والهجاء والتهديد؟ يقول د/ نبيه حجاب [آثرنا هذه التسمية، لأنها أحياناً تخلو من المودة والإخاء، وقد تفيض بالتهكم والتجريح][٢] وقريب من هذا ماذهب إليه د/ **حسني ناعسة**[٣] الذي فضل تسميتها بـ "الرسائل الشخصية" ولعله فطن إلى هذه الفروق وإن لم يبيِّن ذلك.

وهذا الضرب من الرسائل يختلف عن سابقه لاختلاف دوره وهدفه، وهي تُحبَّر بعيداً عن رسوم الخلافة، يطلق الكاتب لنفسه العنان في التعبير عن ذاته دون استكراه لمعنى، أو تعمل للفظ، وهي لذلك أعلق بالفن، وأقرب إلى المتعة الأدبية.

ولعل هذا مايفسر لنا حفظ التاريخ الأدبي لكثير جداً من رسائلهم الخاصة بمقاصدها المتباينة، من شوق ومدح وهجاء... إلى آخر تلك الأغراض التي تخص الوجدان، ومشاعر الإنسان، والتي كانت إلى ماقبل العصر العباسي - غالبا - حكراً على الشعر، خاصة به، حتى أتى النثر الفني في هذه الحقبة فزاحم الشعر في أغراضه، وأبدى تفوقاً ملحوظاً في أداء رسالته التي تهدف إلى إمتاع العقل، وتغذية

---

(١) أسماها الأستاذ أحمد الشايب في الأسلوب، ط: الثامنة ١٩٨٨م، ص ١١٤ الرسائل الإخوانية.

(٢) بلاغة الكتاب، ط: الثانية، ١٩٨٦م، ص ٥٩.

(٣) الكتابة الفنية ص ٢٥٠.

الروح في الآن نفسه.

وحين نُعنى بالتفتيش عن مرد نشوء هذه الرسائل فلا نجد أمامنا سوى الترف الحضاري الذي كان يرفل فيه المجتمع العباسي، وما تبعه من ترف عقلي وأدبي نَعِمَ به حملة الأقلام، وأرباب البيان من مثقفي العصر وأدبائه، فكانت هذه الرسائل ثمرة لذلك.

وأما ماذهب إليه (غانم جواد علي) في الإبانه عن بواعث هذه الرسائل فهو اجتهاد جانبه الصواب، يقول: [اتساع نطاق الفتوحات الإسلامية واستمرارها، وما تبع ذلك من استقرار العرب والمسلمين واستيطانهم في تلك البقاع النائية التي فتحوها، يضاف إلى ذلك تباعد بعضهم عن بعض، فكان ذلك حافزاً قوياً لتبادل الرسائل بينهم](١).

وهذا السبب الجغرافي الذي عوّل عليه (غانم جواد علي) يمثل البداية الأولى لهذا النوع من الرسائل، فكانت وظيفتها نفعية صرفة في السؤآل عن الحال لبعد الديار، ولم يستمر الوضع كثيراً إذْ اتسع هذا المفهوم، وتطور مع الحياة ذاتها أواخر العصر الأموي إلى ما آلت إليه في العصر العباسي.

ولا يعني ما قدمته أني أنكر ماذهب إليه الرجل بالكلية، لأنه قد يحدث أن يتراسل الخلان وهم في أمصار متباعدة، أما الغالب فهو نشوء هذا النمط الأدبي من الرسائل بين الأصدقاء، يتبادلونها على تعاقب الديار وقربها.

وإذا عدنا إلى مأثورهم نجده يضرب بجذوره في كثير من ميادين الصداقة، وهي من الوفرة، وتعدد المقاصد، بحيث انتابني شئٌ من الحيرة في تصنيفها ودراستها، وبعد لأي ارتأيت ترتيبها ترتيباً عقلياً بحيث تفضي كل نقطة إلى التي تليها في نسق منطقي، وتتابع حدثي، ممثلة أطوار الصداقة في حالاتها. وسأبدأ – إن شاء الله – برسائل الود.

---

(١) الرسائل الفنية في العصر الإسلامي حتى نهاية العصر الأموي، المكتبة الوطنية بغداد، ١٩٧٨م، ص ٢٩٢، ٢٩٣.

أ - رسائل الود:

للود أسباب موصلة إليه، وحقوق مرعية بين الصديقين، لاتتم إلا بتمامها، ولا تثمر إلا بتفقد نبتتها، والحرص على نمائها في بيئة خُلقية تضرب بظلالها على المتحابين، ومحمد بن عبد الملك الزيات قد أضاء هذا الجانب، وجسد كنه المودة في كلام موجز، يقول: [وأسباب المودة موصولةٌ بحفظ المغيب، وأنس المشهد، ومتى لم تُعمر في المغيب بالمكاتبة، وفي المشهد بالمؤانسة تداعت، وإن كانت مودات أهل الإخاء محوطة بالوفاء، وأنا أخوك الذي لا يزايله عن عهدك قرب الدار، ولا بعدها، وتنقل الأحوال وتصرفها، وطول العهد وقصره، وإخلاف الزمان وبلواه، وحال الدهر ونوائبه، وأنا أخوك الواد لك، الذي لا ينتقل بانتقال الرغبة والرهبة، ولا يزول بزوال الطمع والخوف، ومن يرعاك على النأي والقرب، والمغيب والمشهد](١) ولم تكشف المظان عن الشخصية التي خاطبها **(ابن الزيات)** وأغلب الظن أنها أرسلت إلى **(الحسن بن وهب)** للود العميق الذي يربطهما، وللصداقة الحميمة التي تجمعهما، كتب **(ابن وهب)** إلى **(ابن الزيات)** رسالة تلتقي مع سابقتها في اللغة، يقول: [سُروري أعارني الله حياتك إذا رأيتك كوحشتي لك إذا لم أرك، وحفظي لك في مغيبك كمودتي لك في مشهدك، وإني لصافي الأديم غير نَغِلٍ ولا متغير، فامنحني من مودتك مُزْن لذاذة مشربك، وكن لي كأنا، فوالله ما عجت عن ناحيتك، إلا وأنا محني الضلوع إليك والسلام](٢).

وجل رسائل الود تعمد إلى إبراز الخصال الذاتية من وفاء وإخلاص، للتقرب إلى الخاصة، والتودد لهم، وهي لذلك لا تخلو من بعض الغلو في مدح الذات، والمبالغة في إطراء الغير، كما في الرسالتين السابقتين، وكما سطره سعيد بن حميد في ذات الموضوع، كتب إلى صديق له: [لساني ترطَّب بذكرك، وقلبي معمور

---

(١) الكرخي، الشوق والفراق ص ١٤٢.

(٢) الوشاء ، محمد بن أحمد، الظرف والظرفاء، عالم الكتب، بيروت، ط: الأولى، ١٩٨٥م، ص ٢٩٤.

بمحبتك، حضرت أوغبت، سِرْتَ أو أقمت، كقول أخي أبي دلف:

لعمري لئن قرّت بقربكَ أعيُنٌ ... لقد سخنَتْ بالبَيْنِ منك عيونٌ

فسِرْ أو فقِفْ، وقفٌ عليك مودتي ... مكانُك من قلبي عليكَ مَصونُ][1]

وكتب أبوعلى البصير [وعلى - أبي فلان - سلامُ صبٍ إلى قربه، مستوحش من بعده، مقيم على عهده، غير معتاضٍ من ودِّه][2] ويتكئ المتوادون كثيراً على تأكيد الود، وحضور الصاحب في القلب وإن غاب، وهي من المعاني الجميلة التي تأسر الروح، وتزيد من حبائل الحب كتب **(ابن الزيات)** إلى **(ابن وهب)** في ذات المعنى: [ياأخي مازلتُ عن مودتِك، ولا حُلتُ عن أخوتك، ولا استبطأت نفسي لك، ولا استزدتُها في محبتك، وإن شخصك لماثلٌ نُصبَ طرفي، ولقلما يخلو من ذكرك قلبي، ولله در الذي يقول:

أما والذي لو شاء لم يخلُق النَّوى ... لئن غبتَ عن عيني لما غبتَ عن قلبي

يُذكّرُنيكَ الشَّوقُ حتى كأنني ... أُناجيكَ من قُربٍ وإن لم تكن قربي][3]

وكتب (الحسن بن وهب): [... وكتابي إليك وشطر قلبي عندك، والشطر الآخر غير خلو من تذكرك، والثناء على عهدك، فأعطاك الله بركة وجهك، وزاد في علو قدرك، والنعمة عندك وعندنا فيك][4].

ومثلها ما كتبه (سعيد بن حميد): [إن العهد بك لم يبعد، وإن المدة لم تتطاول، لأنك مع كل خطوة لي ممثلٌ، وبإزاء كل نظرة مني موقوف][5].

---

(١) ابن عبد ربه، العقد الفريد ٤/٣٠٨.
(٢) الكرخي، الشوق والفراق ص ٧٥.
(٣) الوشاء، الظرف والظرفاء ص ٢٩٤.
(٤) العسكري، الصناعتين ص ٤٧٧.
(٥) الكرخي، الشوق والفراق ص ١١٤.

وقريبٌ منها مانسجه أبوعلي البصير إلى صديق له، كتب: [قد أكد الله بيننا من الود ما نأمن الدهر على حل عقده، ونقض مِراره، وما يستوي منه ثقتنا بأنفسنا لك، وثقتنا بما عندك][1].

وإن كنا قد عرفنا ألواناً من طرائف الهدايا إلا أنا لم نسمع بهدية هي الود، كما فعل (سعيد بن حميد) مع صديق له، ولعله من علية القوم، كتب: [إني أهديت مودتي رغبة إليك، ورضيت بالقبول منك مثوبة، فصرت بقبولها قاضياً لحق، ومالكاً لِرق، وصرتُ - بالتسرع إلى الهدية، والتنظُّر للمثوبة - مرتهن اللسان بالجزاء، واليدين بالوفاء][2].

والرائي لما حبره المترسلون الشعراء في هذا الجانب يلحظ هذا الإفراط في تصوير الود ومثاليته، ولا عجب فهم شعراء تأسرهم الكلمة، وتسترقهم اللفظة، ولهم لغتهم الشعرية الخاصة بهم، وعلى كلٍ فتلك المعاني الشريفة التي طرقوها إن اقترنت بفعل مماثل كان من نتائجها أن يصبح المتوادون في حكم الأقرباء، ويحلون في خاصة الأهل والولد، يقول أبوعلي البصير: [الحال فيما بيننا يحتمل الدالة، ويوجب الأنس والثقة، وبسط اللسان بالاستزادة، وأنا أمتُّ إليك بالحرمة المتقدمة، والأسباب المؤكدة، التي تحل صاحبها محل خاصة الأهل بالقرابة][3].

---

(١) ابن عبد ربه، العقد الفريد ٤/٣٠٧.

(٢) المصدر السابق ٤/٣٠٨.

(٣) المصدر السابق ٤/٣٠٧.

ب - الشوق، والحث على التزاور:

صفاء النفس، وتمام الود يستحثان الأصدقاء إلى فضيلة اللقاء، يقول (سعيد بن حميد) مخاطباً (ابن مكرم) في لغة شاعرية، وروحٍ عذبة: [طلعت النجوم تنتظر بدرها، فرأيك في الطلوع قبل غروبها][١].

ومن أظهر دوافع التزاور المناخ الجميل، يستغلونه للالتقاء، فدوي الرعد، ووميض البرق، وهطول المطر، عوامل لها تأثير سحري على نفوسهم وعقولهم، وهي متاع لايكتمل سرورها إلا باجتماعهم، نجدهم يحرصون على ذلك بما يحبرونه من مكاتبات تكتسي روعة كما اكتست الطبيعة، يقول أبو علي البصير بعد أن أغراه المناخ:[يومنا يومٌ رقيق الحواشي، ليِّن النواحي، ذو سماء قد رعدت وبرقت، وأنت موضع السرور، ونظام العيش والحبور، فأقبل الينا تنعم، ولا تنفرد عنا فتندم، فإنك بطاعتنا تسعد، وبمخالفتنا لا ترشد][٢] ومثل هذه العبارات لاتعني التهديد، حيث يخاطب بها الأصدقاء، فهي ضرب من المناكفات التي تجري بين الخاصة من الأصحاب.

وإن كانت الطبيعة من بواعث التزاور المهمة فإن استبداد الشوق، ولوعة الحنين، أكثر أهمية وأقوى دافعاً إلى اللقاء، كتب **(سعيد بن حميد):** [كتابي والله يعلم كيف وحشتي لك، لا أوحشك الله من نعمة، ولا فرّق بينك وبين عافيته، وكان مما زاد في الوحشة أنها جاوزت الأمل المتمكن في الأنس بقرب الدار، وتداني المزار، نحمد الله عز وجل على نعمه، ونستديمه لك ولنا فيك أجمل بلائه، ونسأله ألا يخليك من شكره ومزيده، ولو كنتُ في كل يوم أكتب إليك كتاباً، بل لو شخصت نحوك قاصداً لكان ذلك دون الحق، ولكني عَلِقٌ بما تعلم من العمل، وأكره أن أتابع كتبي فأسلك سبيلاً من سبل الثقل، وأقف بمنزلة توسط، أرجو أن أسلم بها من الجفاء والإبرام،

(١) الثعالبي، خاص الخاص ص ١٠٩.
(٢) الكرخي، الشوق والفراق ص ١٤٣.

وأنا وإن أبقيتُ عليك من الزيادة في شغلك، فلست بممتنع من مسألتك التطول بتعريفي جملة من خبرك أسكن إليها، وأعتد بالنعمة، وأحمد الله عليها][1].

وقد يغض الصديق الطرف عن هجران صاحبه، ويخاطبه بلطف وود كما فعل (العتابي) مع صديق له تمادى في جفائه وهجرانه، كتب: [لو اعتصم شوقي إليك بمثل سُلُوِّك عني، لم أبذل وجه الرغبة إليك، ولم أتجشم مرارة تماديك، ولكن استخفتنا صبابتنا، فاحتملنا قسوتك لعظيم قدر مودتك، وأنت أحق من اقتص لصلتنا من جفائه، ولشوقنا من إبطائه][2] ومثلها في الروعة والتسامح ماكتبه (سعيد بن حميد) يقول: [مَثَلُنا – أعزك الله – في قرب تجاورنا وبعد تزاورنا، كما قال الشاعر:

ما أقربَ الدار والجوار وما أبعدَ مع قُربنا تلاقِينا

وكل غفلة منك محتملة، وكل جفوة مغتفرة، للشغف بك، والثقة بحسن نبلك، وسآخذ فيك بقول أبي قيس:

ويكرمنها جاراتُها فيزرنها وتقعد عن أبياتهن فتعذر

وفي الأمثال: كفى بالجفاء غربة، وبقلة الاجتماع بعداً][3].

وقد تجد بعض هذه الرسائل استجابة سريعة كما حدث من (سعيد بن حميد) حين بعث إليه صديقه (سعيد بن مالك) رسالة بث فيها شوقه، فأجابه (ابن حميد) وحدد له يوماً يلتقيان فيه، كتب: [وصل كتابك – أكرمك الله تعالى – الحاضر سرورُه، اللطيف موقعُه، الجميل صدوره ومورده، الشاهد ظاهره على صدق باطنه، ونحن

---

(١) أحمد صفوت، جمهرة رسائل العرب ٢٥٣/٤.

(٢) الحصري، زهر الأداب ١٠٥٦/٤، ١٠٥٧.

(٣) الكرخي، الشوق والفراق ص ١٣٢.

- أعزك الله - نجعل عزاءك الاعتراف بفضلك، ومجازاتك التقصير دونك، ونرى أن لا عذر في التخلف عنك وإن حال الاشتغال بيننا وبينك، فإن كنت سامحتَ على العذر قبل الاعتذار، وسبقت إلى فضيلة الاغتفار، فلا زلت على كل خير دليلا، وإليه داعياً، وبه آمراً، وقد التقينا قبل وصول كتابك لقاء أحدث قطراً، وهاج شوقاً، وأرجو أن تتسع لنا الجمعة بما فاضت به الأيام، فننال حظاً من محادثتك والأنس بك][1].

وقد لا يسمح الحال باللقاء لشاغل طرأ على غير حسبان، فيستولى على القلب فيكون حضوره على حالته تلك كعدمه، فيفضل حينذاك الابتعاد، كتب (الحسن بن وهب) إلى صديق له: [لما أذن الله في النهوض إليك، أحدث القدر مالم أكن أحتسبه من شغل يعم قلبي، فلا أجد بقية تتذوقك، فكرهت أن آتيك على هذه الحال فيكون نظري إليك حسرة يلجلجها الضمير إذ كان الشغل حاجباً عن استقصائك بكنهك][2].

---

(١) أحمد صفوت، جمهرة رسائل العرب ٤/٢٦٠.

(٢) ابن المعتز، البديع ص ٥٦، ٥٧.

جـ - المديح :

لم يعد الشعر ذلك الفن المقدم دائماً على كافة الفنون الأخرى في العصر العباسي كما كان في أزمنة مضت، وعهود سلفت، وبالتالي لم يحتفظ بخصوصية أغراضه التي كانت حكراً عليه حين شاركه النثر الفني فيها، وغدت مشاعة بينهما، وكان الأخير – على حداثة تجربته – هو الأقدر على حمل الأفكار وبثها – أحياناً – وذلك بفضل سمات النثر، فلا وزن يعيقه عن أداء هدفه، ولا قافية تكبله.

ورسائل المديح في أدب المترسلين الشعراء تأخذ جانب الإسهاب خلاف نهجهم في الفنين السابقين، وعناصر المديح ترتكز على محاور عديدة، وهي:

١ - مدح بذل المعروف.

٢ - مدح الأرومة.

٣ - مدح البيان.

٤ - مدح النهج السياسي.

٥ - مدح السمات (الخِلْقية والخُلُقية).

١ - مدح بذل المعروف:

كتب (العتابي) إلى صديق له رسالة من النوادر في هذا الجانب، راوح فيها بين فني القول، بدأها بمدح صاحبه نثراً، وأعقبها بالشعر، يقول فيها: [أما بعد، أطال الله بقاءَك، وجعله يمتد بك إلى رضوانه والجنة، فإنك كنت عندنا روضة من رياض الكرم، تبتهج النفوس بها، وتستريح القلوب إليها، وكنا نعفيها من النجعة، استتماماً لزهرتها، وشفقة على خضرتها، وادخاراً لثمرتها، حتى أصابتنا سنة كانت عندي قطعة من سني يوسف، واشتد علينا كَلَبُها، وغابت قِطّتها، وكذبتنا غُيومُها، واخلفتنا بروقها، وفقدنا صالح الإخوان فيها، فانتجعتُك وأنا بانتجاعي إياك شديد الشفقة عليك، مع علمي بأنك موضع الرائد، وأنك تغطي عين الحاسد، والله يعلم أني ما أُعِدّك إلا في حومة الأهل. وأعلم أن الكريم إذا استحيا من إعطاء القليل، ولم يمكنه الكثير، لم يُعرف جوده، ولم تظهر همتُه، وأنا أقول في ذلك:

ظِلٌّ اليَسار على العباس ممدود ... وقلبُه أبدا بالبخل معقودُ

إن الكريم لَيُخْفي عنك عُسْرَتَه ... حتى تراه غنياً وهو مجهودُ

وللبخيل على أمواله عِلَلٌ ... زُرْقُ العيون عليها أوْجُهٌ سود

إذا تكرهت أن تعطي القليل ولم ... تَقْدِرْ على سَعَةٍ لم يظهر الجود

بُثَّ النوالَ ولا يمنعك قِلّتُه ... فكلُّ ما سدَّ فقراً فهو محمود][١]

يقول العسكري: [ومن أجمل ماقيل في بذل المعروف وإن كان قليلاً ما كتبه العتابي][٢] وأورد هذه الرسالة.

---

(١) القالي، الأمالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢/١٣٥، ١٣٦.

(٢) ديوان المعاني ١/١٥٤.

ويرى (الباحث) – هنا – امتياز النثر واقتداره في تصوير معاناة صاحبها، وتجسيد ماآلت به الحال، فقد كان أطوع أداة من الشعر، والعتابي – بموهبته – لم يقصد بعمله هذا النفعية الاخبارية المجردة، ولكنه عمد إلى " قوة التأثير" لكيما يحس صديقه بقدر معاناته، ويشاركه آلامه، تأمل تجسيد ذلك حين استعان "بالرمز القرآني" يقول [حتى أصابتنا سنة كانت عندي من سني يوسف] وهل هناك أبلغ من القرآن؟ أما بلاغته هو فكانت في حسن تأتيه، وفي هذا الربط الموفق بين سنته المجدبة، وبين سني يوسف العجاف.

وبعد، فهل أدت الرسالة دورها، وحققت هدفها كما أراد لها العتابي أن تكون؟ والإجابة بالإيجاب، بل وبلغت من تأثيرها في نفس المخاطب القدر الذي جعله يقاسم الكاتب ثروته، فأعطاه إحدى نعليه، ونصف قيمة خاتمه[1].

وإعجابنا بهذه القطعة الفنية لاينسينا أن نرد الفضل إلى أهله، فما سطره الكاتب في بعض أجزاء عمله هذا كان مقتبساً من حكمة أطلقها سيد البلغاء وإمامهم (علي بن أبي طالب) – كرم الله وجهه – حين قال في كلام موجز [لا تستح من إعطاء القليل فإن الحرمان أقل منه][2] والأثر هنا ظاهر لا خفاء فيه، يقول: [واعلم أن الكريم إذا استحيا من إعطاء القليل...] فنجده آثر لفظ علي فضلاً عن معناه، وكرّر ذلك في الأبيات التي ذيَّل بها رسالته، والتي تدور حول ذات المعنى، ولا أرى في ذلك منقصة للعتابي، ولا عيباً لغيره من الذين أفادوا من بلاغة على – رضي الله عنه–، وهم كثر.

---

(١) القالي، الأمالي ٢/١٣٥، ١٣٦.

(٢) الشريف الرضي، أبوالفضل، نهج البلاغة ٢/٣٢٠.

٣ - مدح الأرومة:

وقد يتناول الكاتب جانباً آخر من عناصر المدح، يعزف عليه، ويستدر به العطاء، فهذا العتابي يسلك طريقاً مغايراً لنهجه السابق في إطراء **(خالد بن يزيد*)** إذْ يتغنى بأرومته، ويمتدح حاضره، كتب: [أنت أيها الأمير وارث سلَفك، وبقية أعلام أهل بيتك، المسدود بك ثلمهم، والمجدد بك قديم شرفهم، والمنبه بك أيام صيتهم، والمنبسط بك آمالُنا، والصائر بك أكالُنا، والمأخوذ بك حظوظنا، فإنه لم يخمل من كنت وارثه، ولا دَرَسَتْ آثار من كنت سالِكَ سبيله، ولا أمَّحَتْ معاهد من خلفته في مرتبته](١).

---

(١) ابن قتيبة، عيون الأخبار ١/١٧٠، ١٧١، في العقد الفريد ٤/٣١٩، كتب العتابي: [أنت أيها الأمير، وارث سلفك، وبقية أعلام أهل بيتك، المسدود به ثلمهم، المجدد به قديم شرفهم، والمَحْيا به أيام سعيهم، وإنه لم يخمل من كنت وارثه، ولا درست آثار من كنت سالك سبيله، ولا أمحت أعلام من خلفته في رتبته] ويبدو الاختلاف في الألفاظ دون المعاني.

* هو خالد بن يزيد الشيباني، أحد الأمراء الولاة الأجواد في العصر العباسي، توفي سنة ٢٣٠هـ؛ الزركلي، الأعلام ٢/٣٠١.

٣ - مدح البيان:

وقد يستثير الكاتب قصيدة رائعة، أو رسالة مبدعة، فيبدي رأيه الانطباعي حولها، ورؤيته الفنية في صناعتها.

وقد يثير الكاتب في هذه الأثناء بعض القضايا النقدية، ويطبقها على العمل الإبداعي المفرد، ومنها ينطلق في الحكم العام على مذهبه البياني، ومنزلته البلاغية، ولا يمكن لي أن أصنف هذه الأحكام تحت باب النقد لاختلال منهجيتها في الدراسة المتكاملة، وهي لا تعدو أن تكون نظرات تأثرية، تشوبها المجاملة حيناً، حسب طبيعة العلاقات التي تربط بعضهم ببعض، وللتدليل على ذلك استمع إلى الحسن بن وهب في رؤيته لبلاغة أبي تمام وبيانه، ولعله أعجب بقصيدة له، وانطلق في التعميم، يقول: [أنت - حفظك الله - تحتذي من البيان في النظام، مثل ما نقصد نحن في النثر من الإفهام، والفضل لك - أعزك الله - إذْ كنت تأتي به في غاية الاقتدار، على غاية الاقتصار، في منظوم الأشعار، فتحل متعقده، وتربط متشرده، وتضم أقطاره، وتجلو أنواره، وتفصله في حدوده، وتخرجه من قيوده، ثم لا تأتي به مهملاً فيستبهم، ولا مشتركاً فيلتبس، ولا متعقداً فيطول، ولا متكلفاً فيحول، فهو منك كالمعجزة، تضرب فيه الأمثال، ويشرح فيه المقال، فلا أعدمنا الله هداياك واردة، وفوائدك وافدة][(١)].

وهل يمكن أن نسلم بهذه الأحكام ونأخذها على علاتها؟ وأقول: لا، فلم يكن أبوتمام ولا غيره من البشر من المتصفين بالكمال، وبالتالي لا يحق لابن وهب أن يصف مأثوره بالتكامل النصي، ويستبعد خلوه التام من المعايب، حتى غدا عنده كالمعجزة، وهل هنالك إعجاز في غير القرآن؟ بالقطع لا.

على أن النقاد في عصر أبي تمام كانوا في خصومة دائمة معه، لما اشتمل عليه شعره من تعقيد وتكلف على خلاف مديح ابن وهب له هنا، بل وتروي مصادر

---

(١) الحصري، زهر الأداب ٣/٨٩١.

الأدب قول أحد أولئك له: لم تقول مالا يُفْهَم[١]؟ إشارة إلى أن شعره قد غلفه الغموض حتى استعجم على الأفهام، وذلك من آثار الصنعة اللفظية التي أفرط في استخدامها، وأغرق شعره في بحورها.

ولا يعني ما قدمته أني أقلل من شأن أبي تمام وأعماله، فهو أكبر من ذلك، وأنا أصغر من أن أصل إلى ذلك، ولكني أحاول ما استطعت أن أطبق أصول المنهج العلمي في عدم التسليم والاستسلام للأحكام العامة التي تتناقض مع الحقائق وثوابت الأمور.

ومن عجب أن نرى ابن وهب نفسه ينتقد أبا تمام – في موضع سابق –[٢] بعد أن سمع منه شعراً اتسم بالتعقيد والتكلف كالعادة، وهذا دليل على تناقض الرجل مع نفسه، وعدم قناعته فيما ذهب إليه، وإن كان ابن وهب قد أفرط في مبالغاته مع أبي تمام إلا أنا نجده في أحايين كثيرة يقتصد في مديحه، فلا يخرجه عن الجادة، وإن لم يخل قوله من المبالغة، يقول في إطرائه لإبراهيم بن العباس – بعد أن وصله كتاب منه، استولى على إعجابه، وأسره بيانه – [وصل كتابك، فما رأيت كتاباً أسهل فنوناً، ولا أملس متوناً، ولا أكثر عيوناً، ولا أحسن مقاطع ومطالع منه: أنجزت فيه عِدة الرأي، وبُشرى الفراسة، وعاد الظن يقيناً، والأمل بلوغاً، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات][٣] يبدو أن الناثرين – في هذا العصر – كالشعراء في الغلو والمبالغة حين يمدحون، وحين يهجون، وحين يصفون.

---

(١) الآمدي، أبوالقاسم الحسن بن بشر، الموازنة بين الطائيين، ت: محمد محيي الدين ص ٢٣.

(٢) انظر المدخل ص ٣٦ .

(٣) ابن عبد ربه، العقد الفريد ٣١٧/٤، عند ابن قتيبة في عيون الأخبار ١٠٦/١، ١٠٧، ووردت الرسالة غير منسوبة لكاتب.

٤ - امتداح المنهج السياسي:

عناصر المدح في الأدب العربي تتمحور حول (الندى والبأس) وبعض الشمائل الكريمة الأخرى. وهذا هو المألوف في الأجناس الأدبية، أما غير المألوف فهو امتداح المسلك السياسي للدولة ممثلاً في خليفة أو وزير، كما فعل أبوعلى البصير مع نهج عبيد الله بن يحيى بن خاقان، ولا أحسب أن موضوعاً كهذا نال عناية من كاتب كما نال من البصير، ولعل عزوفهم عن البحث في هذا الموضوع يمثل عدم رضاهم عن الأوضاع كما رضي كاتبنا هنا، كتب: [وإن أمير المؤمنين لما استخلصك لنفسه، وأتمنك على رعيته، فنطق بلسانك وأخذ وأعطى بيدك، وأورد وأصدر عن رأيك، وكان تفويضه إليك بعد امتحانه إياك، وتسليطه الحق على الهوى فيك، وبعد أن ميّل بينك وبين الذين سموا لمرتبتك، وجروا إلى غايتك، فأسقطهم مَضَاؤُك، وخفوا في ميزانك، ولم يزدك - أكرمك الله - رفعة وتشريفاً، إلا ازددت له هيبة وتعظيماً، ولا تسليطاً وتمكينا، إلا زدت نفسك عن الدنيا عزوفاً وتنزيها، ولا تقرباً واختصاصاً، إلا ازددت بالعامة رأفة وعليها حدبا، لا يخرجك فرط النصح له عن النظر لرعيته، ولا إيثار حقه عن الأخذ بحقها عنده، ولا القيام بما هو له عن تضمين ماهو عليه، ولا يشغلك معاناة كبار الأمور عن تفقد صغارها، ولا الجدُّ في صلاح مايصلح منها عن النظر في عواقبها؛ تمضي ماكان الرشد في إمضائه، وترجئُ ماكان الحزم في إرجائه، وتبذل ماكان الفضل في بذله، وتمنع ماكانت المصلحة في منعه، وتلين في غير تكبر، وتخص في غير ميل، وتعم في غير تصنع، لا يشقى بك المحق وإن كان عدواً، ولا يسعد بك المبطل وإن كان ولياً، فالسلطان يعتد لك من الغناء والكفاية، والذب والحياطة، والنصح والأمانة، والعفة والنزاهة، والنصب فيما أدى إلى الراحة، بما يراك معه - حيث انتهى إحسانه إليك - مستوجباً للزيادة وكافة الرعية - إلا من غمط منهم النعمة - مثنون عليك بحسن السيرة، ويمن النقيبة، ويعدون من مآثرك أنك لم تدحض لأحد حجة، ولم تدفع حقاً لشبهة؛ وهذا يسير من كثير، لو قصدنا لتفصيله، لأنفذنا الزمان قبل تحصيله، ثم كان قصدنا الوقوف دون الغاية منه][١].

---

(١) الحصري، زهر الأداب ٤٣٦/٢، ٤٣٧.

٥ - امتداد السمات الخِلْقية والخُلقية.

كتب الحسن بن وهب رسالة رد إلى الحسن بن سهل قال فيها: [وصل كتاب الأمير - أيده الله - ويدي عاملة، وفمي طاعم، فلذلك تأخر الجواب قليلاً، وقد رأيت تكافؤ إحسان هذا اليوم وإساءته، وما استحق ذماً، لأنه إن أشمس حكى ضياءَك وحسنك، وإن أمطر أشبه سخاءك وجودك، وإن أغام فلم يشمس ولم يمطر فقد أشبه طيب ظلك، ولذة فِنائك، وسؤآل الأمير - أيده الله - عني نعمة من الله أعفِّي بها آثار الزمان المسيء، وأنا كما يحب الأمير، صرف الله الحوادث عنه، وعن حظي منه](١).

وفق ابن وهب في إضفاء بعض المحاسن (حسية ومعنوية) على ممدوحه، وهي في مجملها مستوحاة من مناخ يومه ذاك، فماثل بينها وبين الحسن، فالشمس تحكي ضياءه، والمطر يشبه عطاءه، والغيم كطيب ظله، ولو قدم أو أخر في صياغته - فشبه ممدوحه بالشمس، وعطاءه بالسحاب - لما كان لها هذا الأثر العميق في النفس، هذا فضلاً عن المعاني الدقيقة التي تستخفي وتستعلن من وراء هذا الربط الموفق، فكرمه له شمولية المطر.

---

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان ٢/١٢٢، الحصري، زهر الآداب ٢/٥٠٠.

د - المشاركة الوجدانية:

يميل الإنسان بحكم تكوينه إلى حياة الجماعة، يأنس بغيره، ويؤنس غيره، فكل مفتقر إلى كل، وبالجماعة يتم التكامل وتبادل المصالح بين أفراد المجتمع، سواء أكانت مصالح معيشية تقوم عليها آلية الحياة المادية البسيطة، أم كانت أعمق غوراً من ذلك في احتياج الإنسان إلى مشاعر أخيه الإنسان في مواجهة الحياة بكدرها وصفائها، وهذا هو السائد في الطبائع البشرية، وأتى الإسلام فعمق هذا الشعور النبيل، وجعله من الآداب والسنن الحميدة التي يثاب عليها، من ذلك:

١ - التهنئة:

لم يسلك المترسلون الشعراء في هذا الغرض المسارات المأثورة، فلم نر لهم تهنئآت بمولود أو بانتصار ٠٠ أو غيرهما من تلك الواجبات الاجتماعية المطروقة، ولكنهم اختطوا لهم طريقاً غير مألوف بكثرة، فرأينا لهم تهنئة بشفاء مريض، أو بعمل جديد، على أن جُلّ مأثورهم كان في التهنئة (بالنيروز)، وهي من الآثار الفارسية على الحياة العباسية، فهؤلاء الكتاب وإن كانوا قد تعربوا إلا أنهم لم ينسوا تقاليدهم وأعيادهم، فمارسوها حتى بعد إسلامهم، وأشركوا العرب الأقحاح في أفراحهم بعد ذلك، حتى أضحى الأمر عادة وواجباً لابد من قضائه، والقيام به، من فرس وعرب.

ويعد سعيد بن حميد إمام هذا الفن من بين سائر المترسلين لما أُثر عنه من رسائل جيدة، يميزها حسن تخلصه، إذْ يستوجب الأمر تقديم هدية في هذا اليوم - رمز محبة وولاء - للخلفاء والوزراء وكبار القادة، وكان ابن حميد يجيد الخلاص من هذا العبء، ويستعيض عنها بإهداء مديحه تارة، وأخرى يعترف بتقصيره ويجعلها هديته، وقد يسعفه ذهنه ويقدم بعض الهدايا التي لا تخلو من طرافة وظرف، وهي في ذات الوقت لا تحمله ما لاطاقة له به، لبخس ثمنها، ويكون بذلك قد أدى واجبا، وقضى حقاً، كتب إلى أحدهم [هذا يوم سهلت فيه السنة للعبيد الإهداء للملوك، فتعلقت كل طائفة من البر بحسب القدرة والهمة، ولم أجد فيما أملك ما يفي بحقك، ووجدت

تقريظك أبلغ في أداء مايجب لك، ومن لم يؤت في هديته إلا من جهة قدرته فلا طعن عليه][1]، ومثلها في المبنى والمعنى قوله أيضاً: [ومثّل خادمك بين يديه مايملك فلم يجد شيئاً يفي بحقك، ورأى أن تقريظك بما يبلغه اللسان وإن كان مقصراً عن حقك أبلغ في أداء مايجب لك][2] وتتواتر رسائله في ذات الموضوع حاملة نهجه في التخلص، ولعلها تشي من بُعد عن بخله، وإن كنا نلتمس له العذر في عدم قدرته على مجاراة علية القوم، لأن الهدية تكون بقدر من تُهدى إليه، كتب إلى واحد منهم [أيها السيد الشريف، عشت أطول الأعمار، بزيادة من العمر موصولة بفرائضها من الشكر، لا ينقضي حق نعمة حتى يجدد لك أخرى، ولا يمر بك يوم إلا كان مقصراً عما بعده، موفياً عما قبله.

إني تصفحت أحوال الأتباع الذين يجب عليهم الإهداء إلى السادة، فالتمست التأسي بهم في الإهداء، وإن قصرت بي الحال عن الواجب، وإني إنْ أهديت نفسي فهي ملك لك، لاحظ فيها لغيرك، ورميت بطرفي إلى كرائم مالي فوجدته منك، فإن كنت أهديت منها شيئاً فإني لمهدٍ مالك إليك، ونزعت إلى مودتي فوجدتها خالصة لك قديمة غير مستحدثة، فرأيت إن جعلتُها هديتي لم أجدد لهذا اليوم براً ولا لطفاً، ولم أميِّز منزلة من شكري بمنزلة من نعمتك إلا كان الشكر مقصراً عن الحق والنعمة، زائداً على ما تبلغه الطاقة، فجعلتُ الاعتراف بالتقصير عن حقك هدية إليك، والإقرار عما يجب لك براً أتوصل به إليك، وقلت في ذلك:

إن أُهْدِ مالاً فهو واهِبُهُ	وهو الحقيقُ عليه بالشكر
أو أُهْدِ شكري فهو مرتَهَنٌ	بجميل فِعلك آخِرَ الدهر
والشمس تستغني إذا طَلَعَتْ	أن تستضئَ بسُنَّة البدر][3]

(١) القلقشندي، صبح الأعشى ٤٤٨/٢.
(٢) المصدر السابق ٣٥١/٢.
(٣) أحمد صفوت، جمهرة رسائل العرب ٢٤٦/٤؛ والعسكري، ديوان المعاني ٩٤/١، ٩٥.

وقد يستنفذ أعذاره، ويخرج من تكراره، فيلتمس هدية طريفة تشارك من أهديت إليه في بعض سماته، وإن كانت من باب التخلص أيضاً كما فعل مع بعضهم، كتب: [النفس لك، والمال منك، غير أني كرهت أن أخلي هذا اليوم من سنة فأكون من المقصرين، أو أدعي أن في ملكي مايفي بحقك فأكون من الكاذبين، وقد وجهت إليك بالسفرجل لجلالته، والسكر لحلاوته، والدرهم لنفاقه، والدينار لعزه، فلا زلت جليلاً في العيون، مهيباً في القلوب، حلواً لإخوانك كحلاوة السكر، عزيزاً عند الملوك لا تحسن أفنيتهم إلا بك، ولا زلت نافقاً كنفاق الدرهم][١].

وهذه المعاني وبعض الألفاظ التي استعان بها في هذا الجانب كانت من عطاء بعض الكتاب الآخرين، وقد أبنا ذلك في صفحات سابقة[٢].

وقد يهنئ الكاتب الخليفة ذاته بهذا اليوم، كما فعل الحسن بن وهب مع المتوكل، كتب: [أسعدك الله ياأمير المؤمنين بكر الدهور، وتكامل السرور، وبارك لك في إقبال الزمان، وبسط بيمن خلافتك الآمال، وخصك بالمزيد، وأبهجك بكل عيد، وشدّ بك أزر التوحيد، ووصل لك بشاشة أزهار الربيع، الموفق بطيب أيام الخريف المغدق، وقرب لك التمتع بالمهرجان والنيروز، بدوام بهجة أيلول وتموز، وبمواقع تمكين لا يجاوزه الأمل، وغبطة إليها نهاية ضارب المثل، وعمر ببلائك الإسلام، وفسح لك في القدرة والمدة، وأمتع برأفتك وعدلك الأمة، وسربلك العافية، ورداك السلامة، ودرعك العز والكرامة، وجعل الشهور لك بالإقبال متصدية، والأزمنة إليك راغبة متشوقة، والقلوب نحوك سامية، تلاحظك عشقاً، وترفرف نحوك طرباً وشوقاً][٣] ثم ذيلها بأبيات تؤكد ماجاء في صلب الرسالة:

---

(١) الجاحظ، المحاسن والأضداد ص ٢٣٩.

(٢) انظر ص ٤٤-٤٦ البحث.

(٣) الجاحظ، المحاسن والأضداد ٢٣٩، ٢٤٠.

فـــداك الزمـــــان وأهـــل الزمـــــان إمـــام الهـــدى لـــــك مستبشـــــرينا

قـــــد ألقـــــوا إليـــك مقـــــاليدهم جميعـــــاً مطيعيـــــن مستوســــــقينا

ولازلـــــــت زينـــــــاً لأعيادنـــــــا وللديـــن كهفـــاً وحصنـــاً حصينـــاً

يعـــــز بدولتــــــك الصـــــالحون ويشـــقى بــك الشـــرك والمشـــركونا

فيـــــارب مشــــــكلة أبرقـــــــت فجللتهـــــا الســـيف حقـــاً يقينــــا

بصـــــدق عزيمـــــة مســــــتبصر وضـــرب يقـــد الطلـــي والمتونــــا

وســــمت النصــــاري بشـــيطانها وذللـــت منهـــا الأغـــر البطينــــا

وكـــم فعلـــة لـــك فـــي المشـــركين أقـــرّت عيونـــاً وأبكـــت عيونـــا][١]

ومثل هذه التهنئآت – بعيد اليوم الجديد (النيروز) – شاعت عند كتاب العصر العباسي حتى أصبحت ظاهرة مألوفة، يتبادل معها الأصدقاء الهدايا، ويتقربون في يومهم هذا إلى ساسة الدولة وكبرائها، ويقبل هؤلاء من أولئك، ويرضى أولئك عن هؤلاء.

أما التهنئة (بشفاء المريض) فهي من آثار المدنية وما أحدثته من تعقيدات في التعامل، فلم نعد نرى تلك البساطة في السلوك العام للمجتمع العباسي كما كان في عصور الإسلام الأولى، وآية ذلك هذا الضرب من التهنئة، الذي يشي بإهمال الزيارة الفعلية للمريض، والتهاون في تفقد المسلم لأخيه المسلم، لنستمع إلى **سهل بن هارون** في كتابه إلى صديق له أبلّ من مرض، وسنرى هذه المعاني تستخفي بين السطور، كتب: [بلغني خبرُ الفترة في إلمامها وانحسارها، والشكاة في حلولها وارتحالها، فكاد

(١) السابق نفسه.

يشغل القلق بأوله عن السكون لآخره، وتُذْهِلُ الحيرة في ابتدائه عن المسرة في انتهائه، وكان تغيري في الحالين بقدرهما، ارتياعاً للأولى، وارتياحاً للأخرى][(١)]

والعصر العباسي الذي خطا خطوات كبيرة في مجالات الحياة، وانغمس في النعيم والترف، مما أكسبه بعداً نفسياً واجتماعياً، فعرف أهله المجاملات الاجتماعية، فلم يعد غريباً أن نرى كاتباً يهنئ صديقاً له حظي بمنصب في الدولة، وقد تبلغ المجاملة أرقى أنواعها وأرقها حين يهنئ العمل، كتب - **سعيد بن حميد** إلى أحد إخوانه في لباقة - [أنا أهنئ بك العمل الذي وليته، ولا أهنّئك به، لأن الله أصاره إلى من يورده موارد الصواب، ويصدره مصادر الحجة، ويصونه من كل خلل وتقصير، ويمضيه بالرأي الأصيل، والمعرفة الكاملة، قرن الله لك كل نعمة بشكرها، وأوجب لك بطوله المزيد منها، وأوزعك من المعرفة بها مايصونها من الفتن، ويحوطها من النقص][(٢)].

٢ - التعزية:

ولئن كانت المشاركة في الأفراح مهمة فإن الأهم منها المشاركة في الأتراح، لأن المصاب يكون في حاجة إلى من يعينه على أحزانه، وينتشله من همومه، وهذا هو دور الصديق.

ولابد من الإشارة العجلى إلى أن هذه القيم الإنسانية الرائعة ماهي إلا تجسيد لسماحة الإسلام ومبادئه وأسسه التي تحكم العلاقة بين أفراده، يقول المصطفى الأمين - صلى الله عليه وسلم: [المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا][(٣)].

---

(١) ابن نباتة، سرح العيون ص ١٦٨؛ أحمد صفوت، جمهرة رسائل العرب ٣/٣٩٤.

(٢) أحمد صفوت، جمهرة رسائل العرب ٤/٢٥٢.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي، ط: الثانية، ١٩٧٢م، دار إحياء التراث العربي، ١٦/١٣٩.

والعزاء بطبيعته من أصدق الأغراض في أي جنس أدبي، لأن فيه تسمو العاطفة، وتظهر معادن الأوفياء من الناس، وترجع النفوس إلى أصل الفطرة الخيرة، فطرة الله التي فطر الناس عليها.

والمترسلون من الشعراء كغيرهم من الكتاب تفاعلوا مع الأحداث المحيطة بهم، وكان لهم مأثور في هذا الغرض، وإن كان في عمومه ينحو المنحى الرسمي لأن التاريخ الأدبي لم يكن حفياً إلا بتلك الرسائل التي حبرت إلى علية القوم ولا خفاء في أن مثل هذه المكاتبات تندر فيها نبرة الصدق الفني، وهي إلى المجاملة أقرب، والى تتبع الرسوم المتبعة أدنى، كتب **الحسن بن وهب** إلى **محمد بن اسحاق** يعزيه عن ابنه اسحاق: [الأمير أعلم بالدين من أن يذكر به، وبالدنيا من أن يُدل على ماخُلقت له، وقد ورد – أعز الله الأمير – ماكان من النبأ العظيم، والخطب الجليل، في سيف الخلافة ودعامتها، وركنها في يومها وغدها، فلو أن حادثاً سبق بالنفوس آجالها، وأعجلها عن الآجال المقدرة، لكانت الرزية أحق الرزايا بذلك، فكنتُ أحق المنكوبين بمصابه أن ينالني ذلك منه][1].

وكتب **سعيد بن حميد** في عزاء بعض الأمراء: [لولا أن التعزية على المصائب سبيل لا ينكر على مثلي مِن خدمِ الأمير وعبيده سلوكُها، لأجللْتُ الأمير أن أذكره من الصبر وحسن العزاء بما أعلم أنه بفضل نعمة الله عليه، وما خوّله من الذي جعله به قدوة، وإنما أسأل الله عز وجل أن يوفق أمير المؤمنين لما يُعْظِم به أجره، ويجزل به مثوبته، ولا يهد له ركنا، ولا يريه في شئٍ من عواريه لديه، ومنائحه، نقصاً ولا غيراً ولا تبديلاً بمنه ولطفه][2]

وكتب أيضاً كتاب عزاء إلى **محمد بن عبد الله بن طاهر** [ورد عليّ الخبر – أعز الله الأمير – بحادثِ قضاء الله في الولي الناصح، المطيع الشاكر فلان

(١) أحمد صفوت، جمهرة رسائل العرب ٤/٢٥، ٢٦.
(٢) المرجع السابق ٤/٢٥٦.

- رحمه الله - فكان وقع المصاب به على حسب علمي بمحله كان من الأمير، وما يرعاه من حق طاعته ونصيحته، وما يجري عليه من أدبه وسلوك نهجه، والتمسك بأمره، وما يوجبه الأمير وَسَمه بمعروفه، وشرفه باختياره، واختصه بالقرب من خدمته، هذا مع ما أخلص الله بيني وبينه من المودة الصادقة، والثقة الصحيحة التي بعثنا على التمسك بحبل الأمير، والاتصال بأسبابه، والوقوف في ظله، فإن الله عز وجل جعل ذلك سبباً يجمع أهله، وإن اختلفت بهم الأسباب، وتفرقت بهم الديار، وتباعدت الأشكال.

وأعظم الله للأمير الأجر، وأجزل له المثوبة والذخر، وجعل الله الأمير وارث أعمارنا، والباقي بعدنا، والمؤمل لخلوفنا وأعقابنا، ورحم الله أبا فلان، ونقله إلى جنته التي لا يجاوزها أمل، ولا يوازيها خطر، فما أكاد أشهد مشهداً من مشاهد التمييز والنظر إلا وهم شاهدون له بالفضل الذي شرفه به اصطناع الأمير، واختياره، والنصيحة له، وقدّمه الله به على أكفائه، فلقد رفعه الله به - إن شاء الله - في حياته، وأورثه ثناء جميلاً بعد وفاته][(١)].

وفي عزاء **محمد بن عبد الله بن طاهر** كتب الحسن بن وهب أيضا [أطال الله بقاء الأمير مسروراً غير محزون، ومعطى غير مسلوب، ووفقه في أحواله كلها بما يستديم به النعم، ويستحق به المثوبة.

أفظعني ما رأيت في الأمير - أعزه الله - من أثر هذه الرزية التي تكاد أن تكون أشبه بالنعم منها بالرزايا، لما وفر الله للأمير - إن شاء الله - من ثوابها له، وحاطه من بعدها في نفسه، فإن حياة الأمير - أعزه الله - حياة لأهله، وذوي نائله،

---

(١) المرجع السابق ٤/٢٥٥، ٢٥٦.

بعد الذي جعل الله للدين والخلافة والعز بسلامته، وللأمة من جمال مكانه وموضعه، فوفرّه الله لأمير المؤمنين، ولا نقصه، وتولاه بحسن المدافعة عنه، والحياطة له، ولا أراه سوءاً في نفس، ولا حميمٍ بقدرته، وأعاذ الأمير من المكاره، وأعاذنا فيه منها، إنه ولي قدير][1].

ولأن للإنسان وشائج مع الأرض والحياة كان لزاماً على (كاتب العزاء) أن يلج من هذه الناحية، ويذكر بحقيقة الدنيا، وأنها إلى زوال، ولم تكن ولن تكون دار خلود وأمن ودعة من نوائب الدهر؛ وليس من شك فيما يحدثه هذا المعنى من تأثير على نفس المصاب، ويكون حجمه – أي التأثير – بقدر الرابطة بين المعزي والمتوفي، فإن كانت الصلة قوية، والعلاقة حميمة، رأينا التفاعل مع الحدث ناطقاً، والإحساس والشعور مبلغاً، وإن بعدت القرابة أو الصداقة بينهما كانت أقرب إلى الرسائل الرسمية منها إلى الخاصة كما في الأمثلة السابقة، وكما في قول **الحسن بن وهب** يعزي **ابن الحسن بن سهل** عن أبيه، كتب: [إن أحق النعم المرتجعة، والعواري المستردة، بأن تودعها النفوس بالسكون عليها، والرضا عن الله عز وجل فيها، والسخاء عما ارتجع واسترد منها، نعمة عارية، أعظم الله قدرها، وأجل خطرها، وفسح في مدتها، وأطال الانتفاع بها، حتى إذا حداها طول الثواء بأهلها، وتقادم الإلف بينهما، فجرى مجرى أخلق الأشياء بالدوام، إن كان الدوام في شئٍ مأمولا – وأبعدها من النفاد – إن كان النفاد على شئ مأمونا، فكانوا لذلك من حالها في غرة عنها، وإغفال لموقعها، أمضى الله أمره الذي هو فناء كل شئٍ ما دونه، وهلاك كل شئٍ إلا وجهه، فكان ذلك قضاءه القضاء الفصل، وحكمه الحكم الذي ليس له مرد، ثم نبه به على فقد مامنح منه، حتى عاد مشكوراً، وعلى مايجب به التسليم، حتى عاد مطاعاً.

وإن أميرنا وسيدنا وموئل نعمتنا، ومبتدى أسلافنا، وكافل أعقابنا، وعامر مجدنا، وباني مكارمنا، بالبر الذي هو كان المعتد له، ثم بالأدب الذي رفع مناره

(١) المرجع السابق ٤/٢٦، ٢٧.

وأعلامه، وأثمن به لأهله، وأقام له سوقه، فلم يقرب إلا عليه، ولم يُحْظِ إلا من ناحيته، فالتمسه الناس حين التمسوه من جهتيه اللتين: إحداهما الرغبة فيه لفضله، والأخرى طلب المتحير لمعرفته أبا محمد، رضي الله عنه كل الرضا، ورحمة الله كل الرحمة عليه، كان ذلك النعمة التي دامت أحسن دوام، وتلك العارية التي ثوت أطول الثواء، فما أحقك - بموضعك من ولادته - وأحقنا - بموقعنا من جميل بلائه - أن نكون على ما وفّاه من أمره شاكرين، وعنه تبارك وتعالى راضين، وأن نقول قول المحسنين المجملين المسلمين "إنا لله وإنا إليه راجعون" وأنا أسأل الله أن يصلي على محمد وعلى آل محمد ويسلم تسليماً، وأن يحسن لنا ولك العزاء، ويوفر علينا وعليك الأجر والثواب، وأن يجزي أبا محمد خيراً، بنيته الجميلة، وسعيه الحميد، وأن يسد بك وبإخوانك - أبقاك الله لهم، وأبقاهم لك ومعك - ما فلت الأيام من مكانه، وأخلت من مشاهده وأوطانه، حتى لا يعفو له أثر، ولا يُفقد منه إلا ما فُقِد، وأن يستقبل بكم أيامكم بأحسن مامضى تمامه، لمن مضى منكم، فيجعلكم الخلف الذي لا وصمة معه، ولا وحشة عليه في نفسه، وأسأله أن يتولاكم ويتولانا فيكم بما هو أهله ووليه.

وكتابك - أكرمك الله - بما أحضركم الله من توفيقه، الذي أرجو ألا يغيب عنكم، وإرشاده الذي أرجو أن يكون مقروناً بكم في كل أحوالكم، مايلزمك في مروءتك وأخلاقك، لا تخلني منه، ولا تؤخر إيناسي بتعجيله، تولاك الله بكل صالحة، وعوض بك من كل رزية، وأتم عليك النعمة، ولا أخلاك فيها من الزيادة](١).

ومن فضل الله عز وجل على بني الإنسان، ورحمته بهم أن جعل أحزانهم خاصة بمن حولهم من الأهل والصديق، فليس غريباً إذن أن نرى رسائل العزاء عند المترسلين الشعراء تقل فيها حرارة العاطفة، وصدق الشعور، والكاتب قبل غيره يحس بفتور عاطفته، وتراخيها عن التفاعل الحقيقي فيأخذ في تأكيد ألمه، وإظهار

---

(١) المرجع السابق ٢٣/٤ - ٢٥.

تأثره، ولا أرى ذلك إلا إدعاء ، أو مجاملة حسنة، كتب **الحسن بن وهب إلى إسحاق ابن يحي** بن معاذ يعزيه عن ابنه: [من شك في موضعي من هذه المصيبة، وبموقعها مني، فأنت – أعزك الله – غير شاك في ذلك، ولا مرتاب به، فإنا كنا من صفاء الخلة على مالم يكن أخو مودة، نغيب إذا غبنا على إخلاص ومِقَةٍ، ونحضر إذا حضرنا على بر وصلة، ونتقارض المحبة قروضاً مجزية، رضي الله عنه، وشكر له ماكنت أعتد به منه، ولقد كانت الدنيا تزداد حبا إليَّ بمكانه، وتُضعّف حسنا في عيني بحياته، ولقد أحدثت لي ميتته زهداً في الحياة، وقصداً في الشح عليها، وذماً للدنيا، واستقباحاً لصورها، ولكن ما الحيلة، جعلت فداءك؟ وممن الظلامة؟ وما نصنع بهذه الغرارة التي سيرتها – منذ كانت – سيرة واحدة، وأحكامها في كدر الصفاء، وتنغيص السرور أحكام راتبة؟ والله المستعان، والمشتكى إليه، وحسبنا الله ونعم الوكيل، لا نقصَ لك عددا، ولا أراك في شئ من نعمه عندك فجعاً ولا تبديلاً][(١)].

وتعد هذه الرسالة معبرة عن ألم وحزن عميقين إذا ما قسناها برسالة جافة **لسعيد بن حميد** رُصت كلماتها رصاً، غير عابئة بموضوعها العاطفي، متجردة من أي إحساس أو شعور صدقاً أو كذبا، أكثر فيها من الأعذار، كتب: [إذا استوى المعزَّى والمعزِّى في النائبة، استغنى عن الإكثار في الوصف لموقع الرزية، والعذر في التأخر يكاد ظهوره ينبئ عن التنبيه عليه، وأنت أولى بما تتطول به في قبوله، وأنا أقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، إقرارا له بالهلكة، واعترافاً بالمرجع إليه، وتسليما لقضائه، ورضاً بموقع أقداره، وأسأل الله أن يصلى على محمد صلاة متصلة بركاتها، وأن يوفقك لما يرضيه عنك قولا وفعلا، حتى يُكْمل لك ثواب الصابر المحتسب، وجزاء المطيع المتنجز للوعد، ويرحم فلاناً، ويُحلّه أعلى منازل أوليائه الذين رضي سعيهم، وتطول بفضله عليهم، إنه ولي قدير][(٢)].

---

(١) المرجع السابق ٤/٢٦.
(٢) المرجع السابق ٤/٢٥٥.

ولم يكن التاريخ الأدبي حفيا – فيما يبدو – بتسجيل حديث الألم الناطق، وأنين الحزن الصادق، المنبعث من جوف إنسان مكلوم على قريب أو حميم، فلغة الصدق، ولوعة الفراق تظهر في هذه الحالة، أما ماسبق عرضه[١] فهي من الواجبات التي تحتمها الأعراف المتبعة، والعلائق وإن بعدت عن الصداقة الحقة المتكافئة اجتماعياً ونفسياً بين خلين.

وقد تجد بعض هذه الرسائل صدى عند المعزَّى فيجيب عليها كما فعل الحسن ابن وهب، كتب إلى أبي تمام: [أمتعني الله بما وفّر عليّ من موافقتك، وبلوغ الوطر كل الوطر من استتمام اليد عليك، وإحاطة الملك لك، زاد الله في النعمة عندك بطول حياتك، وتراقي أيامك، وغفلة الدهر عنك، وعن حظي منك.

كتابي بأبي أنت وأمي، وطارفي وتلادي، وكتابك في يدي، وفلان عندي، ونحن نصعِّد ونصوِّب في الشعر العجيب الذي انفذته في دَرْجه، وبيننا من ذكرك أطيب من روائح الرياض غِبّ القطر، والحال سارة، والعافية شاملة نحمد الله على النعمة، ونسأله أحسن النماء والزيادة، وذكرت مشاركتك إياي في المصيبة وماكان أحوجني – حين طرقت بها الأيام – إلى أن تكون حاضراً، فتؤيد ضعفاً ، وتعم سداداً، فإنها كانت حالا وافت غريراً بها، شديد الغفلة عنها، حتى كأني كنت لا أحسب الأيام على هذه الخليقة، ولا الدهر على هذه العادة، فسبحان الله لهذا السهو الطويل، والتفريط الذي لا يشبه السفيه، فضلاً عمن يجب أن يقال عاقل حليم، وإنا لله وإنا إليه راجعون، لا انفكت أقدار السوء تسقط دونك، والردى يخطئك، وكلاءة الله تحيط بك](٢).

---

(١) لذا اكتفيت بما ذكرت، وهي تخبر عما وراءها من رسائل تشاكل ما أوردته، راجع: أحمد صفوت، جمهرة رسائل العرب، ٢٨/٤ – ٣١، ومن العزاء ما أورده البغدادي في تاريخه ١١٨/٧ لبشار بن برد حين وقف أمام المهدي وقال: [يابن معدن الملك، وثمرة العلم، إنما الخلق للخالق، وإنما الشكر للمنعم، ولابد مما هو كائن، كتاب الله عظتنا، ورسول الله صلى الله عليه وسلم أسوتنا، فأية عظة بعد كتاب الله، وأية أسوة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم].

(٢) التوحيدي، البصائر والزخائر ١٩٨/٤، ١٩٩.

وأكبر الظن – كما تشي الرسالة – أن **الحسن بن وهب** قد تروى في إجابة صديقه، بعد أن أطمأنت روحه، وثابت نفسه إليه، يدل على ذلك هذا الترتيب في الأحداث، وهذا التنظيم في السرد دلالة على سكون نفسه، وعلى كل فهي رسالة نادرة، إذْ لم نعهد إجابات على رسائل العزاء.

والعصر العباسي بحضارته – التليدة والطريفة – قد أحدث أنواعاً من الواجبات، وفنوناً من التقدم الإنساني، فالعزاء – مثلاً – واجب اسلامي تليد، لا مفر من أدائه، ولا مندوحة من القيام به، ومثله – وإن كان أقل منه في الوجوب – تعزية من فقد عمله، أو أُقيل من منصبه، وهذا الضرب من المواساة محدث في الأدب العربي، لا أخاله مطروقا، يحكي الرقي الذي بلغه المجتمع العباسي، ولا أحسبها إلا من تأثير النظم الفارسية في الإدارة على المجتمع العربي حينذاك، ولا ضير في ذلك فالمجتمعات تؤثر في بعضها إنْ سلباً وإن إيجاباً.

والعباسيون أخذوا من الحضارة الفارسية الصالح لأنهم الأعلون، والمنتصر – دائماً – له حق الاختيار، وحرية الانتقاء، لا يفرض عليه شئ.

وهذا النمط من الرسائل بلغ الذروة في الذوق، والقمة في التعامل النفسي مع المعزَّى، فهو لايواسيه مباشرة ولكنه يهنئه، فظاهرها التهنئة، وباطنها العزاء، منها ماكتبه **سعيد بن حميد** إلى بعض إخوانه وفيها يبث أفراحه وسروره – إدعاءً – كي يخرج صديقه من همه، كتب: [حفظك الله بحفظه، وأسبغ عليك كرامته، وأدام عليك إحسانه.

إن سروري بصرفك، أكثر من سرور أهل عملك بما خُصوا به من ولايتك، وقد كنت – أعزك الله – فيما يربأ بك عنه، بما أنت عليه في قدرك واستيئهالك، ولكنا رجونا أن يكون سبباً لك إلى ما تستحق، فطبنا نفساً بالذي رجونا، فالحمد لله الذي سلمك منه، ونسأله تمام نعمه عليك، وعلينا فيك بتبليغك أملك، وآمالنا فيك، وشفع

ماكان من ولايتك بأعظم الدرجات، وأشرف المراتب، ثم خصك الله بجميل الصنع، وبلغك غاية المؤملين.

إن من سعادة الوالي – حفظك الله – وأعظم ما يخُص به في عمله وولايته السلامة من بوائق الإثم، ونوائب الدنيا وشرها، والعاقبة مما يخاف منها، وقد خصك الله منها – بمنه وطوله – مانرجو أن يكون سبباً لك إلى نيل ما تستحق من المراتب، والله نسأل إيزاعك شكر مامن به عليك، وتبليغك غاية أملك في جميع أمورك، برحمته وفضله][1].

والانكسار النفسي الذي ينتاب الإنسان المهزوم يحتاج إلى من يجبره، ويرد إليه شيئاً من ثقته، وهذا ماقام به **سعيد بن حميد**، تجاه صاحبه.

وقد يلجأ الكاتب إلى مواهبه النثرية والشعرية معاً في إقالة عاثر آخر، وهو يهنئه بالعزل أيضاً، ليؤكد سروره من حيث أغتم غيره، ولا يأنف حيناً من السؤآل عن أسباب العزل، كتب **سعيد بن حميد** إلى بعض إخوانه: [جعلني الله من السوء والمكروه فداءك، وأطال في الخير والسرور بقاءك، وأتم نعمه عليك، وأحسن منها مزيدك، وبلغك أقصى أمنيتك، وقدمني أمامك، وقد بلغني ما اختار الله لك، فسررت من حيث يغتم لك من لايعرف قدر النعمة عليك، ولا يراك بعين استحقاقك، ولئن ساءني ماساء إخوانك من عزلك، لقد سرني ما يسّر الله لك، والحمد لله الذي جعل انصرافك محموداً، وقضى لك في عاقبتك الحسنى، وأقول:

لِيَهْنِكَ أنْ أصبحتَ مُجتمعَ الحمدِ ... وراعى المَعَالِي، والمُحَامِي عن المجدِ

وأنكَ صُنْتَ الأمرَ فيما وليتَه ... ففرقت مابين الغواية والرشدِ

---

(١) أحمد صفوت، جمهرة رسائل العرب ٤/٢٥١.

فلا يحسبِ الباغون عزلك مَغْنَماً فإنَّ إلى الإصدار عاقبةَ الوِرْدِ

وما كنتَ إلا السيفَ جُرِّدَ للوغى فأحْمَدَ فيها ثم رُدَّ إلى الغِمْدِ

وقد قال الأول:

فمن يكن بوُرُودِ العزل مكتئباً فإننى بورود العزل مسرورُ

بعد الولاية عَزْلٌ يستبين به طَوْلُ الولاةِ، وبعد العزل تأميرُ

أما ما عندي من تصور العاقبة لك في نفسي، فيمسني في أمرك في حال المحنة ما يخصني منه في وقت تجدد النعمة، وبحسب ضميرك الشاهد على ما عندي ما أجده لك في نفسي، فلازلت في نعم متتابعة متجددة، ولا عدمت الثروة والزيادة، وبلغك الله أقصى أملك وأمل أخيك لك، وكبت أعداءك، وجعلني وقاءك، المقدم عنك.

أحب أن تشرح لي صورة الأمر، إلام تأدت؟ وكيف كان الابتداء؟ فإني لا أشك أنها حيلة ونية من عز الصاحب الجليل القدر، ولها عاقبة منه إن شاء الله محمودة، وتفضي من ذلك إلى ماتسكن إليه نفسي، إن شاء الله](١)

---

(١) المرجع السابق ٤/٢٥٠، ٢٥١.

هـ - الشفاعات:

وهي توازي مايعرف في زمن الناس اليوم (بالوساطات)، وهذا الضرب من الرسائل - الذي يمثل المرآة لأحوال المجتمع - لم يكن مطروقاً في زمن المصطفى - صلى الله عليه وسلم -، ولا في زمن الراشدين من بعده، دلالة على العدالة الاجتماعية التي نعم بها المسلمون آنذاك، وذلك بإعطاء كل ذي حق حقه، وإحلاله مكانه دونما تدخل من أحد سوى مايظهره من كفاءة واقتدار.

بيد أن الأمر اختلف عقب ذلك في العصرين الأموي والعباسي، فتفشت الشفاعات (إيجابيها وسلبيها) وأصبح الرجل لاينال مركزه - أحياناً - إلا بشفيع.

هذا من الناحية الفكرية للشفاعات، أما من حيث قيمتها الأدبية فهي نوع من الرسائل الشاعرية، يلتقي فيها تركيز العقل واتزانه مع حرارة العاطفة وصدقها، فكاتبها - عادة - ينشئها بوحي من قلبه وعقله معا لكيما تأتي أكثر قوة، وأكبر تأثيراً، تُلقى إلى من أرسلت إليه، ويكون من سحرها الأدبي، وروعتها البيانية الإجابة، وقبول الطلب.

والشفاعة لا تصدر عن أصحاب المواهب المحدودة، فلها أهلها ممن تكاملت فيهم جملة من المحاسن، يبين عن ذلك القلقشندي، يقول: [تصدر غالباً عن ذوى الرتب والأخطار والمنازل والأقدار، الذين يتوسل بجاههم إلى نيل المطلوب، ودرك الرغائب][1].

ومن هؤلاء الذين وصفهم القلقشندي **الحسن بن وهب**، له كتابات تسيل عذوبة، فيها من عناصر التأثير مايكفل لحاملها النجاح، كتب في وصاة: [كتابي إليك معني بمن كتب له، واثق بمن كتب إليه، ولن يضيع بين الثقة والعناية حامله][2] الحسن

---

(١) صبح الأعشى ١٢٧/٩.

(٢) ابن عبد ربه، العقد الفريد ٣١١/٤.

بمهارته اللغوية، وحسه الأدبي، أوجب على صاحبه أن يجيبه إلى ماطلب، لأنه وضع ثقته فيه، ولا أظنه إلا سيثبت بأنه أهل للثقة.

ونجده في رسالة أخرى يبدع في صياغته، ويلح في طلبه الحاح الأديب الآسر، والأريب المتمكن، كتب إلى **مالك بن طوق*** في **أبي الشيص**: [كتابي إليك خططته بيميني، وفرّغت له ذهني، فما ظنك بحاجة هذا موقعها مني، أتراني أقبل العذر فيها، وأقصِّر في الشكر عليها؟ **وابن أبي الشيص** قد عرفته ونسبه وصفاته، ولو كانت أيدينا تنبسط ببره ما عدانا إلى غيرنا، فاكتف بهذا منا][1] بعد أن أبان الحسن أهمية كتابه الذي خطه بيمينه، وأفرغ له ذهنه، كناية عن حرصه وجديته ألمح إلى مبدأ الثواب والعقاب، الثواب في الشكر إن أجاب، والعقاب في عدم الإعذار إن لم يفعل، ولم يشأ الحسن أن يختم رسالته دون استخدام كافة أدواته التأثيرية، فذكر محاسن أبي الشيص للتقريب منه، والترغيب فيه.

وتأتي نهايته لهذه الرسالة آية من آيات الإبداع والجمال الفني حين قال٠٠ فاكتف بهذا منا] إن لها إيحاءآت كثيرة، ودلالات عميقة، فتارة نستشف منها اقتصاد الحسن في ذكر محاسن الرجل ليجعلها مفاجأة سارة **لمالك بن طوق**، وقد نشتم منها رائحة التهديد.

وإذا ما انتقلنا إلى **سعيد بن حميد** – وهو من أصحاب الوجاهة الذين يستشفع بهم أيضاً – نجد له النماذج الجيدة، ينحو فيها منحى **الحسن بن وهب** من ناحية ميله إلى عنصر التأثير، وفن الطلب، وبراعة العرض، كتب إلى أحدهم مستعيناً بهذه الأساليب: [من شكر فقد قضى حق النعمة، واستوجب من المنعم الزيادة، وقد شكر

---

* هو: مالك بن طوق التغلبي، صاحب الرحبة؛ أحد الأشراف والفرسان الأجواد، ولي إمرة دمشق للمتوكل، وهو الذي بنى الرحبة وإليه تنسب، توفي سنة ٢٥٩هـ، الكتبي، فوات الوفيات ٣/٢٣١.

(١) ابن عبد ربه، العقد الفريد ٤/٣١٠، ٣١١.

فلان ماوعدته في حاجته، فاستوجب الإنجاز بالشكر، وكل ما ناله من مرفق وحظ فهما واصلان إلى دونه، فأحب أن يأتي في أمره ما أنت أهله][١] كان التمهيد رائعاً يدل على حنكة **(ابن حميد)** ودهائه، فالشكر عنده يقابل إنجاز الوعد، ثم ختمها بالجملة الأخيرة .. ما أنت أهله، والتي قربت المسافة بين الطلب وبين تحقيقه، فأداء الرسالة كان مبدعاً، إذْ حاصرت المستشفع به حصاراً أدبياً لافكاك منه، وذلك حين جعل أمره في يده، وحكمه على نفسه هو الحكم العدل، فإن أحسن وفادته وأكرمه فهو من أهل ذلك، وإن أساء وبخل فهو من أهل ذلك أيضاً، ولا أحسبه إلا فاعلاً الأولى رغبة، وسيناً بنفسه عن الثانية رهبة.

وعلى هذا النهج تسير شفاعاتهم حاملة بين طياتها معاني كثيرة، يميزها الدفقات الشعورية التي تفيض بها في أداء فني رفيع، ويكون ذلك بتركيز وإيجاز شديدين، كما في الأمثلة السابقة، بل وقد تبلغ حد التعمية من المبالغة في الإيجاز، كتب **سعيد بن حميد** شفاعة كاد أن يختل معناها [لفلان – وله بي حرمة – مظلمة][٢] فالرسالة من كلمتين الأولى في أولها، والثانية في آخرها، وبينهما جملة اعتراضية، ولا أظن المعنى سيظهر بدون الاعتماد على علامتي الاعتراض إلا بعد لأي، يقول القلقشندي مفسراً هذه الرسالة، ولعلها أجهدته [يريد لفلان مظلمة، وله بي حرمة، بمعنى أنه راعى حرمته][٣].

ولم تكن هذه الرسالة فريدة في إيجازها، ولا شاذة في تركيزها، فلها أمثلة أخرى عديدة، تأمل ما كتبه العتابي: [حامل كاتبي إليك أنا، فكن له أنا، والسلام][٤].

---

(١) أحمد صفوت، جمهرة رسائل العرب ٢٥٤/٤.
(٢)،(٣) القلقشندي، صبح الأعشى ٣٥٢/٢.
(٤) ابن عبد ربه، العقد الفريد ٣١١/٤.

فهذا الإيجاز البليغ، والتركيز الشديد قد أغنيا العتابي عن البسط والتحليل، بل لا أخال الإسهاب يعطي هذا الأثر الجميل كما أعطته هذه الكلمات.

على أن الاقتصاد اللغوي هو السمة المشتركة في رسائل الشفاعات عند المترسلين وعند غيرهم من سائر الكتاب، ولعل طبيعة هذا الفن لا تحتمل غير ذلك.

و - العتاب:

رسائل العتاب من حيث الصنعة، وحرارة العاطفة، وصدق الشعور، تـأتي فـي قمة المأثور الخاص، وهي لا تقع إلا بين صديقين حميمين حدث بينهما جفاء لأمر مـن أمـور الدنيـا، فيـأخذ أحدهمـا فـي عتـاب الآخـر بألفـاظ رقيقـة، ومعـانٍ شـريفة، وروح صافية، ونفس متسامحة، يقول على بن عبيـدة الريحـاني:[العتـاب حدائـق المتحـابين، وثمار الأوِداء، ودليل الظن، وحركات الشوق، وراحة الواجد، ولسان المشفق](١).

وللمترسلين في هذا الجانب عطاءٌ جيد، وإبداع مميز، وجُلّ رسـائلهم موجـزة الكلمات، مسهبة المعاني، كتب سعيد بن حميد إلى صديق له [إني صادقت منك جوهر نفسي، فأنا غير محمود على الانقياد لك بغير زمام، لأن النفس يقود بعضها بعضـاً](٢) ومن أسباب الوحشة التي تحدث بين الخليلين انقطاع التواصل بينهمـا، فيُحـدث التبـاعد بين نفسيهما جفاءً أو مايشبه الجفـاء، فيحتـاج الأمـر حينئـذ إلـى تجديـد الإخـاء برسـالة عتاب تفيض بمشاعر الحب، كتب ابن حميد أيضاً [أنـا أتعمـد فـي كتبـي إليـك مـايخف ويسهل عليك، فأمسك عن الكتابة أحياناً بالإبقاء، وأكتب أحياناً لئلا يتوهم علىّ الجفـاء، فإن يجر الأمر عندك فيها هذا المجرى، وإلا فالمُستَعتب قريب، ومتابعـة الكتـب علـىّ سهل ممكن](٣) ومثلها في المعنى قوله: [كتابك ليس من الحق أن أسألكه في كل ما نفذ لي رسـول، ومـن الجفـاء أن أعفيـك منـه فـي كـل وقـت، ولكـن أسـلك بنـا سـبيلا بيـن السبيلين، نخرج نحن وأنت بها من حد المبرمين، وتخرج أنت بها من حد الجفاء](٤).

والتسامح عن الأخطاء، والعفو عنها، من معاني الإنسانية، ومـن قيـم الإسـلام، يُروى بأن **محمد بن حازم*** هجا **سعيد بن حميد** فلـم يـرد عليـه مـع قدرتـه، وأُصيْب

---

(١) الحصري، زهر الآداب ٤٧٦/٢.
(٢) ابن عبد ربه، العقد الفريد ٣٠٨/٤.
(٣) أحمد صفوت، جمهرة رسائل العرب ٢٥٤/٤.
(٤) المرجع السابق ٢٥٣/٤.
* هو: محمد بن حازم الباهلي، ولد بالبصرة، وانتقل إلى بغداد، وكـان حسـن الشـعر، مطبـوع القول، البغدادي. تاريخ بغداد ٢٩٥/٢.

ابن حازم هذا بضائقة مالية، فكتب ابن حميد إليه معاتباً ومعيناً: [ذو الأدب يحمله طرفه على نعت الشئ بغير هيئته، وتبعثه قدرته على وصفه بخلاف حليته، ولم يكن ماشاع من هجائك في جارياً إلا هذا المجرى، وقد بلغني من سوء حالك، وشدة خلتك مالا غضاضة به عليك مع كبر همتك، وعظم نفسك، ونحن شركاء فيما ملكنا، ومتساوون فيما تحت أيدينا، وقد بعثت إليك بما جعلته وإن قل استفتاحاً لما بعده وإن جل][1] فهذه القطعة الفنية على وجازتها إلا انها اشتملت على جملة من القيم الرائعة، زادتها جمالاً إلى جمال فعاتب في رفق وأناة، وسامح مع قدرة وقوة، ثم بذل له معروفه في كرم وسخاء، مع وعد بالمزيد.

وقد يخرج الكاتب عن شاعريته، فيعاتب في قوة، ويلوم في عنف، كما فعل ابن حميد نفسه، كتب: [من قبل عذرك في ترك إجابته فلا قبل الله عذره، ومن حسن أمرك في تركك ابتداءه بالكتاب فلا حسن الله أمره، فإنك الآن بفضل حِذْقك أردتَ أن تجفوني بحجة، وتقصِّر في برِّى، ببرهان قاطع يقوم عند الجاهل - غيرك - مقام المقبول من الأمر، ولكنه إذا تصفحه أهل النظر علموا أنه طَرَف من الحيلة استعملتَه، وطريق من الغدر سلكتَه، والله إن في طمعك فيّ أن أقبلَ إقرارك بالعجز عن إجابتي، لمساومة منك بعقلي، وتشكيكاً لي فيما تحيط به معرفتي، وتُقِرُّ لي بالجهل من حيث شهدت بالعلم لي، وأُبلغ المناقضة مالم تطل فيه المجاذبة، وما استُشهد فيه على المنازع من قوله، وعُدِل على التماس الدليل من جهة تُبْعِد بينه وبين صاحبه، قد صدقت - أعزك الله - في كل ما قدمتَ من الدعوى، وفلجت فيما ذهبت إليه من الحجة، وعجزت بالحقيقة عما انتحلت العجز عنه في الظاهر، فقد كتبتَ إلىّ كتاباً لم تَعْدُ فيه طريق العادة، هو كتابنا، فاكتب الآن الجواب، وأنت محمود، يا صلف، وحسبي معاتبتك، فليس يجب للفارغ أن يكلِّف المشغول النظر في أكثر من هذا المقدار من كتابه فيما لا يجدي، ولا يعود بحظ][2].

---

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان ٣/٧٩، ٨٠.

(٢) أحمد صفوت، جمهرة رسائل العرب ٤/٢٥٤، ٢٥٥.

وأورد العسكري رسالة **للحسن بن وهب** وإن لم ترق في مستواها الفني إلى رسائل **سعيد بن حميد** السابقة، كتب وقد أكثر من المقابلة: [لا ترض لي بيسير البر، فإني لم أرض لك بيسير الشكر، ودع عني مؤونة التقاضي، كما وضعت عنك مؤونة الإلحاح، واحضر من ذكري في قلبك ماهو أكفى من قعودي بصدرك، فإني أحق من فعلت به، كما أنك أحق من فعله بي، وحقق الظن، فليس وراءك مذهب، ولا عنك مقصر][1]

---

(١) الصناعتين ٣٧٤.

ز - الاعتذار والاستعطاف:

وهما مبحثان مستقلان من مقاصد الرسائل الخاصة، وجمعتهما معاً لتشاكلهما في المعنى، واتحادهما في الهدف.

فالصديق - عادة - يبدأ بالاعتذار عن خطأ ما، فإن لم يحقق هدفه، ولم يبلغ الغاية التي قصدها من نفس صاحبه، اتخذ الاستعطاف سبيلاً إلى ذلك، وعليه بلباقة الخطاب، ورشاقة الأسلوب، وجودة المعالجة إذا ما أراد أن يحقق مراميه، ويكون لعمله الأثر الذي يرجوه، يقول الكلاعي في الإبانة عما يجب على كاتب مثل هذه الرسائل أن يأخذ نفسه به: [ومما يجب على الكاتب إذا كتب كتاب اعتذار، أو رسالة استعطاف واستنزال، ألا يصدر بالألفاظ الخشنة، والمعاني القلقة، فإن ذلك إذا كان أول مايقرع السمع، نفرت له النفس، فإذا نفرت النفس لم تستأنس إلا بعد علاج شديد][١] ومنها ما كتبه أبو على البصير إلى صديق له وجد عليه، فخاطبه في انكسار قريب من التذلل، مسجلاً اعترافه بالذنب، وطالباً الصفح، كتب: [النعمة شفيع صدق عند وليها، تقتضيه ربابَتها، والزيادة فيها، والمحافظة عليها، وإرغام أعدائها وحسادها، الملتمسين لإفسادها وإزالتها، والإغضاء على ما يغْضى الحُرُّ على مثله في استتمامها، سيما إذا كانت عند أهلها، وفي موضعها ومحلها، وكان المقلَّد لها من يقوم بشكرها ونشرها، ويشيد بذكرها، ويستفرغ المجهود من نفسه في شكرها، ويعطيها مايجب لها من الاعتراف بها، والانتساب إليها، والمحاماة عليها، وأنا أحد من أسكنته ظلك، وأعلقته حبائلك، وحبوته بلطيف برِّك، وخاص عنايتك، فانتصفتُ بك من الزمان، واستغنيت بك عن الإخوان، فأنا لا أرغب إلا إليك، ولا أعتمد إلا عليك، ولا استنجح طلباً إلا بك، والله أسأل البقاء لك، ودوام عزك وعزنا بك، وحراسة النعمة عندك، وعندنا فيك.

---

(١) إحكام صنعة الكلام، عالم الكتب، بيروت، ط: الثانية، ١٩٨٥م، ص ٢٤٣.

وكان فرط مني قول إن تأولته لي أراك وجه عذري، وقام عندك بحجتي، وأغناني عن توكيد الأيمان على حسن نيتي، وإن تأولته عليّ – وبالله أعوذ من ذلك– ألحق بي لائمتك، وجنى على حالي ومنزلي عندك، وقد أتيتُك معترفاً بالزلّة، مستكيناً للموجدة، عائذاً بالصفح والإقالة، فإن رأيت ألا تُقِرَّ عينا قذيت بنعمتك عندي، ولا تسلبني منها ما ألبستنى، وأن تقتصرَ من عقوبتي على المكروه الذي نابني بسبب عَتْبك، وتأمر بتعريفي من رأيك ما يطامن حشاي، وتسكن إليه نفسي، ويأمن روعي..][1] ويكرر البصير اعتذاره مبدياً أسفه على ماوقع منه عن حسن نية، وسلامة قصد، ويكثر خلاله من الحلف بالله ليبرئ ساحته، يقول: [ذكرت – أعزك الله – في كتابك مايعلم الله اغتمامي به، واستكانتي له، وقلقي عند ماورد عليّ منه، وإكباري قدر البلية به، والمصيبة فيه، والعالم بالسرائر، المطلع على الضمائر، يشهد – وكفى به شهيداً – أني ما أقف على ماذكرتَ، ولا أتوهّمُه، ولا يُومئ لي ظنٌ إليه، وإني لأفكر مذ ورد كتابُك بما ورد به، فما أجد ذكري يحيط بشئٍ منه، وإنّ أقصى حفظي مما كان في ذلك المجلس لغلبةُ السُكر عليّ، ثم خانني فهمي، فما كان بعد ذلك فبغير علمي، ولا قصد مني.

ومما زاد في غمي، وضاعف المكروه عليّ، تحقُّقك للأمر، وهو خَبَرٌ معترض الشكُّ فيه، والبطلان أولى به، حتى ألزمتني إياه، وقرعتني به، كأنه قرع سمعك، فإن ذلك أراني صورة المقت منك لي، والغِلظة علي، والإسراع إلى قبول القبيح المضاف إليّ، ووالله لو واجهتُك على تلك الحال بما أُنْهِيَ إليك – وبالله أعوذ من ذلك فيما بيني وبين من هو دونك عندي من إخواني – لكان فيما أطلعتك عليه العشرةُ الطويلة، والخبرة القديمة، من إجلالي إياك، وخالص محبتي لك، مع ما يضطرني إليه متقدم برِّك وإحسانك، ومرضيّات أخلاقك من البعد بقلبي ولساني من كل ما ساءك، ما يَدُلُّك على أن ما كان من ذلك كان آفةً نالتني في عقلي، ومزاجاً فاسداً رديئاً استولى عليّ. ووالله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة ما كتبت إلا الحقيقة عندي، ولا تحريت

---

(١) أحمد صفوت، جمهرة رسائل العرب ١٤٨/٤، ١٤٩.

زيادة ولا نقصا، فإن تقبل تتخذ بذلك عندي يداً، وتوجب علـيّ شكراً مجدداً، وإن تُقِمْ على موجدتك أقِمْ على تنصفك واستعطافك، والتذلل لك، والتضرع إليك، والتحمل عليك، حتى يعدل حكمك ويفي به كرمُك][١].

وفعلاً فقد أكثر الرجل من التذلل والخنوع والخضوع والخشوع، ولا أرى سحقاً للنفس، وإهانة لها كما فعل البصير بنفسه، ولو حدث ذلك مع خالقه، المنعم عليه، لكانت له العزة والرفعة والمنعة، أما والحال مع غير الله فهو الذل الذي لا يتحرج من الجهر به، والاصرار عليه.

ورغم ذلك كله فلم تحقق رسائله مبتغاها، ولعل (الواجد عليه) لم يحس منها إلا كذباً وبهتانا، لأن من يعامل العبد معاملة خالقه هين عليه أن يفعل مايشاء، كتب أيضا واليأس يكاد يُرى من بين سطوره [قد كنتُ أرجو أن أكون قد أبرأت صدرك، وأن ما كتبتُ به قد أتى من وراء ما في نفسك، فامتحنت ذلك بلزوم منزلي، وحبسي كتبي ورسلي، لأفرق بين رغبتك في قربي وزهدك، ولأرى صورة حالي عندك، فإذا تنصّلي واعتذاري لم يبلغا بي استيجاب رضاك – أطال الله بقاءك –، وإذا أيْماني غير البريّة المصدقة في حديثي إياك، على طول مدة صحبتي لك، دون ما أتحرى الصدق فيه، وأجتهد خَلِفا عليه، إلا أن يكون عن علة عَرَضَتْ لك منعتك مما كنت تتطول به من الأمر بتعرُّف خبري عند انقطاعي عنك، فقدَّم الإشفاق على مكاني منك سوء الظن بصحة عذرك، وسلامة صدرك، وبالله العظيم قسماً ثلاثاً، لا كاذباً ولا حانثاً إني للخالص لك كله، سِرّه وجهره، وغيبه ومشهده، البعيد بقلبه ولسانه مما نُفِثَ في سمعك، ووقر في قلبك، وعلمك بحاجتي إلى حسن رأيك، ودوام الحال عندك، شاهد عدل على صدقي إياك، إن استخبرتَه شفاك، وإن اقتصرت عليه كفاك، هذا إذا كنت لنفسي دون صديقي، ولم أكن أعمل إلا على سوق يومي، ولا أصلح إلا لمن صلُح به معاشي، وكيف وقد علمتَ مجانبتي لهذه الصفة، ودوام عهدي للصديق على

(١) المرجع السابق ٤/١٤٥، ١٤٦.

الحرمان والجفوة، وأنت لا تُعلَّم من جهلٍ بك، ولا تنبّه من غفلة فيك، وليس مثلك من جرح يقينه الظن، ولا أفسدَ الحرَّ عنده العبد، ولو صح مني الذنب إليك لكان الصفح عنى أولى بك، فإن رأيت أن تعود كعهدٍ كان بك، قبل التكذب على عندك، وأن تمن بذلك على من يقدِّم إخاءَك في مودتك، وعَندك في إجلالك وتعظيمك والمسارعة إليك، والطاعة لك، فعلت ذا منة عظيمة إلى منن لك قديمة إن شاء الله، ووهب لي عطفك ورضاك](١).

وإن كان البصير قد امتهن نفسه في اعتذاراته السابقة إلا أن غيره من الكتاب لم يصنع صنيعه، فهذا **سعيد بن حميد** كتب مستعطفاً في لين من غير ضعف، وفي تواضع من غير ذله، وفي عزة من غير إثم، يقول: [وأنا مَنْ لايحاجك عن نفسه، ولا يغالطك عن جرمه، ولا يستدعي برك إلا من طريقته، ولا يستعطفُكَ إلا بالإقرار بالذنب، ولا يستميلك إلا بالاعتراف بالجرم، نَبَتْ بي عنك غِرّة الحداثة، وردتني إليك الحُنكة، وباعدتني منك الثقةُ بالأيام، وقادتني إليك الضرورة، فإن رأيت أن تستعمل الصنيعة بقبول العذر، وتجدد النعمة باطِّراح الحقد، فإن قديم الحرمة، وحديث التوبة يمحقان مابينهما من الإساءة، وإن أيام القدرة وإن طالت قصيرة، والمنعة بها وإن كثرت قليلة، فعلت إن شاء الله تعالى](٢) وأُعجب القلقشندي بهذا الأسلوب الممتع، الذي امتاز بسهولته ومنعته، فقال: [فانظر إلى قوة هذا الكلام في سهولته، وقرب مأخذه، مع بعد تناوله، والاتيان بمشاكله](٣).

ومثله فعل سهل بن هارون، يروي محمد بن زياد الزيادي، قال: وجدتُ على سهل بن هارون في بعض الأمر، فهجوته، فكتب إليّ: [أما بعد: فالسلامُ على عهدك، وداعَ ذي ودٍ ضنين بك، في غير مقلية لك، ولا سلوة عنك، بل استسلام للبلوى في

---

(١) المرجع السابق ١٤٦/٤، ١٤٧.

(٢)،(٣) صبح الأعشى ٢٣٣/٢، ٢٣٤.

أمرك، وإقرارٍ بالعجز عن استعطافك إلى أوانِ فيئتك، أو يجعل الله لنا دولة من رجعتك...][1].

وقد تجد بعض رسائل الاعتذار والاستعطاف قبولاً من (الواجد) واستحساناً، فيكتب بالصفح، كما فعل أبو على البصير، كتب: [بلغني اعتذارك، ووافي مني تطلعاً شديداً إليه، ومكاناً قد قدّمتُ المواطنة له عندي. فسكَّن النُّفْرَةَ، وأذهب الوحشةَ، وجدد عهد المودة، وأوجبتُ لك به التطول والمنّة، واليد المشكورة، ولم أكن كالمتعنت المتسحب الذي يطلبُ العلة، ويغتنم الزّلة، ويَصْدِف عن الحجة، وتضيق عنه المعذرة، وما نظرت لك إلا على نفسي، ولا بدأتُ إلا بحظي فيما استثبتُ من رأيك، وحاميتُ عليه من إخائك، والله أسألُ حسن المدافعة عنك، وامتناعي بما وهب لي منك، والسلام][2].

---

(١) زهر الأداب ٦١٧/٢.

(٢) أحمد صفوت، جمهرة رسائل العرب ١٤٧/٤.

م - الهجاء:

حينما تنطق هذه الكلمة أول ما يتبادر إلى الذهن الهجاء الشعري غير أن هذا المفهوم قد تغير، وهذا الارتباط الدلالي بين الكلمة وبين وظيفتها الأصلية قد تحوّر، فلم يعد الهجاء قصراً على الشعر كما كان في عصور سابقة.

فالعصر العباسي قد أحدث تغييرات مهمة في وظيفة الأدب ووسيلته، ومنها دخول النثر إلى عالم الشعر - كما أثبت ذلك سابقاً -، فنافسه في أغراضه، وزاحمه في مقاصده، فتبادلا الأدوار، وتقاسما التركة، ولكن هل استطاع النثر الفني القيام بهذا الحمل الكبير كما كان يقوم به الشعر؟ ثم ما الاضافات التي وهبها العصر لهذا الغرض في ثوبه الجديد؟ واستقراء النصوص النثرية الهجائية تجيب على هذه التساؤلات، وتؤكد اقتدار النثر ونهوصه بأغراض الشعر، وتفوقه حيناً، وذلك عائد إلى طبيعة النثر، واتساع مساحة القول فيه.

فالكاتب الهجاء يأتي على معانيه، ويتصرف فيها كيفما شاء، لا يردعه إلا نفسه، فإن كانت متسامحة ردته إلى القصد والاتزان، وإن كانت غير ذلك أمرته بفاحش القول، وقالت: هل من مزيد.

وهذا الأفق الواسع الذي أتاحه النثر لخدمة أغراضه، غير ميسر للشعر ولا مهيأ له، فطبيعته تحول بينه وبين اشباع الفكرة، وتقصي عناصر الهجاء.

ثم إن الهجاء النثري لم يقف عند حد حرية التعبير، بل زاد عليها تنوع مقاصده، فهناك الهجاء الصريح وهو المطروق بكثرة في الشعر والنثر، وهناك أيضاً ذم الزمان، ثم يأتي أقذع أنواع الهجاء، وأشدها أثراً وتأثيراً (السخرية والتهكم).

ولعل من المفيد أن نشير إلى أن الهجاء يمثل، رد فعل النفس البشرية لمثير معين، فما هي هذه المثيرات التي أيقظت غرائز الشر في نفوس مترسلى الشعراء؟. وأقول هي المثيرات نفسها عند سائر الشعراء والكتاب الهجائين، فإما أن يكون

الخلاف بين اثنين منهما الداعي إلى هذا السخط، ثم يأتى منع النوال من أصحاب المال لسائليه أهم هذه المثيرات، فينطلق الهجاء يخبط ذات اليمين وذات الشمال، ذاماً لصاحبه، واصفاً إياه بالبخل، وهو لا يرمي باللائمة كلها على غريمه، ولكن إمعاناً في الهجاء يشرك نفسه في الذم أيضاً لأنها قادته بلا وعي إلى من لا يرتجى منهم الخير، وهذا العنصر الهجائي يمثل السوط الذي يلهبون به ظهور الناس، لبالغ تأثيره، وشديد أثره، ولعله من الاضافات الجديدة التي أتاحها العصر العباسي لهذا الغرض وقام بها النثر خير قيام، تأمل ما كتبه أبوالعتاهية في هجاء الفضل بن معن بن زائدة، وكان قد استرفده، وطلب نواله، فرده رداً غير جميل، مما أغضبه، وجعله يكتب إليه بهذه الرسالة:

[أما بعد: فإني توسلت إليك في طلب نائلك بأسباب الأمل، وذرائع الحمد، فراراً من الفقر، ورجاء للغنى، فازددت بهما بُعداً مما فيه تقريب، وقرباً مما فيه تبعدت، وقد قسمت اللائمة بيني وبينك، لأني أخطأتُ في سؤآلك، وأخطأت في منعي، أُمرت باليأس من أهل البخل فسألتهم، ونُهيتَ عن منع أهل الرغبة فمنعتهم، وفي ذلك أقول:

فَررْتُ مِنَ الفقرِ الذي هو مُدْركي
إلى بُخلِ محظور النَّوالِ مَنُوعِ

فأعقبني الحرمانَ غِبَّ مطامعي
كذلكَ من تلقاه غيرَ قنوع

وغيرُ بديعٍ منْعُ ذي البخل مالَهُ
كما بَذْلُ أهلِ الفضل غير بديعِ

إذا أنـتَ كشَّـفتَ الرجـالَ وجدتَهـم

لأعراضِهـم مـن حـافِظٍ ومُضيـع][1]

إن نظرة عجلى إلى نثر هذه الرسالة وشعرها يتبين لنا حجم التأثير ومداه لكل منهما فبينما كان النثر أعمق غوراً، وأبعد أثراً، وأقدر مذهبا في احتواء عناصر الهجاء، كان الشعر في المقابل لحناً بلا روح.

ألا تراه في نثره يعنف نفسه الأمارة بالسوء لأنها قادته إلى مواطن الردى، ولم يستطع الشعر النهوض بهذا العنصر البليغ، وذلك عائد إلى مقدرة كل منهما، فحرية النثر – كما قدمت – حلقت به إلى حيث يريد، والوزن في الشعر حبسه عما يريد.

ولكن رغم ذلك كله فالشعر لايزال له المساحة الكبرى في وجدان العربي وعقله، ليس في العصر العباسى فحسب، بل وفي كل العصور.

وكتب العتابي في هجاء صديق له لسوء معشره، وجفاء طبعه، ويعمد الكاتب هنا إلى لوم نفسه أيضاً لأنها لم تحسن اختيار الصديق، كما لم تحسن نفس أبي العتاهية من قبله انتقاء الكريم، قال: [تأنينا إفاقتك من سَكْرتك، وترقَّبْنا انتباهك من رقدك، وصبرنا على تجرع الغيظ فيك، حتى بان لنا اليأسُ من خيرك، وكشف لنا الصبر عن وجه الغلط فيك، فها أنا قد عرفتك حق معرفتك في تعديك لطورك، واطراحك حق من غلط في اختيارك][2].

---

(١) ابن عبد ربه، العقد الفريد ٣١٩/٤، ٣٢٠؛ التنوخي، لطائف الأخبار، وتذكرة أولى الأبصار ص ٣٠٢.

(٢) ابن عبد ربه، العقد الفريد ٣٢٠/٤.

ولا يقف الكاتب الساخط عند ذم مسترفديه ونفسه وأصحابه، بل يتعدى ذلك حيناً إلى ذم الزمان، فيحمله تبعات ماحل به من ضرر، يقول العتابي في ذلك:

[أما بعد، فإن أحداً ليس بمستخلصٍ شيئاً من غَضَارَة عيش إلا من بين خلال مكاره، فمن انتظر بعاجل الدّرك آجل الاستقصاء، سلَبته الأيام فرصته، لأن من صناعتها السلب، ومن شرط الزمن الإفاتة](١).

ولعل من رسائل الهجاء المقتصدة ما كتبه سعيد بن حميد إلى صديق له، يلومه على خطأ أرتكبه، فنراه يترفق به حيناً، ويقسو عليه حيناً آخر، مبيناً له وجه الخطأ دون إسفاف أو انحطاط؛ فهي هجائية ترقى إلى لغة العتاب العذبة، يقول:

[إن من إمارات الحزم صحة الرأي في الرجل، يترك التماس مالا سبيل إليه، إذا كان ذلك داعية لغنى لا عزّة له، وشقاءً لادَرَك فيه، وقد سمحتَ في أمر تخبُرك أوائله عن أواخره، ويُنْبيك بدؤه عن عواقبه، لو كان لهذا المخبرَ الصادق مستمعٌ حازم. ورأيتُ رائد الهوى قد مال بك إلى هذا الأمر ميلا أيأس من رغبَ فيك، ودل عدوك على معايبك، وكشف له مَقاتلك، ولولا علمي بأن غلط الناصح يؤدي إلى نفع في اعتقاد صواب الرأى لكان غير هذا القول أولى بك، والله يوفقك لما يحب، ويوفق لك ما تحب](٢).

(١) أحمد صفوت، جمهرة رسائل العرب ٣/٣٩٨؛ والحصري، زهر الأداب ٤/١١٤٥، ١١٤٦ مع اختلاف لا يخل بالمعنى.

(٢) ابن عبد ربه، العقد الفريد ٤/٣٢٠، ٣٢١.

السخرية:

وهي تختلف عن الهجاء، والفرق بين الاثنين كبير، فالهاجي – عموماً – يقيم وزناً لعقل المهجو وإنسانيته رغم تتبعه لسقطاته ومعايبه ، إنْ صدقا وإنْ كذباً، وهذا النهج فيه انتقاص، ولكن ليس فيه هدم بالكامل للنفس التي كرمها الله.

بيد أن الساخر، يتلاعب بغريمه كما يفعل الصبية مع دميهم، أي أنه يمسخه، ويحيله إلى كائن غريب، لاعهد لنا به.

وإذا عدنا إلى موروثنا العربي وجدنا الجاحظ – إمام هذا المذهب – يسخر من **أحمد بن عبد الوهاب** ويتندر به، ويضحك منه، ويُضحك الناس عليه، وهو بهذا الأسلوب أفلح إلى حدٍ كبير في النيل من صاحبه، وتفنن في تبديله وتشويهه، وليس من نافلة القول أن أشير إلى أن الاسلام بسماحته وعظمته قد حرم السخرية بنص قرآني، قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم)[١] وهذا التقريع العنيف، والتحريم الصريح، دليل على خطورة هذا السلاح وما يخلفه من آثار مدمرة على المجتمعات والأفراد.

ويمثل هذا الاتجاه عند مترسلي الشعراء أبو على البصير، كتب رسالة طويلة يسخر فيها من أبي العيناء، والراجح أن أبا على البصير نظر إلى رسالة "التربيع والتدوير" وأحدثت فيه أثراً – لعمق معانيها، وسطوتها على تجريد الخصم وتعريته – فأراد أن يقتفي أثرها ليحدث في خصمه ما أحدثه الجاحظ في صاحبه، ولكن هل وفق **أبوعلى البصير** في ذلك كما وفق الجاحظ من قبله؟ وهل استطاع البصير تعميق هجائه بلغة ساخرة مؤثرة كما فعل أستاذه؟ هذا ما نرجئ الحديث عنه في فصل الموازنة – إن شاء الله –.

---

(١) الحجرات ١١، لم يرد تحريم الهجاء في القرآن الكريم، وليس معنى ذلك أنه من المباح، ولكنه أقل خطورة من السخرية.

ولعل استعراض رسالة البصير يبين عن ذلك كله من اللمحة الأولى، كتب.

[من **أبي علي البصير**، ذي البرهان المنير، المبلغ في التحذير، المُعْذِر في النكير، إلى أبي العيناء الضرير، ذي الرأي القصير، والخَطَل الكثير، والإقدام بالتعبير، سلامٌ على المخصوصين بالسلام، من أجل حقيقة الإسلام، المؤمنين بالحلال والحرام والفرائض والأحكام، فإني أحمدُ اللهَ إلى نفسه، وأوليائه من خلقه على ماهداني له من دينه، وعرّفني من حقه، وامتنّ علي به من تصديق رُسُله، والأخذِ بسننه، واتباع سُبله، وصلى الله على محمد نبي الرحمة، الداعي إلى ربه بالحكمة](١).

بدأ الرجل رسالته بتعريف من الراسل إلى المرسل إليه، ومن خلال هذه المقدمة الموجزة يتراءى لنا مضمون الرسالة واتجاهها، فاستهلالها يخبر عن هدفها، ومطلعها ينبئ عن خاتمتها.

ثم أعقب ذلك بتحميد رائع، غير أن فعله يكذب قوله، ونهجه يخالف تحميده، فهو - هنا - يعارض نفسه، إلا إذا كان الهجاء حلالاً، وقذف الناس سنة خيرة، لنستمع إليه.

[أما بعد، فإنك الرجل الدقيقُ حَسَبُه، الردي مذهبه، الدانئُ مكسَبُه، الخسيسُ مطلبه، البذيُّ لسانُه، المقليُّ مكانُه، المبلوُّ به إخوانه، أخصهم بذلك من عظُمت عنده نعمه، وتظاهَرَ إحسانه، قد صيرت القِحَةَ جُنّةً، وشتم الأعراض سُنة، والاقتصاد في ذلك منة، عدوّك بمعزل عنك، وصديقُك على وجل منك، إن شاهدته عافك، وإن غِبت عنه خافك، تسأله فوق الطاقة، وترهقه عند الفاقة، فإن اعتذر إليك لم تعذره، وإن استنظرك لم تنظره، وإن أنعم عليك لم تشكره، لا تزيدك السن إلا نقصاً، ولا يفيدك الغنى إلا حرصا، تسمو إلى الكبير بقدر صغير، وتُسِفُّ إلى الطفيف لا للتخفيف، وتعرض للناس بالسؤآل، غير محتشم من الإملال، ولا كارهٍ أن ينظر إليك

(١) أحمد صفوت، جمهرة رسائل العرب ٤/١٤١.

بالاستقلال، حتى لقد أخرجت الأضغان، وقبّحتَ الإحسان، وزهدت في اصطناع المعروف، وإغاثة الملهوف، وعذرتَ الناس في خلف العدات، ودفع ممكن الحاجات، وأغريتهم ببعض العميان دون أهل العاهات، من أطاعك في ماله حربته، ومن منعك بعذر واضح سببته، إذا عَنّ لك طمع كنتَ عبدَه، بتذلل وتخشع لمن هو عنده، وتنوي قبل احرازه جحده، من أكرمك أهنتَه، وتطاولت عليه، ومن أهانك استكنت له، ولنت في يديه، ومن سالمك لم تسالمه، ومن ناجَزَك لم تقاومه، الناس منك بين أسرار تفشى، وبوائق تخشى، وشفاعاتٍ واردة، ونوادرَ باردة، تدرج كلامك خوفَ التحصيل، وتورّي عن عيّك بالقال والقيل، معاشرتُك متجنبة، وأحاديثُك متكذّبة، لا يُستجنَى بها فهمٌ، ولا يستفاد منها علم، تُهامَس بسقوطها فلا يحشِمك، وتُتَلقّى بالرد لها فلا يُؤلمك، تسمع كلام خيار السلف فتدعيه، إفساداً وإلحاداً فيه، والتماساً لإبطال حجج الدين، وتشكيكاً لأهل البصيرة واليقين، فإن امتحنْتَ بدون ما ادعيت أحجمت وتعاديت، وإن كُلِّفتَ مضاهاتَه هَذَيْت وعويت، ظاهر إسلامك تقيّة، وسريرتُك مدخولةٌ رديّه، تضغث في الخبر عن الرسول، وتدفع المعروف منه بالمجهول، ودُك تخلُّق، وشكرك تملُّق، ولطفك متعسف، وظَرْفك متكلّف، أعظم المصائب عندك نَيْلُ حرمته، لا تحفِلُ مع إدراكه بشئٍ عدمته، إرثك عن أبيك السعاية، ونقل الأخبار والوشاية، لا يُعرف له غيرها طُعْمَه، ولم يكن له إلا بها نعمة، مشهورٌ بذلك في مِصره، غير مرتاب من أمره، ثم أنت تبسُط لسانك في الأحرار، وتتطاول على ذوي المروءآت والأقدار، فلا أصل راسخ، ولا فرع شامخ، ولا نسب معروف، ولا أدب موصوف، أغراك حِلْمُنا [عليك بالتطاول][1] علينا، وإبطاؤنا عنك بالتسرع إلينا، فتأنيناك وراقبناك، واحتججنا عليك [فلم تنكر معتذراً][2] ولم تُقْصِر مُزْدَجِراً، بل لم تجبني عن واحد منها، تعايياً بها، وعجزاً عنها، ثم أوهمتَ أخلاطها من الناس أهلَ جهل بالتمييز والقياس – لا ينظرون بفهم، ولا يحكمون بعلم، ولا يُنْزِلون الأمور منازِلها، ولايعرفون حقها وباطلها، يظنون البلاغة في الهذر، ويكتفون بالمنظر من الخبر – أنك مترفع عن

---

(١)،(٢) مابين القوسين من وضع الأستاذ أحمد صفوت إكمالاً للبياض في أصل المنظوم والمنثور.

جوابي، وغير محتفل بعتابي، ومنّتك نفسك - وقديما ما أغرتك، فجنت عليك وضرّتك - أني أعذرك فيما تركتَ، وأمسِكُ عنك ما أمسكت، وأقِف عند أول هذا الأمر دون آخره، وأكتفي بباطنه من ظاهره، وهيهاتَ لظنّك الكاذب، وتباً لرأيك العازب، كلا والله دون أن أُغصك بالريق، وأضطرك إلى المضيق، وأهدِمَ ما أسستَ، وأكشفَ ما لبّستَ، وأظهر ما جمجمت، وأبطل ما أوهمتَ، وأبين الشريف منك، وأخذّل اللفيفَ عنك، حتى تعود إليّ وتنزِع عن غيك، وتقيم جَوْرَك، ولا تعدو طورك، وحتى تستعطف الناس في حوائجك إليهم، وتدع العنفَ بهم، والتسحب عليهم.

وسيقرأ كتابي هذا الكاتب الأديب، والفقيه اللبيب، والشاعرُ الأريب، والمِصقَع الخطيب، والظريف الممتع، والحصيف المقنع، وكل هؤلاء وكيلي عليك في طلب الجواب، من طريق التطوع والاحتساب، محمودين مأجورين، مسئولين غير مأمورين.

وقد نفذتْ لي إليك رسالةُ العتاب، على مخرج ألفاظ الكتاب، ظلمتُك في المطالبة بالإجابة عنها، وبهظتك بما حملتُك منها، وتناولتك بالشعر، وأنت مُفحم، وأنا لك في ذلك أظلم، وقد ملت إلى السجع على علمي بخساسة حظه، وركاكة معانيه ولفظه، إذ كنتَ تلوي به لسانَك، وتثني إليه عنانَك، قطعاً لحجّتك، وإزاحة لعلتك، فإن أجبتَ فقد كشفتَ لنا مالديك، وإن اعترفت بالعجز عَطّفنا ذلك عليك، والسلام](١).

---

(١) المرجع السابق ٤/١٤١ - ١٤٥.

المبحث الثالث

الرسائل البيانية والرسائل الشعرية

أ – الرسائل البيانية:

الرسائل الرسمية والخاصة نوعان شهرا من قديم، ونبت بجوارهما نوع لا يقل عنهما منزلة، بل هو أعلق منهما بالفن الخالص، وأقرب إلى الإمتاع الفني، أعني الرسائل البيانية.

ولعل النقاد والمهتمين بدراسة النثر عدّوها من مقاصد الرسائل الخاصة، ويرى الباحث بأنها ليست منها، وذلك يعود إلى خصوصية الرسائل الخاصة، في أنها تحبّر إلى شخص بعينه، وتحمل موضوعاً له سمة الاشتراك تجمع كاتبها بمتلقيها، والأمر بخلاف ذلك في الرسائل البيانية، إذْ تمتاز بسمة العمومية، وتهدف إلى إرساء بعض المعتقدات، والدعوة إلى أفكار كاتبها.

ولعلي لا أكون مبالغاً إذا ذكرت بأن رسالة "سهل بن هارون" في تمجيد البخل ومدحه، وذم الكرم وأهله، هي أشهر رسالة في تاريخ النثر الفني، لما حوته من فكر مسموم، ومعان سقيمة، أظهرها الكاتب في صورة الصالح من الأعمال، ذلك بأنه يحيل الكرم إلى سفهٍ، والبذل إلى سرف، وهو حين يقوم بهذا القلب للحقائق، وتحوير الثوابت، لا يفعل ذلك بسطحية الشعوبي الساذج، ولكن بعقلية المجادل المتمكن، إنه يكاد أن يحدث – بفضل بلاغته – إنقلاباً في مفاهيم إسلامية عربية، فتصوير الحق في صورة الباطل، والباطل في صورة الحق، هو هدف الرسالة، ومنتهاها، ويستعين في ذلك كله بما يخدم أهدافه، ويحقق مراميه، من آيات، وأحاديث، وحكم، وآثار مختلفة كثيرة.

وترتكز رسالة سهل بن هارون على عدة محاور رئيسة، يمثل كل محور منها دفاعاً عن جانب من جوانب بخله التي شاعت بين الناس، فلاموه عليها.

ويمكن تقسيمها إلى العناصر التالية:

١ – يخاطب سهل بني عمه من آل راهبون، الذين انتقدوه في مذهبه، وعابوا عليه طريقته، وشنعوا عليه في أقواله وأفعاله، والحق أنها موجهة إلى العرب الذين شهروا بالكرم، لا إلى بني عمه الذين يسايرونه في المذهب والاعتقاد(١)، وبما أنه يعيش بين العرب، وفي كنف الخلفاء والأمراء، لم يجرؤ أن يوجهها إليهم صراحة، ولكنه استلهم المثل العربي القائل: [إياك أعني واسمعي ياجارة](٢) يؤكد هذه الرؤية ماذهب إليه د/ شوقي ضيف، يقول: [توجه سهل بالرسالة في مفتتحها إلى بني عمه من آل راهبون كما قال القدماء، وأكبر الظن أنه قصد جماعة العرب](٣) وهذا الأقرب إلى المنطق، فليس من العقل أن يقف بخيل بين البخلاء يحضهم على الشح الذي هو ديدنهم، وورثهم عن آبائهم.

٢ – أجمل سهل فلسفته في البخل والدفاع عن معتقده في مستهل رسالته، ومن ثم أخذ يلوم من لامه، ويعنف من انتقده، بأسلوب يصل حيناً إلى درجة الهجاء والتقريع، مستعيناً في إثبات فكره وصحته على بعض الآثار الإسلامية، يوظفها بذكاء لخدمة غرضه، وعلى منطقية العقل، في عرض المواقف التي تساند مذهبه.

فنصائحه لهم بإمساك المال والحفاظ عليه لم يكن نهجاً مغايراً لنهجه، ومن هذا المدخل المنطقي يغرى الآخرين بفكره.

يبدأ رسالته بالبسملة والدعاء لهم بالصلاح في إشارة منه إلى انحرافهم عن جادة الصواب، يقول: [بسم الله الرحمن الرحيم: أصلح الله أمركم، وجمع شملكم، وعلمكم الخيرَ، وجعلكم من أهله، قال الأحنف بن قيس: "يامعشر بني تميم لا تُسرعوا

(١) انظر ما كتبه د/ عمر الدقاق في ملامح النثر العباسي ص ٢٠٠ عن بخل الفرس وكرم العرب.

(٢) انظر المثل في: الميداني، مجمع الأمثال، ط: الثالثة، ١٩٧٢م، ١/٤٩؛ الجاحظ ، البرصان والعرجان والعميان والحولان، ت: عبد السلام هارون، ص ٢٩٩.

(٣) الفن ومذاهبه، ص ١٥٠.

إلى الفتنة فإن أسرع الناس إلى القتال أقلُّهم حياءً من الفرار" وقد كانوا يقولون: "وإذا أردت أن ترى العيوب جمة فتأملْ عياباً، فإنه إنما يعيبُ الناس بفضل مافيه من العيب" وأول العيب أن تعيب ماليس بعيب، وقبيحٌ أن تنهى مُرشدا، وأن تُغري بمشفق، وما أردنا بما قلنا إلا هدايتكُم وتقويمكم، وإلا إصلاح فسادكم، وإبقاء النعمة عليكم، ولئن أخطأنا سبيل إرشادكم فما أخطأنا سبيل حسن النية فيما بيننا وبينكم، ثم قد تعلمون أنا ما أوصيناكم إلا بما قد اخترناه لأنفسنا قبلكم، وشُهرنا به في الآفاق دونكم، ثم نقول في ذلك ماقال العبد الصالح لقومه: وما "أريدُ أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب" (١) فما كان أحقكم في تقديم حُرمتنا بكم، أن ترعوا حق قصدنا بذلك إليكم، وتنبيهنا على ما أغفلنا من واجب حقكم، فلا العذر المبسوط بلغتم، ولا بواجب الحرمة قمتم، ولو كان ذكر العيوب براً وفضلاً لرأينا أن في أنفسنا عن ذلك شغلا.

وإن من أعظم الشّقوة، وأبَعد من السعادة، ألا يزال يتذكر زَلَلَ المعلِّمين، ويتناسى سوء استماع المتعلمين، ويستعظم غِلَظَ العاذلين، ولا يَحْفِل بتعمُّد المعذولين](٢).

٣ – ثم يبدأ الكاتب بعد هذا الاجمال في تفنيد المعايب التي حفظوها عنه، بأسلوب قل نظيره، مستشهداً لرأيه بقول عمر بن الخطاب – رضي الله عنه –، يقول: [عبتموني بقولي لخادمي أجيدي عجنه خميراً كما أجَدْتِه فطيراً، ليكون أطيب لطعمه، وأزيد في ريْعه، وقد قال عمر بن الخطاب – رضي الله عنه ورحمه – لأهله: "املكوا العجينَ فإنه أريعُ للطّحين"](٣).

---

(١) هود ٨٨.

(٢) أحمد صفوت، جمهرة رسائل العرب ٣/٣٨٥، ٣٨٦.

(٣) المرجع السابق ٣/ ٣٨٦.

٤ – ثم يورد التهمة الرابعة، ويرد عليها بنظرية اقتصادية جد رائعة، مثّلها بوجوب التوازن بين الماء وأعضاء الجسم عند الوضوء، يقول: [وعبتم علّى قولي: من لم يعرف مواقعَ السرف في الموجود الرخيص، لم يعرف مواقعَ الاقتصاد في الممتنع الغالي، فلقد أوتيتُ من ماء الوضوء بمكيلة يدل حجمها على مبلغ الكفاية، وأشد من الكفاية، فلما صرتُ إلى تفريق أجزائه على الأعضاء، وإلى التوفير عليها من وظيفة الماء، وجدت في الأعضاء فضلاً على الماء، فعلمت أنْ لو كنتُ سلكتُ الاقتصاد في أوائله، ورغبتُ عن التهاون به في ابتدائه، لخرج آخره على كفاية أوّله، ولكان نصيب العضو الأول كنصيب الآخر، فعبتموني بذلك، وشنعتموه بجهدكم وقبحتموه، وقد قال الحسن عند ذكر السرف: "أمَا إنه ليكون في الماعونين: الماء والكلأ" فلم يرضَ بذكر الماء حتى أردفه بالكلأ][(١)] والحق أن الإفراط في الإسراف لايوازيه في القبح إلا التفريط في الشح، وكلاهما منهي عنه عرفاً وشرعاً، فهل كان سهل بعد نظريته في الاقتصاد مقتصداً؟ يجيب عن ذلك الجاحظ يقول: [٠٠ بأنه وأمثاله يسمون البخل إصلاحاً، والشح اقتصاداً][(٢)] ولعل هذا المنطق هو السائد عند البخلاء في كل عصر وزمان.

٥ – وفي المحور الخامس يشك في أمانة أهل بيته، حين حبس عنهم الطعام، وفي تبريره غير المقنع لم يزدنا إلا استقباحاً للبخل وأهله، يقول: [وعبتموني حين ختمت على سد عظيم، وفيه شئ ثمين، من فاكهة نفيسه، ومن رطبة غريبة، على عبدٍ نهم، وصبي جشع، وأمة لكعاء، وزوجة خرقاء، وليس من أصل الأدب، ولا في ترتيب الحِكَم، ولا في عادات القادة، ولا في تدبير السادة، أن يستوي في نفيس المأكول، وغريب المشروب، وثمين الملبوس، وخطير المركوب، والناعم من كل فن، واللباب من كل شكل، التابع والمتبوع، والسيد والمسود، كما لا تستوي مواضِعُهم في المجالس، ومواقع أسمائهم في العنوانات، وما يستقبلون به من التحيات، وكيف وهم لا

(١) المرجع السابق ٣/٣٨٦، ٣٨٧.
(٢) البخلاء ١٢.

يفقدون من ذلك ما يفقد القادر، ولا يكترثون له اكتراث العارف؟ ومن شاء أطعم كلبه الدجاج المسمّن، وعَلَف حماره السمسم المقشر، فعبتموني بالختم، وقد ختم بعض الأئمة على مزود سويق، وختم على كيسٍ فارغ، وقال: "طينةٌ خير من طَيَّه" فأمسكتم عمن ختم على لاشئ، وعبتم من ختم على شئ][1] حينما وصف الرجل ما حبسة عن أهل بيته بالعظيم والثمين والنفيس، تداعى إلى الذهن صورة ذلك الكنز الذي استحق منه كل ذلك الحرص وتلك العناية، وإذا بالرجل يفجأنا – في فكاهة لم يقصدها – ويقفز بنا من علو إلى هاوية، على غير استعداد منا، ويذكر أن ثمينه ونفيسه فاكهة ورطبة، وهذا يثبت أن نفس البخيل موهومة، تصور له الأمور على غير هيئتها، فتكبر الصغير، وتعظم الحقير، وهي مقتنعة بذلك، لا يخامرها الشك في حكمتها وصوابها.

٦ – ثم يورد مأخذاً آخر، ويبين عن خطئه، ويظهر خلله، محتجاً بقول سيد الخلق محمد – صلى الله عليه وسلم –، يقول: [وعبتموني حين قلت للغلام إذا زدْتَ في المرق فزد في الإنضاج، ليجتمع مع التأدُّم باللحم طيب المرق، وقد قال النبي – صلى الله عليه وسلم –: "إذا طبختم لحماً فزيدوا في الماء، فإن لم يُصِبْ أحدكم لحماً أصاب مرقاً"][2].

٧ – وعيب سهل بخصف النعال، وبتصدير القميص، مما جعله يفيض في رد العيب، ويسهب في ذكر فضل ذلك ومنافعه، معتمداً كعادته على جملة من المؤكدات التي تحطب في غرضه، وتعضد مذهبه، وهو لا يقنع بذكر الآثار النقلية، بل ويزيد على ذلك في الاحتكام إلى العقل والمنطق لما يعرضه، حتى ليكاد أن يرغم العايب عليه بالتسليم له، والاقتداء بنهجه، يقول: [وعبتموني بخصف النعال، وبتصدير القميص، وحين زعمت أن المخصوفة من النعل أبقى وأوطأ وأقوى، وأنفى للكبر، وأشبه بالنسك، وأن الترقيع من الحزم، وأن الاجتماع مع الحفظ، وأن التفريق مع

(١) أحمد صفوت، جمهرة رسائل العرب ٣/٣٨٧، ٣٨٨.

(٢) المرجع السابق ٣/٣٨٨.

التضبيع، وقد كان النبي – صلى الله عليه وسلم – يخصف نعله، ويرقع ثوبه، ويلعق أصابعه ويقول: 'لو أتيتُ بذراع لأكلت، ولو دعيت إلى كراع لأجبت' ولقد لفقت سعدى بنت عوف إزار طلحة، وهو جواد قريش، وهو طلحة الفياض، وكان في ثوب عمر رقاع أدَم، وقال: "من لم يستح من الحلال خفت مؤونته وقل كبره"، وقالت الحكماء: "لاجديد لمن لا يلبس الخَلَق" وبعث زياد رجلا يرتاد له محادثا، واشترط على الرائد أن يكون عاقلاً مُسدّداً، فأتاه به موفقاً، فقال: أكنت ذا معرفة به؟ قال: لا ولا رأيته قبل ساعته، قال: أفناقلته الكلام، وفاتحته الأمور قبل أن توصله إليّ؟ قال: لا، قال: فلِمَ اخترتَه على جميع من رأيته؟ قال: يومنا يوم قائظ، ولم أزل أتعرف عقول الناس بطعامهم ولباسهم في مثل هذا اليوم، ورأيت ثياب الناس جددا، وثيابه لُبُسا، فظننت به الحزم، وقد علمنا أن الجديد في موضعه دون الخَلَق، وقد جعل الله عز وجل لكل شيءٍ قَدْرا، وبوّأ له موضعاً، كما جعل لكل دهر رجالا، ولكل مقام مقالا، وقد أحيا الله بالسُّم، وأمات بالغذاء، وأغصّ بالماء، وقتل بالدواء، فترقيع الثوب يجمع مع الإصلاح التواضع، وخلاف ذلك يجمع مع الإسراف التكبُّر، وقد زعموا أن الإصلاح أحد المكسبين، كما زعموا أن قلة العيال أحَدُ اليسارين، وقد جبر الأحنف يد عنزٍ، وأمر بذلك النعمان، وقال عمر: "من أكل بيضة فقد أكل دجاجة" ولبس سالم بن عبدالله جلد أضحيةٍ، وقال رجل لبعض السادة: "أريد أن أهدي إليك دجاجة، فقال: إن كان لابد فاجعلها بيوضاً، وعدّ أبو الدرداء العُراقَ جَزَرَ البهيمة"][1].

٨ – وفي المحور الثامن يتعرض إلى قضية الحرص، وحسبان ما قد تحدثه الأيام من مغيبات الأمور، لذا يوصي بحفظ المال، وبعدم الاغترار عند تقادم العمر، يقول: [وعبتموني حين قلت: لا يغترن أحدكم بطول عمره، وتقوس ظهره، ورقة عظمه، ووهن قوته، وأن يرى نحوه أكثر ذريته فيدعوه ذلك إلى إخراج ماله من يديه، وتحويله إلى ملْك غيره، والى تحكيم السرف فيه، وتسليط الشهوات عليه، فلعّله أن

(١) المرجع السابق ٣/٣٨٨، ٣٨٩.

يكون مُعمراً وهو لا يدري، وممدوداً له في السن وهو لا يشعر، ولعله أن يرزق الولد على اليأس، أو يحدث عليه بعض مخبّآت الدهور، مما لا يخطر على البال، ولا تدركه العقول، فيسترده ممن لا يرده، ويظهر الشكوى إلى من لا يرحمه، أضعفَ ما كان عن الطلب، وأقبح مايكون به الكسب، فعبتموني بذلك، وقد قال عمرو بن العاص: "اعمل لدنياك عمل من يعيش أبداً، وأعمل لآخرتك عمل من يموت غداً"][1].

٩ – ثم يناقش دواعي السرف وأسبابه، وما يقابل ذلك من دواعي حفظ المال، والابقاء عليه،يقول: [وعبتموني حين زعمت أن السرف والتبذير إلى مال القمار، ومال الميراث، وإلى مال الالتقاط وحباء الملوك، أسرع، وأن الحفظ إلى المال المكتسب، والغنى المجتلب، وإلى مالا يعرض فيه لذهاب الدين، واهتضام العرض، ونَصَب البدن، واهتمام القلب، أسرع، وإن من لم يحسُب ذهاب نفقته لم يحسب دخله، ومن لم يحسب الدخل فقد أضاع الأصل، وإن من لم يعرف للغنى قدرَه، فقد أوذن بالفقر، وطاب نفساً بالذل][2] وهذه حقيقة لاشك فيها، فما يأتي بسهولة لم يصاحبه كد أو تعب يذهب كما أتى، والواقع المعاش يُصدق قوله هذا.

غير أن مسألة السرف نسبية تتفاوت أحكام الناس فيها، فما يراه سهل سرفاً وتبذيراً قد يكون خلاف ذلك، لأنه إنما يصدر في أحكامه من واقع نفسه الشحيحة.

١٠ – ثم يبحث الكاتب أصل المشكلة، ويلامس موضع الداء، حين تعرض لقضية كسب المال، وشرعية ذلك، ومؤدى الكسب حلالاً أو حراماً، يقول: [وعبتموني بأن قلت: إن كَسْبَ الحلال يضمن الإنفاق في الحلال، وإن الخبيث ينزع إلى الخبيث، وإن الطيب يدعو إلى الطيب، وأن الإنفاق في الهوى حجابٌ دون الحقوق، وأن الإنفاق في الحقوق حجابٌ دون الهوى، فعبتم عليّ هذا القول، وقد قال معاوية: "لم أر تبذيراً قط إلا وإلى جانبه حق مضيَّع" وقد قال الحسن: "إذا أردتم أن تعرفوا من أين

---

(١) المرجع السابق ٣/٣٩٠.

(٢) المرجع السابق ٣/٣٩٠، ٣٩١.

أصاب الرجل ماله فانظروا في أي شئٍ ينفقه؟ فإن الخبيث إنما ينفق في السَّرف"][١].

ومن عجب أن **سهل بن هارون** لا يتحدث إلا عن أضرار الإسراف، ومردوده السيئ، ويتغافل عن الشح، وما يجر إليه من مهلكات، بيد أن الكثير من الآيات[٢] تناولت كلتا الرذيلتين معاً، وأبانت عن ضررهما، وحذرت من مغبة الوقوع فيها، أو في إحداهما كل ذلك بتوازن بليغ، وأسلوب رفيع.

١١ – ويظهر الكاتب نفسه في صورة الخبير العالم ببواطن الأمور، والمشفق على قومه، الخائف على أموالهم من التلف والضياع، لتهاونهم في جانبين: الحرص، والانفاق، وإن كنا نوافقه في توخي الحرص حفاظاً على المال إلا أننا لا نوافقه على الشح، يقول: [وقلت لكم: بالشفقة مني عليكم، وبحسن النظر مني لكم، وبحفظكم لآبائكم، ولما يجب في جواركم، وفي ممالحتكم، وملابستكم، وأنتم في دار الآفات، والجوائحُ غير مأمونات، فإن أحاطت بمال أحدكم آفةٌ لم يرجع إلى بقية، فأحرزوا النعمة باختلاف الأمكنة، فإن البلية لا تجري في الجميع إلا بموت الجميع، وقد قال عمر – رضي الله عنه – في العبد والأمة والشاة والبعير، وفي الشئ الحقير اليسير: "فرقوا بين المنايا، واجعلوا الرأس رأسين" وقال **ابن سيرين** لبعض البحريين: كيف تصنعون بأموالكم؟ قالوا: نفرقها في السفن، فإن عطب بعضٌ سلم بعض، ولولا أن السلامة أكثر لما حملنا خزائننا في البحر، قال ابن سيرين: تحسبها خرقاء وهي صناع.

وعبتموني بأن قلت لكم عند إشفاقي عليكم: إن للغنى لسكرا، وإن للمال لنزوة، فمن لم يحفظ الغنى من سكر الغنى فقد أضاعه، ومن لم يرتبط المال بخوف الفقر فقد أهمله، فعبتموني بذلك، وقد قال زيد بن جبلة: ليس أحد أقصر عقلاً من غنيٍّ أمِنَ

---

(١) المرجع السابق ٣/٣٩١.

(٢) قال تعالى " ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسورا" الإسراء ٢٩.

الفقر، وسكر الغنى أشد من سكر الخمر، وقلتم: قد لزم الحث على الحقوق، والتزهيد في الفضول، حتى صار يستعمل ذلك في أشعاره بعد رسائله، وفي خطبه بعد سائر كلامه، وقد قال الشاعر في **يحيى بن خالد البرمكي**:

عـدوٌ تـلادِ المـال فيمـا يَنوبُـه   منُـوعٌ إذا مـا منْعـهُ كـان أحْزَمَـا

وقال محمد بن زياد:

وخَليقتـانِ: تُقـى وفضـلُ تحـرُّمٍ   وإهانَـةٌ فـي حقِّـه للمـال][١]

إن الخوف من الفقر عند بذل المال لمستحقيه هو سوء ظن بالله، وهو مايدعو إليه سهل صراحة.

١٢ – وعندما قارن سهل بين العلم والمال من حيث الأفضلية، قدم المال على العلم، وكان فعله هذا موضع نقد عليه، وسخرية منه، وهو لا يعجز لتبرير موقفه، وفلسفة رؤيته، حتى تبدو في صورة الصواب، وإن لم تكن كذلك، يقول: [وعبتموني حين زعمت أني أقدّم المال على العلم، لأن المال به يفاد العلم، وبه تقوم النفوس قبل أن تعرف فضلَ العلم، فهو أصل، والأصل أحق بالتفضيل من الفرع، وأني قلت: إن كنا نستبين الأمور بالنفوس، فإنا بالكفاية نستبين، وبالخلة نعمى، وقلتم كيف تقول هذا؟ وقد قيل لرئيس الحكماء، ومقدم الأدباء: العلماء أفضل أم الأغنياء؟ قال: بل العلماء، قيل: فما بال العلماء يأتون بابَ الأغنياء أكثر مما يأتي الأغنياء العلماء؟ قال: لمعرفة العلماء بفضل الغنى، ولجهل الأغنياء بفضل العلم، فقلت: حالهما هي القاضية بينهما، وكيف يستوي شئ تُرى حاجة الجميع إليه، وشئ يغني بعضهم فيه عن بعض؟][١] وفلسفة سهل في هذا الجانب لم تكن مقنعة، وتعليله واستنتاجه لم يكن ذا بال، لأن المسألة واضحة ولا تحتاج إلى كثير جدال. ثم إن المال ليس أصلاً وليس العلم فرعاً، لأن لكلٍ منهما اتجاهاً يغاير صاحبه، وقلما اجتمع المال والعلم معاً، وفي مقارنة عقدها

---

(١) المرجع السابق ٣/٣٩٢، ٣٩٣.

علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – بين العلم والمال، نجده ينتصر للعلم ويقدمه على المال بحجج قوية، وكلام لا يطرقه الشك، وبين الرجلين فرق وأي فرق، فعلي أكثر تقوى من سهل، وأندى يدا، وأمكن في البلاغة، يقول: [.. العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو على الإنفاق، وضيعِ المال يزول بزواله][١] ويقول [.. معرفة العلم دين يدان به، به يكسب الإنسان الطاعة في حياته، وجميل الأحدوثة بعد وفاته، والعلم حاكم، والمال محكوم عليه][٢] ويزيد على ذلك: [هلك خزان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون مابقي الدهر..][٣].

١٣ – ويستجمع سهل قواه، ويستهلم كثيراً من التراث عند ختامه لهذه الرسالة، ويطيل التحليل، ويكثر التعليل، مبرزاً مقدرته في الكتابة، وقدرته في الدعوة لمذهبه، بإقناع حيناً، وبغير ذلك أحياناً كثيرة، وهو في جُلّ دفاعه المستميت لا يخلو من تمحل ظاهر، وتكلف مكشوف، يقول في إسهاب: [وعبتموني حين قلت: إن فضل الغنى على القوت إنما هو كفضل الآلة تكون في الدار: إن احتيجَ إليها استعملت، وإن استغني عنها كانت عدة، وقد قال **الحصين بن المنذر**: وددت أن لي مِثلَ أحُد ذهبا لا أنتفع منه بشيءٍ، قيل: فما ينفعك من ذلك؟ قال: لكثرة من كان يخدمني عليه، لأن المال مخدوم، وقد قال بعض الحكماء: "عليك بطلب الغنى فلو لم يكن لك فيه إلا أنه عِزٌ في قلبك، وذلٌ في قلب عدوك، لكان الحظ فيه جسيما، والنفع عظيماً" ولسنا ندع سيرة الأنبياء، وتعليم الخلفاء، وتأديب الحكماء، لأصحاب الأهواء. كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يأمر الأغنياء باتخاذ الغنم، والفقراء باتخاذ الدجاج، وقال: "دِرْهمك لمعاشك، ودينك لمعادك" فقسَّموا الأمور كلها على الدين والدنيا، ثم جعلوا أحد قِسْمَي الجميع الدرهم.

---

(١)، (٢)،(٣) الشريف الرضي، ت: محمد أبوالفضل، نهج البلاغة، ٢/٣٤٠، ٣٤١.

وقال أبوبكر الصديق رضي اللـه عنـه: "إنـي لأبغـض أهـل بيـت ينفقـون نفقـة الأيام في اليوم الواحد" وكانوا يبغضون أهل البيت اللَّحمين، وكان هشام يقـول: "ضـع الدرهم على الدرهم يكون مالا" ونهى أبوالأسود الدؤلي وكان حكيما أديباً، وداهيا أريباً عن جودكم هذا المولد، وعن كرمكم هذا المستحدث، فقال لابنه: "إذا بسط الله لك فـي الرزق فابسط، وإذا قبض فاقبض، ولا تجاود الله فإن الله أجـود منـك" وقـال: "درهـم من حلٍ يخرج في حق، خير من عشـرة آلاف قبضـا" وتلقـط عُرُنـداً مـن بريـم فقـال: تضيِّعون مثل هذا وهو قـوت امـرئ مسلم يومـاً إلـى الليـل! وتلقـط أبوالـدرداء حبـات حنطة فنهاه بعـض المسـرفين، فقـال: "لِيهـن ابـن العبسـية أن مَرْفَقـة المـرء رفقـه فـي معيشته" فلستم عليّ تـردُّون، ولا رأيـي تفنِّـدون، فقدمـوا النظـر قبـل العـزم، وتذكـروا مـاعليكم قبـل أن تذكـروا مـالكم والسـلام عليكم"[١]. والتمحـل الـذي أشـرت إليـه يبـدو واضحاً في كثير من مواقفـه الضعيفـة، والتـي لـم يزدهـا تمحلـه إلا وهنـاً، فاستشـهاده بأحاديث المصطفى – صلى الله عليه وسلم – وآثار صحابته، لم تخدم أغراضـه، كمـا ظن، لأنهم أجـواد كـرام، بيـد أن اسـتعانته بـأقوال مـن هـم علـى شـاكلته مـن مشـاهير البخـلاء مثل أبي الأسود الدولي كان يعضد فكره ويؤيده.

وبعد:

فالبخل يمثل حالة مرضية، والبخيل ذاته قد يستشعر حقيقة المرض فـي داخلـه لذا نراه يكره أن يوسم بذلك، ويأنف منه، هذا فضلاً عن السوي من الناس، **وسهل بـن هـارون** – مـع علمـه الـذي لايُنكـر، ومنزلتـه التـي لا تجحـد – يمثـل هـذه الحالـة فـي مراحلها المتقدمة، وأوضاعهـا المزمنـة، وموضعـه مـن البخـلاء عامـة شـبيه بموضـع الرأس من الجســد، ذلك أنه نصب نفسه منافحاً عنهم،، ومدافعاً عن سلوكهم، ومبرراً

(١) أحمد صفوت، جمهرة رسـائل العـرب ٣٨٥/٣ – ٣٩٤، الجـاحظ، البخـلاء ٢١ – ٢٩، د/كمال البازجي، الأساليب الأدبية في النثر العربي القديم، دار الجيل، ط: الأولى، ١٩٨٦م، ص ٧٠ – ٧٢.

لكل مايقومون به من نقائص.

وهو فوق هذا وذاك فيلسوفهم الذي يتلمس أماكن الخلل فيسدها، ويبرز خصالهم – إن كان لهم – فينشرها، حتى يكون مذهبهم مشاعاً بين سائر الناس، وكأني به لم يكتف بما هو فيه فأراد لغيره أن يكون مثله بخلاً وشحاً وتقتيراً، ولا أجد تعبيراً يفي بالرد عليه، ولا أسلوباً يغنى بالمعنى، ولا أبلغ من قوله تعالى: " الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله واعتدنا للكافرين عذاباً مهينا"[١]. وقوله: "الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ومن يتولّ فإن الله هو الغني الحميد"[٢] وقوله تعالى: "... يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون"[٣].

وكأن هذه الآيات المحكمات أنزلت للرد على رسالة سهل، التي بالغ في طولها، وتكلف في اطنابها، فجاءت هذه الآيات الموجزات قاطعة للشك، مظهرة للحق، ناسفة لفكر الرجل كله، ومبطلة لهذه الرسالة من أساسها.

الرسالة في ميزان النقد، وصداها

هذه الرسالة التي جاءت على غير مثال، والتى تنال من قيمة شريفة، وتحط من خلق كريم، مامثلها إلا كوردة جميلة لا رائحة لها، أو كريحان غض ريحه طيب وطعمه مر علقم، فكأن انفصال القيمة الخلقية عن القيمة الفنية خلل مابعده خلل، والنقاد قدامى[٤] ومحدثين يأنفون من الألفاظ الشريفة التي تحمل معاني خسيسة.

---

(١) النساء ٣٧.

(٢) الحديد ٢٤.

(٣) التوبة ٦٧.

(٤) راجع: ابن طباطبا، عيار الشعر، ص ٤٦؛ ود/ محمد بن مريسي، الاتجاه الأخلاقي في النقد العربي، مطبوعات نادي مكة الأدبي ١٩٨٩م، ود/ سعيد حسين منصور، القيم الخلقية في الخطابة، ط: الثانية، ١٣٩٩.

وهو حين حبرها وأرسلها **للحسن بن سهل** كان يظن - وبعض الظن إثم - أنها ستجد وقعاً طيباً، وقبولاً حسناً من لدن الحسن، وما جعله يفرط في تفاؤله اتحاد الرجلين **(سهل والحسن)** في النسب، واجتماعهما في الأرومة، ونسي بأن الحسن قد تعرب وتخلق بأخلاقهم، وبخاصة في الكرم، فقد كان نادرة زمانه كرماً وعطاءً، ومآل كثير من الشعراء والكتاب، وأهل الحاجات.

ومن عجب أنه كان يطمع في جائزة سنية، وكرم حاتمي على ماسطره، يمتدح البخلاء وطريقتهم، ويسفه الكرماء ونهجهم، ويبتغي العطاء، وهو التناقض الذي أوقع نفسه فيه، لذا كان ثواب رسالته قراءتها، والتصديق لما جاء فيها[1]، جزاء من جنس العمل..

ويمكن أن نقول أخيراً أن هذه القطعة الفنية بارعة البيان، وهي لبيانها توشك

---

(١) يروي الأصبهاني، في محاضرات الأدباء ص ١٢٥، ١٢٦ قوله: عمل سهل بن هارون كتاباً في مدح البخل وأهداه إلى الحسن بن سهل، وطلب منه ثواباً، فوقع على ظهره: [قد جعلنا ثوابك ما حسنته وأمرت به].
وقيل: [صنف سهل بن هارون كتاباً يمدح البخل، ويذم الجود، ليظهر قدرته على البلاغة، ثم أهداه للحسن بن سهل في وزارته للمأمون، واستماحه، فكتب له: لقد مدحت ما ذمه الله، وحسنت ما قبحه الله، وما يقوم صلاح لفظك بطلاح معناك، وقد جعلنا ثواب مدحك قبول قولك فيه، فما نعطيك شيئا.
انظر: الحصري، زهر الآداب ٨٨٨/٣؛ الكتبي، فوات الوفيات ٨٥/٢؛ أحمد صفوت، جمهرة رسائل العرب ٣٩٦/٤، ٣٩٧؛ ابن نباته، سرح العيون ١٦٦؛ ويروي النديم في الفهرست ص ١٣٣ قوله: [وكان سهل بن هارون نهاية في البخل، عمل إلى الحسن بن سهل رسالة يمدح فيها البخل، ويرغبه فيه، ويستميحه في خلال ذلك، فأجابه الحسن على ظهر رسالته: "وصلت رسالتك، ووقفنا على نصيحتك، وقد جعلنا المكافأة عنها القبول منك، والتصديق لك، والسلام" ولم يصله بشئ].
وعلى الرغم من اختلاف الصياغة في المراجع السابقة إلاّ أنها أجمعت على الحرمان الذي استحقه سهل بهذا العمل.

أن تقنع قارئها في بعض المواطن، وتقرب أن تهز الثوابت، وصدق العتابي حين قال في حد البلاغة [البلاغة إظهار ماغمض من الحق، وتصوير الباطل في صورة الحق][(١)] وهذه النظرية جسدتها رسالة سهل بكل معانيها، ولكنها لم تنل من ثوابت الأمة وإن حاول الرجل قدر ماوسعته المحاولة.

---

(١) ابن عبد ربه، العقد الفريد ٢/١٢٣؛ الجاحظ، البيان والتبيين ١/٢٢٠.

ب - الرسائل الشعرية:

إن الترف الذي عاشه العباسيون، وبخاصة أهل المواهب، رمى بظلاله، وعم خيره أنواع الفنون، ومختلف العلوم، وأصبح الرقي الفكري والحضاري سمة العصر العباسي، وقبلة أمم الأرض آنذاك، ومن ضمن ابداعاتهم الكثيرة ما أحدثوه في موروثهم الأكبر الشعر، إذْ لم يكتفوا بوظيفته السابقة في الإنشاد، ولكن أحالوه إلى رسائل تقوم مقام النثر الفني، وتؤدي دوره.

وهذا الازدواج في الأداء، وتبادل الوظائف بين الشعر والنثر كان من ثمرات المبدعين، وخاصة مترسلي الشعراء، فلهم يعود الفضل في هذه النقلة الفنية، لازدواجية الشخصية الأدبية عندهم.

وإذا ما تأملنا فيما سجله التاريخ الأدبي من مكاتباتهم الشعرية، ألفيناها لا تختلف في كثير عن مكاتباتهم النثرية، فلا أثر للتكلف فيها، وهي أبعد ما تكون عن الصنعة، قد تحلت بجمال الطبع ورونقه، تلذ بها الأسماع، وترتاح لها النفوس.

فألفاظها مألوفة في غير ابتذال، وجزلة في غير إغراب، ولعل كل ذلك يعود كما يذكر ابن رشيق إلى أنهم يكتبون الشعر مخيرين لا عن رغبة ولا رهبة، يقول: [وليس يلزم الكاتب أن يجاري الشاعر في أحكام صنعة الشعر، لرغبة الكاتب في حلاوة الألفاظ وطيرانها، وقلة الكلفة، والإتيان بما يخف على النفس منها، وأيضاً فإن أكثر أشعارهم إنما يأتي تظرفاً، لا عن رغبة ولا رهبة، فهم مطلقون مخلون في شهواتهم، مسامحون في مذهبهم إذ كانوا إنما يصنعون الشعر تخيراً واستظرافاً ... لذا لا يحاسبون فيها محاسبة الشاعر المبرز الذي الشعر صناعته، والمديح بضاعته][(١)].

ويكرر ابن رشيق - في موضع آخر من كتابه - إعجابه الشديد، وتعلقه بشعر الكتاب، وتفضيله على شعر الشعراء الخلص، يقول: [والكتاب أرق الناس في الشعر

---

(١) العمدة ٢/١٠٩، ١١٠.

طبعاً، وأملحهم تصنيفاً، وأحلاهم ألفاظاً، وألطفهم معاني، وأقدرهم على تصرف، وأبعدهم من تكلف][١] وهذه الآراء النقدية قصد بها – على وجه الخصوص – نتاج مترسلي الكتاب الشعري، ممن أجادوا الفنين – الشعر والكتابة – يؤكد ذلك رأي إمام من كبار أدباء العربية الجاحظ، يقول: [طلبت علم الشعر عند الأصمعي فوجدته لا يحسن إلا غريبه، فرجعت إلى الأخفش فوجدته لا يتقن إلا إعرابه، فعطفت على أبي عبيدة فوجدته لا ينقل إلا ما أتصل بالأخبار، وتعلق بالأيام والأنساب، فلم أظفر بما أردت إلا عند الكتاب، **كالحسن بن وهب، ومحمد بن عبد الملك الزيات**][٢].

وابن وهب وابن الزيات يمثلان نهج هذه المدرسة المميزة، ويعتبران ممن شيدوا بنيانها مع نخبة من المبدعين.

وبين الرجلين (ابن وهب وابن الزيات) روابط وثيقة من الصداقة، يحكي ذلك ما أثر عنهما من مكاتبات شعرية، تعالج مواضيع الجد تارة، والهزل في كثير من الأحيان، بأسلوب لا يخلو من ظرف وطرافة غالباً، منها ما رواه الأصبهاني يقول: [إعتل الحسن بن وهب، فتأخر عنه محمد بن عبد الملك أياماً كثيرة، فلم يأته رسولُه، ولا تعرف خبره، فكتب إليه الحسن:

أيُّهذا الوزيرُ أيَّدك اللـ ... ـهُ وأبقاك لي بقاءً طويلاً

أجميلا تراه يا أكرمَ النا ... س لكيما أراه أيضا جميلا

إنني قد أقمتُ عشراً عليلا ... ما ترى مرسِلا إليَّ رسولا

إن يكن موجب التعمد في الصحـ ... ـة منّا عليَّ منكَ طويلا

فهو أولى ياسيدَ الناس بِراً ... وافتقاداً لمن يكون عليلا

فلماذا تركتني غُرضةَ الظن ... من الحاسدينَ جيلا فجيلا؟

---

(١) المصدر السابق ٢/١٠٦.

(٢) المصدر السابق ٢/١٠٥.

أَلِذَنْبٍ فما علمتُ سوى الشكـ ـــر قريناً لنيتي ودَخِيلا؟
أم ملالٍ ، فما علمتك للصا حبِ مثلي على الزمانِ مَلولا؟
قد أتى اللهُ بالشفاء فما أعـ ـرفُ مما أنكرتَ إلا قليلا
وأكلتُ الدُّرّاج وهو غِذَاءٌ أَقْلَتْ علّتي عليه أفولا
بعد ما كنتُ قد حملتُ من العلـ ـةِ عِبْئاً على الطِّباع ثقيلا
ولعلِّي قَدِمتُ قبلَك آتيـ ـكَ غداً إن وجدتُ فيه سَبيلا

فأجابه محمد بن عبد الملك الزيات:

دفع اللهُ عنكَ نائبةَ الدَّهـ ـرِ وحاشاكَ أن تكونَ عَليلا
أُشهِدُ اللهَ ما علمتُ وماذا كَ من العُذرِ جائزاً مقبولا
ولعَمري أن لو علمتُ فلا زمتُـ ـك حولاً لكان عِندي قليلا
إنني أرتَجي وإن لم يكنْ ما كان مما نَقَمتُ إلا جليلا
أن أكونَ الذي إذا أضمر الإخـ ـلاصَ لم يلتمِسْ عليه كفيلا
ثم لا يبذُلُ المودَّةَ حتى يجعلَ الجهدَ دُونها مَبذولا
فإذا قال كانَ ما قال إذْ كا نَ بعيداً من طبعه أن يقولا
فاجعلَنْ لي إلى التعلُّق بالعُذْ رِ سبيلا إن لم أجدْ لي سِبيلا

فقديمـاً مـا جـادَ بـالصفح والعفـــ ـــوِ ومـا سـامحَ الخليلُ الخليـلا][(١)]

ومثلها في جمال الصياغة، وطرافة المعالجة، ما كتبه محمد بن عبد الملك الزيات إلى الحسن بن وهب وقد تأخر عنه.

قـالوا جفـاكَ فـلا عهـدٌ ولا خـبرٌ مـاذا تـراه دهـاه قلـت: أيلـولُ

شـهر تجَدُّ حبـالُ الوصـل فيـه فمـا عقدٌ مـن الوصـل إلا وهـو محلـولُ

وكان محمد قد ندبه لأن يخرج في أمر مهم، فأجابه الحسن

إنـي بحـولِ امـرىء أعليـتَ رتبتَـه فحظُّـه منـكَ تعظيـم وتبجيـلُ

وأنـت عُدّتـه فـي نَيـل هِمّتـه وأنـت فـي كـلِّ مـا يهـواه مـأمولُ

مـا غـالني عنـك أيلـولٌ بلذَّتـهِ وطيبـه ولنعـمَ الشـهرُ أيلـولُ

الليـلُ لا قِصَـرٌ فيـه ولا طـولُ والجو صافٍ، وظهر الكأس مَرْحولُ

والعـود مسـتنطَقٌ عـن كـل معجبـةٍ يُضْحى بها كـلُّ قلـب وهـو مَبْتـولُ

لكـن توقُّـعُ وشْـك البيـن عـن بلـدٍ تحلُّـه فوكـاءُ العيـن محلـولُ

مـالي إذا شـمّرتْ بـي عنـك مبتكِـراً دُهـمُ البغـال أو الهـوجُ المراسـيلُ

إلا رعايـاتُك اللاتـي يعـودُ بهـا حدُّ الحوادثِ عني وهـو مغلـولُ][(٢)]

---

(١) الأغاني ٢٣/ ٦٣ – ٦٥.

(٢) المصدر السابق ٢٣/٦٥.

وعلى هذا النحو يتواصل الإبداع الفني بينهما، تنطلق أقلامهم بالتعبير عما تجيش به مكنونات أنفسهم في حرية الأديب، ولهو العابث، يقولون في كل ما يعن لهم من غير تحفظ أو مداراة، يروي الأصبهاني أيضاً، يقول: [دعا محمد بن عبد الملك قبل وزارته الحسن بن وهب في آخر أيام المأمون، فجاءه ودخلا حماماً له، وأقاما على لهوهما، ثم طُلِبَ الحسن بن وهب لعمل احتيج فيه إليه، فمضى، وبطل يومهم فكتب الحسن إليه:

سقياً لنَضِرِ الوجهِ بَسّامِهِ ... مُهذَّبِ الأخلاقِ قَمقامِهِ

تكسبه شُكراً على أنها ... مُطبقةُ السِّن لِلوّامِهِ

زُرْناه في يوم علا قدرُه ... من سائر الأيام في عامِهِ

أسعده الله وأحظى به ... وجاده الغيث بإرهامِهِ

فكان مسروراً بنا باذلاً ... لرحْلِهِ الرحبِ وحمَّامِهِ

نخدمه وهو لنا خادم ... بفضله من دون خُدّامِهِ

ثم سقانا قَهوةً لم يدَعْ ... أطيبَ منها بقُرى شامِهِ

صهباء دَلّتْ على دَنِّها ... وحدّثَتْ عن ضعف إسلامِهِ

فأجابه محمد بن عبد الملك:

وزائرٍ لذَّ لنا يومُهُ ... لو ساعد الدهرُ بإتمامِهِ

ماذا لقينا من دواوينه ... وخطّه فيها بأقلامِهِ؟

أســـرّ مـــا كنّـــا فمـــن مـــازحٍ   أو شـــارب قـــد عَـــبَّ فـــي جامِـــه

فارقنـــــا فــــالنَّفس مطروقـــــة   بواكــــف الدَّمـــــع وســــجَّامه

وعـــــاد بــــالمدح لنـــــا منعِمـــــاً   بـــــه إلـــــى ســـالف إنعامِـــــه

ليــت – وأنّـــى لـــي بهـــا مُنْيـــةً –   لـــو كنـــت فيـــه بعـــضَ قُوَّامِـــهِ

يشـــــكر مانـــــال علـــــى أنـــــه   لا يُشـــــكرُ الحـــــرُّ لحمَّامِـــــهِ

أمســـــحه فيـــــه وأدنـــــو لـــــه   مـــن خلفـــه طـــوراً وقدّامِـــهِ

جعلـــت نفســـي جُنَّـــة للصَّبـــا   وبعـــت إســـلامي بإســـلامِهِ

فصـــار مـــا يشـــرب حِـــلا لـــه   وصـــرت مـــأخوذاً بآثامِـــهِ][1]

والإغراق في اللذه، واتباع الهوى، من السمات التي تجمع الرجلين، وتقرب بينهما، وهما لا يكتفيان بإشباع الشهوة الحسية تستراً، ولكنهما يأبيان إلا نشرها، فتسير بها الركبان كما في الأمثلة المضروبة سابقاً، وكما في رواية الأصبهاني عنهما، يقول: [طلب محمد بن عبد الملك الزيات الحسن بن وهب، وكان قد اصطبح مع بنان، فكتب إليه:

ياسيدي، أنا في مجلس بهي، وطعام هني، وشراب شهي، وغناء رضي، أفأتحول عنه إلى كدّ الشقي، ووثبت بنان لتقوم، فردها وكتب:

مابـــانَ عنـــكَ الـــذي يِنـــــ   ـــتَ عنـــه لا عـــاشَ بَعْـــدكْ

---

(١) المصدر السابق ٢٣/٦٧، ٦٨.

إن لـــم يكـــن عنـــده الصـــــ ... بـــــرُ والسُّـــــلوُّ فعنـــــدَكْ

ومـــــــا وجدتَـــــــــه إلاّ ... عبـــــدَ الرجـــــاء وعبـــــدَكْ

فاستلبها الرسول، ومضى بها إلى محمد، فكتب:

أبـــــا علـــــي أراك الإلـــــه فـــــي الأمـــــر رشـــــدك

إن لـــم تكـــن عنـــدي اليـــو ... مَ كنـــتُ بالشـــوق عنـــدَكْ

فـــــاهدم مَحَلـــــك عنـــــدي ... واجهـــــد لذلـــــك جهـــــدَكْ

فلســـــــــــــت ازدادُ إلا ... رعايـــــــــةً لـــــــــك وُدَّكْ

وانْعَـــم بمـــن قُلـــتَ فيهـــا ... وأطلَـــعَ اللـــه سَـــعدكْ][1]

ومن الرسائل الشعرية التي تحمل معاني شريفة، لاعبث فيها ولا مجون، ما كتبه الحسن بن وهب إلى ابن الزيات وهو يومئذ وزير، يعتذر فيها عن تأخره، كتب:

أوجـبَ العـذرَ فـي تراخـي اللقـاء ... مـا توالـىَ مـن هـذه الأنـواءِ

لسـت أدري مـاذا أقـولُ وأشـكو ... مـن سـماءٍ تعوقنـي عـن سـماءِ

غير أنـي أدعـو علـى تلـكَ بالثكـ ... ـلِ وأدعـو لهـذه بالبقـاءِ

فسـلام الإلـه أُهديـه غضًـا ... لـك منـي ياسـيِّد الـوزراءِ][1]

---

(١) المصدر السابق ٢٣/١٠٤، ١٠٥.

(٢) المصدر السابق ٢٣/٦٣، ابن عبد ربه في العقد الفريد ٣/١٤٣، ٤/٣١٠ قدم البيت الرابع=

وهذه العلاقة الحميمة بين الأديبين قد آل بها الزمان إلى جفاء وغلظة، حدث هذا بعد أن سجن ابن الزيات سليمان بن وهب أخا الحسن.

وكانت عزة نفس الحسن تأبى عليه أن يتوسط لأخيه عند صديقه القديم ابن الزيات، هذا ما ترويه كتب التاريخ، ولو أنني لا أستبعد أن يكون قد حاول قدر ما وسعته المحاولة لإخراج أخيه من سجنه، غير أن جهده باء بالفشل، وحظي بالخسران، ولم يتبق له بعد ذلك إلا أن يعزيه، ويحثه على فضيلة الصبر، كتب:

مِحَنٌ أبا أيوب أنت محلّها — فإذا جزعت من الخطوب فمن لها

إن الذي عقد الذي انعقدت به — عُقَد المكاره فيك يحسن حلّها

فاصبر فإن الله يعقب فرجة — ولعلّها أن تنجلي ولعلّها

وعسى تكون قريبة من حيث لا — ترجو وتمحو عن جديدك ذلّها][1]

وكتب الحسن أيضاً إلى أخيه في سجنه رسالة شعرية لم تكن كسابقتها تحمل قوة النفس وجلدها، ولكنها كانت رائعة لما جسدته من معاناة كاتبها وتجربته، فالحسن لم ينشئها عن وعي العقل فقط، ولكنه صاغها بروحه الملتهبة، ونفسه المكلومة أيضاً، فترك لقلمه ترجمة ماكان يعتلج في دخيلته، فشكى همه، وبث حزنه، وجعلنا نشاركه في آلامه وآماله يقول:

= على الثالث، وانظر: الثعالبي أحسن ماسمعت، ت: محمد ابراهيم سليم، دار الطلائع ص٤٨. مع بعض التقديم والتأخير في أبياتها؛ والثعالبي، خاص الخاص ص ١٢٥، ١٢٦.

(١) التنوخي، الفرج بعد الشدة ١٨٦/١، ١٨٧؛ في وفيات الأعيان ٣٦٧/١ رويت باختلاف شديد نصه:

أصبر أبا أيوب صبراً يرتضى — فإذا عجزت عن الخطوب فمن لها

الله يفرج بعد ضيق كربها — ولعلها أن تنجلي ولعلها

خليليَّ مــن عبـدِ المــدان تروّحــا ونُصّــا صـدورَ العيـس حَسْرى وطلَّحــا

فــإن ســليمان بــن وهـــب بيلــدةٍ أصــابَ صميــمَ القلــب منّــي فأقْرحــا

أُســـائلُ عنــه الحارســينَ لحبســه إذا مــا أتونــي: كيـف أمسـى وأصبحـا

فـلا يُهنـئ الأعـداءَ أسْـرُ ابــن حُــرّةٍ يــراه العِـدا أنــدى يمينــاً وأسـمحا

وأنهــضَ للأمــر الجليـــل بعَزمَــةٍ وأقرعَ للبــاب الأصــمِّ وأفتحـا](١)

وإذا ما انتقلنا إلى علم آخر من أعلام المترسلين الشعراء، وجدنا سعيد بن حميد يقف في الطليعة، وله مع فضل الشاعرة تواصل وحب، يحكي ذلك ما حفظه التاريخ الأدبي له من مكاتبات شعرية، تعبر عن أحوال الحبيبين، وأطوار العلائق بينهمــا، مـن شـوق وود، وهجر ووصال، ثم يأس وفراق، يروي الأصبهاني – صــاحب الاختصـاص فـي هذا الجانب – يقول: [كان سعيد بن حميد في مجلس الحسن بن مُخلّد، إذ جـاءه الغـلام برقعة فضل الشاعرة، تشكو فيها شدة شـوقها، فقرأهـا وضحـك، وقـال لـه الحسـن بـن مخلد: بحياتي عليك أقرئنيها، فدفعها إليه فقرأها وضحك، وقال له: قد وحيـاتي ملحـت فأجب، فكتب إليها:

يـاواصفَ الشـوق عنـدي مـن شـواهده قلــبٌ يهيــم وعيــنٌ دَمعُهــا يكِــفُ

والنَّفــسُ شـــاهدةٌ بـــالوُدّ عارفـــةٌ وأنفُــسُ النــاس بـــالأهواء تـــأتلفُ

فكـــن علـــى ثِقَـــةٍ مِنِّـــى وبينـــةٍ إنّي على ثقةٍ من كل مـا تصِفُ](٢)

(١) الأغاني ٩٦/٢٣، و ٩٨.
(٢) المصدر السابق ١٦٤/١٨.

وتغاضب معها أياماً ثم اشتاق إليها، فكتب:

تعـــالَيْ نُجـــدِّدُ عَهْــدَ الرِّضـــا ... ونَصفَـح فـي الحُـبِّ عمَّـا مَضَـى
ونجـري علـى سُـنَّةِ العاشـقين ... ونضمَـنُ عنـي وعنـكِ الرِّضـا
ويبـذُل هـذا لهـذا هـواهُ ... ويَصْبِـر فـي حُبِّـه للقضـا
ونخضـع ذلاً خضـوع العبيـد ... لمولـى عزيـز إذا أعرضـا
فـإنّي مُـذْ لَـجَّ هـذا العِتَـابُ ... كـأنِّيَ أبطنْـتُ جَمْـرَ الغَضَـى](1)

ولعل الهجر والوصال عند العاشقين لذة في ذاتها، فالوصال في علاقتهما نهاية إلى هجر، والهجر بداية إلى وصال، وفي أثناء هذا النشاط يتولد الشوق والعتاب، كتب إليها:

يـا أيّهـا الظـالم مـالِي ولـكْ ... أهكـذا تهجـر مَـنْ واصلـكْ؟
لا تصـرفِ الرحمـةَ عـن أهلهـا ... قد يَعطِفُ المولـى علـى مـنْ ملـكْ
ظلمـتَ نفسـاً فيـك عُلِّقْتَهـا ... فـدار بـالظُّلم علـيّ الفلَـكْ
تبـاركَ اللـهُ فمـا أعلـمَ اللـ ... ـه بمـا ألقـى، ومـا أغفلـكْ](2)

على أن سعيد بن حميد لم يحتمل منها مواصلة بعض أعدائه، فهجرها مدة، فكتبت إليه

---

(١) المصدر السابق ١٨/١٦٠.
(٢) المصدر السابق ١٨/١٦٣.

تعاتبه وتتشوقه، فكتب إليها - مبدياً تذمره واستياءه من خلقها، زيادة على يأسه من صلاحها:-

أمري وأمرُك شيءٌ غير مُتَّفقٍ   والهجر أفضل من وصلٍ على مَلَقٍ

لا أكْذِبُ اللهَ، ما نفسي بساليةٍ   ولا خليقةُ أهل الغدرِ من خُلقي

فإن وثقتِ بُودٍّ كنتُ أبذُله   فعاودي سوءَ ظن بي ولا تثقي][١]

وقد تخرج الرسالة الشعرية عن هذا الدور الحالم المغرق في (الرومانسية) - على ندرة - إلى أدوار أخرى بعيدة عن الغراميات وتبعاتها من شوق وودّ، ولهفة إلى لقاء.

[يُروى أن أبا هذيل العلاف المتكلم المعروف طلب من سهل بن هارون رقعة إلى الحسن بن سهل يوصيه به، فكتب إليه كتاباً وذهب به إلى الحسن، فلما فضه أغرق في الضحك، إذ وجد فيه هذه الأبيات

إن الضمير - إذا سألتُك حاجة   لأبي الهذيل - خلاف ما أُبدي

فامنحه روحَ اليأس ثم أمدد له   حبل الرجاء بمخلف الوعد

حتى اذا طالت شقاوة جده   وعنائه فاجبه بالرد

وإن استطعت له المضرة فاجتهد   فيما يضر بأبلغ الجهد

فلما راجعه أبوالهذيل قال له: أين عزب عنك الفهم؟ أما سمعت قولي: إن الضمير خلاف ما أبدي؟ فلو لم يكن ضميري الخير ماقلت هذا][٢]

---

(١) المصدر السابق ١٨/١٦٢.

(٢) ابن نباته، سرح العيون ص ١٣٨، الثعالبي، عبد الملك بن محمد، ثمار القلوب في المضاف =

ومدار المعنى في هذه الأبيات يكمن في الجملة الاعتراضية – إذا سألتك حاجة– وما بعدها، وتلتها الأبيات الأخرى تؤيِّد المعنى وتؤكده.

والسخرية بادية على معالم الرسالة كلها، تتراءى لنا في المفردات قبل التراكيب، لذا كانت الغرابة أشد، والحيرة أعظم في انطلائها على أبي الهذيل وهو المتكلم المعروف، ثم مالبث أن حملها على علاتها، ووضعها في يد الوزير (الحسن ابن سهل) غير مكترث بما حوته من خير له، أو شر عليه.

وقد تنتقل الرسالة الشعرية من السخرية إلى عنصر شبيهٍ به، وقريب منه، ألا وهو الاستهزاء كما فعل سعيد بن حميد حين كتب إلى أبي هفان، يستهزيء بتوعده:

أمسَى يُخَوِّفني العَبْديُّ صولتَه ... وكيف آمَنُ بأسَ الضيغم الهَصِرِ

من ليس يُحرزُني من سيفهِ أجلي ... وليس يمنعني من كيده حذري

ولا أبارزُه بالأمر يكرهُه ... ولو أُعِنْتُ بأنصارٍ من الغِيَرِ

له سهامٌ بلا ريشٍ ولا عقَبٍ ... وقَوْسُه أبداً عُطْلٌ من الوترِ

وكيف آمنُ من نحري له غَرَضٌ ... وسهمُه صائبٌ يَخْفَى عن البصر؟][1]

وهذه الرسائل التي استعرضناها تمثل الاتجاه الخاص، الذي يدور بين الأصدقاء، وخاصة الخلان، وما قد يعتري هذه العلاقة من أطوار الحياة، يتراسلون بالشعر عوضاً عن النثر، لأن طبيعة الصلة بينهم تقبل ذلك، وتستملحه، وقد يحدث شذوذ على

= والمنسوب، دار نهضة مصر، ١٩٦٥م، ص ١٣٢؛ المرتضى العلوي علي بن الحسين، أماليه غرر الفوائد ودرر القلائد، ت: محمد أبوالفضل، عيسى البابي، ط: الأولى ١٩٥٤م، ١/١٨٢.

(١) الأغاني ١٨/١٦٤، ١٦٥، جمهرة رسائل العرب ٤/٢٤٩، ٢٥٠.

هذه القاعدة، ويخاطب الخليفة ذاته بالشعر، كما فعل الحسن بن وهب حين بعث إلى المتوكل بجام من ذهب فيه ألفا مثقال من العنبر وكتب اليه:

يا إمام الهدى سعدت من الدهـــ	ـــر بركن من الإله عزيز
وبظلٍ من النعيم مديد	وبحرزٍ من الليالي حريز
لاتزال ألف حجة مهرجان	أنت تفضي به إلى النيروز
ونعيم ألذ من نظر المعـــ	ـــشوق بعد نبوة ونسور][1]

وبعد: فإن هذا المبحث أفضى بنا إلى نتيجة مهمة، ذلك أن التعبير عن خلجات النفس بواسطة الشعر من كتاب امتهنوا الكتابة، وبرعوا فيها، دليل يرتقي إلى درجة اليقين يثبت أن الشعر فارس لكل زمان، لم يترجل عن قلوب الناس، حتى في زمن الكتابة، ودولة الكتاب وما أوردته هنا لا يمثل المأثور الكامل لمترسلي الشعراء، ولكنه يشير إلى أهم الاتجاهات التي طرقوها، ولعلها تشي إلى ما وراءها من روائع ما أبدعوه[2].

---

(١) الجاحظ، المحاسن والاضداد ص ٢٣٨، ٢٣٩.

(٢) انظر : إلى رسائلهم الشعرية في الأغاني ١٥٨/١٨، ١٦١، ١٦٢؛ وجمهرة رسائل العرب ٢٤٧/٤، ٢٤٨؛ وتاريخ بغداد ١٢٣/١٩؛ ومحاضرات في الخليل في الإنشاء العربي ٨٠.

الفصل الثاني:

التوقيعات والأقوال

المبحث الأول: التوقيعات

أ – التوقيع النثري.

ب – التوقيع الشعري.

جـ – التوقيع المزوج.

المبحث الثاني: قطوف من أقوال المترسلين من الشعراء في:

أ – الكتابة وصناعتها.

ب – المناظرات.

جـ – التحليل النفسي.

د – الفكاهة.

هـ – الحكمة.

المبحث الأول

التوقيعات

بعد أن ألقى الباحث الضوء على الرسائل، آن له أن ينتقل إلى فن قريب منه، هو فن التوقيعات، وهذا الاتصال بينهما مرده يعود إلى أن التوقيعات ماهي إلا تعليقات لما يرد في تلك الرسائل، واجابات عنها، يقول القلقشندي [أما التوقيع فهو الكتابة على الرقاع والقصص بما يعتمده الكاتب من أمر الولايات والمكاتبات في الأمور المتعلقة بالمملكة، والتحدث في المظالم٠٠][١].

وتعود نشأتها إلى بدايات العصر الإسلامي، فقد أورد صاحب[٢] العقد الفريد بعض توقيعات الصحابة – رضوان الله عليهم – غير أنها لم تكن شائعة في مكاتباتهم آنذاك، كما هي في العهد العباسي، ولعل السبب يعود إلى استغنائهم بالخطابة عن النثر الفني عموماً، فالمجتمع الإسلامي في بداياته كان يغلب عليه الأمية الكتابية.

ثم أخذت تساير التطور النسبي في العصر الأموي، حتى إذا ما وصلت إلى العصر العباسي كانت البيئة العلمية في استقبالها، والاحتفاء بها، وأخذتها إلى أبعاد أخرى، وأطوار جديدة، لا تمت إلى وظيفة التوقيع الأساسي بصلة، وسنرى ذلك في الصفحات القليلة القادمة – إن شاء الله – وكانت هذه النقلة تمثل الترف الأدبي تبعاً للترف المادي الذي عاشه أدباء العصر، فانعكس على الحياة الأدبية، ومنها هذا الفن.

ماهيته وصاحبه:

التوقيع له أهمية قصوى، وأثر خطير في رسم سياسة الدولة الإدارية،

---

(١) صبح الأعشى ١/١٤٥، ١٤٦.

(٢) ابن عبد ربه ٤/٤٨٧ تحت باب (توقيعات للصحابة).

والتنظيمية، وهو يوازي في زمننا اليوم "المراسيم الملكية، والتعليمات الجمهورية"، وتهدف في عمومها إلى الاصلاحات، وهذه وظيفة التوقيع الرسمية، يقول القلقشندي: [والتوقيع أمر جليل، ومنصب حفيل، إذْ هو سبيل الإطلاق والمنع والوصل والقطع، والولاية والعزل إلى غير ذلك من الأمور المهمات، والمتعلقات السنية][١] ولما كان شأنه بهذا القدر من الأهمية، ومتعلقه شئون الدولة كان من الطبيعي أن يلي أمره بادئ الأمر أعلى سلطة في الدولة (الخليفة) يقول القلقشندي: [وأعلم أن التوقيع كان يتولاه في ابتداء الأمر الخلفاء، فكان الخليفة هو الذي يوقع في الأمور السلطانية، وفصل المظالم وغيرهما ..][٢] وكأن القلقشندي بكلامه الأخير يشير إلى تعذر قيام الخليفة بهذا الأمر بعد اتساع الدولة، وكثرة الأعباء، وتنوعها، والحاجة إلى مختصين من أصحاب المواهب يلون أمرها يكون لهم من شرف المنزلة، ورجاحة العقل، وبلاغة الكلم مايلون أمراً كان يتولاه الخليفة بمفرده، وليس معنى ذلك إغفال الخليفة له تماماً، لأنا وجدنا الرشيد على سبيل المثال يوقع في بعض الأمور المهمة، التي رأى ضرورة أن يقوم بها دون غيره[٣].

وإذا رددنا الطرف إلى نتاج مترسلي الشعراء في هذا الجانب، فإنا نجده ضرباً من الفن الخالص، أخصب بلاغة، وأبرع بياناً، وأعلق بالأدب، ذلك أن توقيعاتهم لم تأخذ المنحنى الرسمي – كما ألمحنا آنفاً – من أمر ونهي، وقطع ووصل وما إلى ذلك من مهام التوقيع، ووظائفه الأصلية، بل أطلقوا أقلامهم حرة للتعبير عما تكنه أنفسهم من شاعرية، وتجيش به من إبداع حقيقي، ساعد على ذلك أنهم لم يلوا مراكز سياسية ذات بال عدا ابن الزيات، ولعل هذا من حسن الطالع إذْ نهضوا بهذا الفن وأخرجوه من أطواره التقليدية، ورسومه المتعارف عليها إلى

---

(١) صبح الأعشى ١/١٤٥، ١٤٦.

(٢) السابق نفسه.

(٣) انظر توقيعاته في توسلات البرامكة، وفي مقتل جعفر بن يحيى: ابن عبد ربه، العقد الفريد ٥/٣٢٨، ٣٢٩؛ وابن قتيبة، الإمامة والسياسة، دار المعرفة، بيروت ٢/١٧٢؛ أحمد صفوت، جمهرة رسائل العرب ٣/١٩٤.

مايمكن أن نسميه بالتوقيعات البيانية الخاصة، على مثال الرسائل الخاصة، فالرسالة في أصل نشأتها كانت رسمية ومن ثم أصبحت أشكالاً مختلفة، وفنوناً متباينة، ومثلها في النشأة والتطور التوقيع.

وعلى كلٍ فهذا التحديث من جانب المترسلين الشعراء، ومن تبع نهجهم لم ينل الرضا من النقاد والمهتمين بدراسة النثر الفني– كما جرت العادة مع كل جديد –، وآية ذلك تحديد ابن درستوية لما يجب أن يكون عليه التوقيع حين قال: [وأعلم أن التوقيع إنما هو أمر ونهي، فالواجب أن يجري مجراهما لاغير][١] ولعله فطن إلى خروج التوقيعات عن أهدافها الأساسية إلى أهداف أخرى امتاعية، فكان نكرانه على الوضع الجديد، وثورته عليه.

ويمكن لنا تقسيم مأثور مترسلي الشعراء في هذا الفن إلى ثلاثة أقسام:

أ – التوقيع النثري. ب – التوقيع الشعري. جـ – التوقيع الممزوج.

أ – **التوقيع النثري:**

وهو أساس هذا الفن وأصله، لذا رأيت أن ابدأ به، فالخلفاء، وولاة الأمر كانوا يعمدون إلى النثر في توقيعاتهم، حتى وصل إلى أيدي الأدباء المتأنقين بعد ذلك، فأحالوه إلى ميدان للإبداع الفني، وأخذ الكتاب يتسابقون في الإتيان بتوقيعات متميزة، فلجأ كثير منهم إلى الشعر كما سنرى ذلك – إن شاء الله – لاحقاً، ومن هذه التوقيعات المنثورة ما كتبه محمد بن عبد الملك الزيات إلى رجل طلب جواره، فأجابه بقوله: [الجوار للحيطان، والتعطف للنسوان][٢] ليس من شك في أن هذا التوقيع يحمل على وجازته الشديدة أبعاد شخصية ابن الزيات، تلك الشخصية

---

(١) كتاب الكتاب، دار الكتب الثقافية، الكويت، ١٩٧٧م، ص ١٥٦.

(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان ١٠٢/٥؛ في محاضرات الأدباء ٢١٥ وقع ابن الزيات [الجوار بين الحيطان، والرحمة من أخلاق الصبيان].

المتجبرة القاسية، البعيدة عن الذوق، كان من الهين أن يرفض جواره بلطف، وكان من اليسير أن يتجاهله تماماً، أما هذا الصد المؤلم، والجواب القاسي، فهو الجفاء حين يتأصل في النفس فيصبح سمة لا فكاك منها، ورمزاً خالداً للقسوة، ومثلاً يضرب به، لقد تحدث المؤرخون كثيراً عن الرجل وجفاء طبعه، وهذا الأثر يؤكد ذلك لأنه انعكاس نفسه على مأثوره الأدبي.

وإذا كان توقيع ابن الزيات السابق لم يتجاوز الأربع كلمات، فإن ذلك يمثل الاتجاه الطبيعي لهذا الفن الذي يجنح إلى الاقتصاد اللغوي البليغ، وهذه السمة هي التي تميز التوقيع عن غيره، ولأن لكل قاعدة شواذاً، فقد نرى توقيعات أكثر طولاً وإن لم تبلغ حد الإسهاب، كتب العتابي إلى صديق له: [إن أقل من بلائك عندي يستغرق ثنائي، وأقل من تأميلي إياك يُعفِّي على ماكان مني، وليس لك – مع فضلك ورجائي تجاوزك – سبيلٌ إلى قطيعتي][(١)] إن هذا التوقيع يمثل الرؤية الجديدة، والتوظيف الحديث لهذا الفن – والذي أشرنا إليه سابقاً – فلم يرد فيه أمر أو نهي أو غير ذلك من مهام التوقيع التي ذكرها القلقشندي، بل كان عملاً رائعاً لخلوصه من قيود الرسمية إلى تحرر الأدب وإبداعه، هو كما ترى عتاب رقيق صاغه العتابي بروح الشاعر، وعقل الكاتب، فجاء موحياً عن حالة نفسه، ناطقاً بمشاعره، بلغة تلذ الأسماع، وتطرب النفوس.

وكتب أيضاً إلى بعض أهل السلطان: [أما بعد: فإن سحاب وعدك قد أبرقت، فليكن وبلُها سالماً من علل المطل والسلام][(٢)] من المؤكد أن الأسلوب الذي استعان به الرجل في عمله هذا كان مؤثراً للغاية، ومعبراً عن فطنته وقدرته، فلم يطلب من صاحبه الإيفاء بوعده في جفاء، بل ولم يلجأ إلى العتاب واللوم، وأكثر من ذلك أنه لم يصرح بما يريد، فكان ذكياً جداً حين اختار التعريض مذهباً له وطريقاً إلى عقل صاحبه وقلبه، وبه استطاع أن يدرج فيه الكثير من عناصر التأثير، فذكره بوعده، واستعجله بالوفاء، كل ذلك بوميض لغوي يخلب الألباب،

---

(١) أحمد صفوت، جمهرة رسائل العرب ٣/٤٠٠.

(٢) ابن عبدربه، العقد الفريد ١/٢١٠.

ويثير الإعجاب، ويعجل بالجائزة.

ب - **التوقيع الشعري:**

إن التوقيع ببيت من الشعر أوأكثر إتجاه ألفناه من بعض الكتاب الشعراء المقتدرين، فهو ميدان فسيح يتنافس فيه أرباب البيان، وفرسان الكلام، ومنه مايرويه الأصبهاني يقول: [كتب رجل إلى الحسن بن وهب يستمنحه فوقع في رقعته:

الجود طبعي ولكن ليس لي مالٌ فكيف يحتالُ من بالرهن يحتال](١)

فهل كان رد الحسن على من طلب منه العون مقنعاً؟ أقول نعم، لقد أحسن الحسن في إجابته، ولعله قد أثار عاطفة شجية ربطته مع مسترفده، إنه احتال في العطاء فلم يسعفه احتياله، لا لبخل تكنفه، أو شح داخله، فالجود من طبائعه، واتلاف المال من عوائده، ولكنه مفتقر إلى المال كسائله، فكيف يعطي الإنسان شيئاً يفتقده؟

وقد تتحسن أحواله قليلاً، فيكون عطاؤه بقدر ذلك التحسن، يروي ابن عبدربه عن الحسن أيضاً، يقول: [استبطأ حبيب الطائي الحسن بن وهب في عده وعدها إياه، فكتب إليه أبياتاً يستعجله بها، فبعث إليه الحسن بألف درهم، وكتب:

أعْجَلْتَنا فأتاكَ عاجلُ برِّنا قلا ولو أخّرتَهُ لم يَقْلِل

فخُذ القليلَ وكن كمن لم يَسْأل ونكون نحنُ كأننا لم نفعل](٢)

إن اعتذار الحسن لصاحبه أجمل من عطائه، فهو عطاء خلص من مكدراته، فلا مَن صَاحَبه، ولا أذى لحقه، والقليل في هذا المقام كثير، لأنه خلا من ذل السؤآل، ومهانة الرد أيضاً (... وكن كمن لم يسأل) فهو عرض كريم، فالقليل النقي خير من الكثير المدنس، هذا يقابل ذاك، وهو المكسب المادي والمعنوي للسائل.

---

(١) الأصبهاني، الأغاني ٩٩/٢٣.

(٢) العقد الفريد ٢٠٨/١.

جـ - التوقيع الممزوج:

إن المزاوجة بين فني القول - الشعر والنثر - في الرسائل نهج مطروق عند الكثير من الكتاب، والأمر بخلاف ذلك في التوقيعات، لأن من أبرز سماتها الإيجاز، فطبيعتها إذن تحول بينها وبين هذه المزاوجة، وإن حدث هذا فإن التوقيع سيفقد سمة الإيجاز التي شهر بها، ويستعيض عنها بالافتنان في غير اطناب كبير، وهو فوق هذا وذاك نادر الحدوث وكل نادر - من هذا النوع - ثمين وقيم، تأمل توقيع العتابي إلى رجل قضى له بعض حاجته وماطله في بعض، فكتب [أما بعد: قد تركتني منتظراً لرفدك، وصاحب الحاجة محتاج إلى نعم هنيئة أولا مريحة، والعذر الجميل أحسن من المطل الطويل، وقد كتبت:

بَسَطتَ لساني ثم أوثقتَ نصفَهُ ... فنصف لساني بامتداحِكَ مطلق

فإن أنت لم تنجز عداتي تركتني ... وباقي لسانِ الشكر باليأس موثق](١)

وهذا التوقيع من العتابي ليس رداً على طلب، بل هو متابعة وإلحاح من الطالب وهو العتابي نفسه، ولعل هذا دليل على أن التوقيعات لم تعد كلها رداً وتعليقاً على الرسائل، بل أصبحت فناً مستقلاً.

والكاتب هنا أبلغ صاحبه إلى أن الجزاء من جنس العمل، فإن هو أطلق يده بالعطاء أطلق العتابي لسانه بالثناء، هذه تقابل تلك، فالمسألة عنده أخذ وعطاء، قانون التوازن الدنيوي.

ومن التوقيعات الأدبية ما سطره العتابي إلى صديق له، كتب: [إما أن تقر بذنبك فيكون إقرارك حجةً علينا في العفو عنك، وإلا فطب نفساً بالانتصاف منك، فإن الشاعر يقول:

---

(١) الجاحظ، المحاسن والأضداد ١٨؛ البيهقي، المحاسن والمساوئ ٤٤٢.

أقـرر بذنبـك ثـم اطلـب تجاوُزنَـا عنـه فـإن جحـود الذنـب ذنبـان][1]

وبعد: إن ما أوردته من فن التوقيعات لا يمثل إلا النزر القليل مما انتجته قرائحهم، وسطرته أقلامهم، فإين ذهب مأثورهم؟ وأقول إن ما أنتجوه وأندادهم كان مادة شهية التهمها غول الزمان، وطواها في عالم النسيان، فأصبحت نسياً منسياً.

(١) الأصبهاني، الأغاني ١٣/١١٥.

المبحث الثاني

الأقوال

إن القول فن رائع من فنون النثر المعروفة، ولا نعني به كل قول، ولكن المقصود ذلك الذي يهتم بالافتتان، ويقصد إلى إثارة العاطفة والعقل، بفضل صياغته المحكمة.

وللمترسلين في هذا الجانب مأثور لا يقل إبداعاً عما سطروه في جوانب أخرى سابقة، ويضرب بجذوره في الكثير من مناحي الحياة وشئونها، ولعلي أبتدي بأقوالهم في الكتابة مهنتهم، ومحور اهتمامهم، حتى نستشف نظرتهم لها، وتعاملهم معها.

أ - صناعة الكتابة:

إن من الضروري أن يلم الكاتب بأدواته إلماما يؤهله لحمل هذا العبء الثقيل؛ فالكتابة صناعة معروفة، وحرفة مشهورة، ورسالة شريفة، والسبيل إلى سبر غورها، وإتقان علومها، يمر عبر قنوات المعرفة الشاملة، فمحترف الكتابة يأخذ بهذه الأسباب حتى يرتقي بنفسه إلى درجات أعلى في مجال صناعته، وعلى هذا درج الكثير من كتاب الدواوين الرسميين فهم حين يكتبون يتلمسون من رؤسائهم مواطن الرضا، ومواضع الاستحسان، فيستكثرون من ذلك، ويعلمون مواطن السخط، ومواضع القبح فيتجنبونه، رغبة في العطاء، ورهبة من العقاب، أما ابداعاتهم الأدبية، ومواهبهم الأصيلة فلا يفصحون عنها، لأنهم لا يصدرون عن أنفسهم، فواجبات الوظيفة حالت بينهم وبين مشاعرهم، فجاءت كتاباتهم موافقة لقوانين الكتابة، ومخالفة لصدق الإحساس مادة التفاعل بين النص وقارئه.

فهل كان مترسلو الشعراء من هذا الصنف؟ أقول لم يكونوا على هذه الشاكلة، إنهم يكتبون بدفء مشاعرهم، وفيض أحاسيسهم، ويبثون خلاصة أرواحهم فيما يقومون به من أعمال إبداعية. يقول الحسن بن وهب في تأكيد هذه الحقيقة:

[الكاتب نفس واحدة، تجزأت في أبدان متفرقة][1] ويكتبون أيضاً ونرى الحياة باسمة هانئة حيناً، ونراها عابسة رتيبة حيناً آخر، فهي تحمل أطوار حياتهم، وتعج بالحركة والنشاط.

فمترسلو الشعراء تعاطوا الكتابة من باب الفن والإمتاع، فهي حبيبتهم التي يقدمون، وأثيرتهم التي يفضلون، ولحنهم العذب الذي يرددون، يقول العتابي – مجسداً هذه الروح في نظرته وأقرانه للألفاظ والمعاني – [الألفاظ أجساد، والمعاني أرواح، وإنما نراها بعيون القلوب، فإذا قدمت منها مؤخراً، أو أخرت منها مقدماً أفسدت الصورة، وغيرت المعنى، كما أنه لو حوّل رأسٌ إلى موضع يد، أو يد إلى موضع رأس، أو رجل، لتحولت الخلقة، وتغيرت الحلية][2].

وإذا كان تعاملهم مع حرفتهم الأدبية بلغ هذا الحد من الدقة في الانتقاء، وهذه الدرجة من حسن الاختيار، أدركنا – في غير عناء – أسباب نجاحهم، وعوامل تفوقهم، حتى تربعوا على عرش الكتابة الفنية حقبة من الزمن ليست بالقصيرة، وأصبح لهم بفضل ذلك رؤية عن دراية ومعرفة في الكثير من قضايا الكتابة وخباياها، ويمكن تصنيفها الى:

١ – البلاغة من منظورهم.   ٢ – القلم.

١ – البلاغة من العلوم الإنسانية المرنة، فهي لا تقف عند حدود جامدة، أو رسوم ثابتة، بل تتفاوت تعريفاتها من إنسان لآخر حسب شخصية الأديب، وذوقه، وثقافته، فهذه مقومات مهمة تترك أثرها على اتجاه الكاتب أوالشاعر، وتطبعه بطابعها، ومن ثم يتبلور فكره، ويتكون نهجه، فيرى البلاغة بالقدر الذي توافق ما بداخله، ويراها بحسب ما تثير فيه من أحاسيس، وتحرك من مشاعر.

---

(١) ابن عبد ربه، العقد الفريد ٢٥٦/٤؛ القلقشندي، صبح الأعشى ١١٥/١.

(٢) صبح الأعشى ٢٨١/٢؛ محاضرات الخليل في الإنشاء العربي ٣٧.

وللعتابي أكثر من تعريف وإن كانت في مجملها تذهب إلى وضوح المعنى وصراحته، ولايهم إن تم هذا القصد بالإيجاز أو بالاسهاب، فكلا الأسلوبين عنده سواء مادام المعنى المنشود قد وصل إلى ذهن السامع دون لبس أو غموض، يقول: [ليست البلاغة بالإكثار والإقلال، لكن البلاغة سَدُّ الكلام بمعانيه وإن قصر، وحسن التأليف وإن طال][١] وقال أيضاً في حد البلاغة: [كلٌ من بلَّغك حاجته، وأفهمك معناه، بلا إعادة ولا حُبْسة، ولا استعانة فهو بليغ، قال من حضر مجلسه: قد فهمنا الاعادة والحبسة، فما معنى الاستعانة؟ قال: أن يقول عند مقاطع كلامه: إسمع مني، وافهم عني، و يمسح عثنونه، أو يفتل أصابعه، أو يُكثر التفاتَه من غير موجب، أو يتساعل من غير سُعلة، أو ينبهر في كلامه][٢] وإذا كان هذا التعريف قد وافق سابقه في ضرورة إبراز المعنى وإظهاره؛ إلا أنه زاد عليه بعض المواصفات الحسية والتي يجب أن يتجنبها البليغ، وتهدف إلى وصول الفكرة إلى المخاطب من أقصر الطرق دون عوائق مملة من تساعل بلا مبرر، أو انبهار، أو تفتيل للأصابع، وغير ذلك من ظواهر النقص، ودلالات العي، ومن المؤكد أن هذه المعايب إذا ما ابتلي بها المتكلم فإنه لا يستطيع الإبلاغ عما يختلج في نفسه، إلا بعد لأي، وجهد جهيد، وقد لا يصل إلى مبتغاه.

وأساس البلاغة عند جُلّ الأدباء ترتكز على المتكلم ولا تأخذ المخاطب في الاعتبار إلا لماما، غير أن العتابي يرى أن الملقي يكمل الملتقي في العملية البلاغية، فهما محور القضية: [قيل للعتابي: ما أقرب البلاغة؟ قال: ألا يُؤتى السامعُ

---

(١) ابن منقذ، أسامة، لباب الآداب، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٠م، ص ٣٤٩.

(٢) ابن عبد ربه، العقد الفريد ١٢٦/٢؛ الحصري، زهر الآداب ١٤٧/١، مع اختلاف يسير؛ القزويني، الإيضاح، ١٩٨٠م، ص ٥٥، في العمدة ٢١٦/١ قال العتابي : [كل كلام أفهمك صاحبه حاجته من غير إعادة ولا حُبْسه ولا استعانة فهو بليغ، قالوا: قد عرفنا الإعادة والحبسة، وما الاستعانة؟ قال: أما تراه إذا تحدث قال عند مقاطع كلامه ياهناه اسمع مني، واستمع إلى، وافهم، وألست تفهم، هذا كله عي وفساد].

من سوء إفهام القائل، ولا يؤتى القائل من سوء فهم السامع][1]فمدار البلاغة إذن قائم عند الرجل على قطبيها القائل والسامع معاً، فالقائل عليه الإفهام لما يُريد، والسامع عليه فهم المراد، وأى اخلال في هذه المعادلة يعتبر هدماً للبلاغة، لأنها والحالة هذه لا تبلغ عن شئ، لذا نجد سهل بن هارون يقول: [بلاغة اللسان رفق، والعى خُرْق][2]. ويقول أيضاً في موضع آخر: [سياسة البلاغة أشد من البلاغة][3] فالبلاغة إذن ليست هينة ولا لينة، فهي محتاجة إلى أديب عرف فنونها، وخبير سلك دروبها، ومطبوع حباه الله من معينها، فالموهبة الأساس، والدربة من مكملات النجاح، يقول العتابي: [أقدر الناس على الكلام من عوّد لسانه الركض في ميادين الألفاظ، طول الصمت حبسه، وترك الحركة عقله][4]، ويقول أيضاً محذراً من مغبة حبس اللسان، والأضرار الناتجة عن ذلك: [إذا حُبس اللسان من الاستعمال اشتدت عليه مخارج الحروف][5].

٢ - القلم:

إن للقلم دلالة موحية عند الكاتب المبدع ليست عند غيره من خاصة وعامة، فعلاقته بقلمه لا مثال لها، فبينهما حبّ وعشق ووله لا حد له، ومن كانت هذه صفته مع آلته فلا عجب حين يبدع بل العجب ألاّ يكون كذلك، فقد نقلوا القلم من عالم الجماد إلى عالم الأحياء، وحسبنا بذلك تكريما، يقول العتابي في وصفه وكأنما يصف كائناً له سمة الحياة: [ببكاء القلم تبتسم الكتب][6] ويقول سهل بن

---

(١) المبرد، الكامل ١٥٠٢/٣.

(٢) الجاحظ، البيان والتبيين ٤٣/٢.

(٣) ابن عبدربه، العقد الفريد ٢٧٢/٤ وزاد الجاحظ لسهل بن هارون في البيان والتبيين ١٩٧/١ [... كما أن التوقي على الدَّواء أشد من الدَّوَاء].

(٤) الأصبهاني، محاضرات الأدباء ٣١.

(٥) ابن عبد ربه،، العقد الفريد ٣٠٧/٢؛ المبرد، الكامل ٧٦٤/٢.

(٦) النديم، الفهرست ١٢؛ د/ عبد الحميد جيدة، إنشاء الكتابة عند العرب ٢٤٠.

هارون: [القلم أنف الضمير، إذا رعف أعلن أسراره، وأبان آثاره][(١)] ولا تزال تتواتر أقوالهم التي نستشف منها عشقهم لهذه الآلة يقول العتابي: [الأقلام مطايا الفطن][(٢)]، وعلى هذا النحو يطلقون إعجابهم بهذه الأداة الصماء عند غيرهم، مكتملة الحياة عندهم، ولعل د/ عبد الحميد جيدة قد لفتت نظره هذه الرابطة الوثيقة التي تربط مبدعي الكتاب بأقلامهم، يقول [وهكذا يخلق الأدباء بالنثر على القلم صفات الأحياء الناطقين المفكرين][(٣)].

وبعد: فما مواصفات القلم الذي أحدث كل هذا الثناء؟ يجيبنا سعيد بن حميد بقوله: [من أدب الكاتب أن يأخذ قلمه في أحسن أجزائه، وأبعد ما يتمكن المداد فيه، ويعطيه من القرطاس حقه][(٤)].

وإذا كان سعيد بن حميد قد ألمح إلى مواصفات القلم وأجمل، فإن نده العتابي استغرق في ذكر المثال الذي يجب أن يحتذى، يقول: [سألني الأصمعي يوماً في دار الرشيد: أي الأنابيب للكتابة أصلح، وعليها أصبر؟ فقلت: ما نشف بالهجير ماؤه، وستره عن تلويحه غشاؤه، من التَّبْرِيَّة القشور، الدُّرِّيَّة الظهور، الفضية الكسور، قال الأصمعي: فأيُّ نوع من البري أصوب وأكتب؟ فقلت: البرية المستوية، والقطة التي عن يمين سنها قرنة، تؤمَن معها المجة عند المذة، والمطة للهواء في شقها فتيق، والريح في جوفها خريق، والمداد في خرطومها رقيق، قال العتابي: فبقي الأصمعي باهتاً إليّ ضاحكاً لا يحير مسألة ولا جواباً][(٥)].

---

(١) الثعالبي، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ٣٣٠؛ في العقد الفريد ٤/٢٨٠ [القلم لسان الضمير..].

(٢) النديم، الفهرست ١٢، عند الصولي في أدب الكتاب ٦٨ [الأقلام مطايا الأذهان].

(٣) إنشاء الكتابة عند العرب ٢٤٢.

(٤) ابن عبد ربه، العقد الفريد ٤/٢٨١.

(٥) المصدر السابق ٤/٢٥٥، ٢٥٦، والحصري، زهر الآداب ٣/٦٧٣، ٦٧٤ مع اختلاف يسير جداً.

وفي الختام: هل أدى هؤلاء المهر إلى حسنائهم؟ وأقول ليس في ذلك أدنى ريب، لقد أدوه غالياً كأحسن ما يكون الأداء، منحوها أنفسهم خالصة، فوهبتهم نفسها طائعة راضية، فكان التلاقي الذي أثمر عنه هذا الأدب الراقي.

ب - المناظرات:

والمناظرات من عطاء الفكر المستنير، وهي مذهب أدبي لم تطرأ في العصر العباسي، بل سبقته بحقبة طويلة من الزمن، لعلها تتزامن مع النشأة الإنسانية.

ومن الطبيعي أن تكون المناظرات في تلك الأزمنة السحيقة بدائية الطرح، وسطحية العطاء، كما هو حال إنسان ذلك العصر، ثم أخذت في النماء والرقي - كما تفرضه طبيعة الأشياء - حتى بلغت النضج في العصر العباسي، ذلك العصر الذي انتهت إليه معطيات كل شئ، ونعم بقطوف أنضجت ثمارها تعاقب الأيام، وتتابع السنين.

والمناظرة في تاريخ الإسلام كانت تدور رحاها حول مسائل شائكة عقدية، كان الأولى ألا تكون مجالاً للمطارحة، لما تحدثه عند العامة من اضطراب وشك وقلق، وليس من وكدي ضرب الأمثلة، فمظان الكتب تحفظ الكثير من تلك القضايا(١).

غير أن روعة المناظرة تبرز في أحلى حلة، وأجمل ثوب حين تكون في أجناس الأدب ومسائله، كما كان يحدث في العصر العباسي، ولشيوع تلك المجالس وأهميتها جُمعت في كتب(٢) اختصت بهذا الفن منفرداً عما سواه، ولأن تلك المجالس كانت تحوي الكثير من رجال الفكر والأدب وما قد يغلب عليهم من الحماسة والخروج عن جادة الطريق، رتبت منتدياتهم على أسس قوية من مبادئ السلوك

---

(١) الأمثلة عديدة يأتي في طليعتها من حيث الأهمية تلك القضية التي فتنت العالم الاسلامي في عهد المأمون وأعنى بها قضية القرآن الكريم، وهل هو مخلوق أم كلام الله، وليس من شك فيما تحدثه أمثال هذه الفتنة عند الخاصة من العلماء، فضلاً عن دهماء الناس.

(٢) انظر: مجالس العلماء للزجاجي، مجالس ثعلب.

الحضاري الإسلامي، فللمتحاورين حقوق وعليهم واجبات، وهذه المنظومة الخلقية التي وضعها بعض[1] العلماء هي التي تحكم العلاقة بين المتناظرين في مناخ يسوده غالباً المنطق السديد، واطراح الهوى.

وهذا الجنس الأدبي له أمثلة جيدة عند مترسلي الشعراء، تنطق بنهجهم، وتبين عن فكرهم، ولعلي أبتدي بمجلس لبشار بن برد، أبان فيه الرجل عن قضية جد مهمة حول مذهبه في الشعر، وفلسفته في الإنشاد، ومفادها يدور حول المقام وما يستدعيه من مقال مناسب له، فهي إذن دعوة نقدية شائعة وقديمة أيضاً، تمثلها بشار واستلهما، فإن فاته هنا فضل الابتكار إلا أنه لم يفته حسن الاتباع، وهاك هذا المجلس باسناده كما أورده الزجاجي، يقول: [حدثنا أبوعبدالله، حدثني أحمد بن يحيى، قال: حُدثت عن أحمد بن خلاد المبارك الباهلي قال: حدثني أبي، قال: قلت لبشار: إني أراك في شعرك تُهجر فتأتي مرة بفن، ومرة بفن، قال: مثل ماذا؟ قلت: مثل قولك

إذا ما غَضِبْنا غضبةً مُضَرِيةً ... هتكنا حجابَ الشمس أو قطرتْ دما

ثم تقول:

ربابةُ ربةُ البيتِ ... تصبُ الخلَّ في الزيتِ

لها عَشْرُ دَجاجاتِ ... وديك حَسَنُ الصوتِ

فقال: يا أبا مخلد، الحال بيني وبينك قديمة، وأراك ليس تعرف مذهبي في هذا، هذه امرأة كانت لها عشر دجاجات وديك، وكنت لا آكل بيض السوق، وإنما آكل البيض المحصَّن، فأردت أن أمدحها بما تفهم، ولو أني مدحتها بمثل:

---

(١) انظر: الرسالة الرشيدية للشيخ الجونغوري على الرسالة الشريفية في آداب البحث والمناظرة للسيد الشريف على بن محمد الجرجاني.

قِفَا نبكِ من ذكري حبيبٍ ومنزلِ واخواتها لم تفهم ما أقول، ولم يقع منها موقعه، وإنما أنا كالبحر الزاخر يقذف بالعنبرة وبالدرة النفيسة، وربما قذف بالسمك الطافي، ولكن لا أضع كلَّ شئٍ إلا في موضعه، قلت مثل ماذا؟ قال مثل قولي:

أنْفسُ الشوقَ ولا ينفسُني وإذا قارَعني الهمُّ رجَعْ

أصرع القرنَ إذا نازلته وإذا صارعني الحبُّ صرَعْ

أنا كالسيف إذا روّعته لم يروّعك وإن هُز قطَعْ

سيفي الحلمُ وفي مِنطقتي أسدُ الموتِ إذا الموتُ نقَعْ

قال أحمد: فسمعت الأصمعي يقول: العجب له إنه لا عشيرة له، ولا له مال بارع، وأعمى ويقول مثل هذا][1].

وحين قال أصحاب الحكمة قديماً "لكل مقام مقال"[2] فطنوا إلى اختلاف الذائقة الأدبية بين الخاصة والعامة، وبين كل فئة على حدة أيضاً، تبعاً لاختلاف مشاربهم الثقافية، وبيئآتهم، ورغباتهم؛ وبشار حين ألزم نفسه بهذا النهج النقدي كان يمثل آية الحكمة، ومنتهى البراعة، فبحره ملئٌ بالنفيس والرخيص[3]، فكان يضع كل شئٍ موضعه الذي يناسبه، فيأخذ بذلك موقعاً حسناً، وقبولا عند المخاطب. واستكمالاً لهذه القضية المهمة يحسن بي أن أشير إلى أن العلماء[4] يجيزون

(١) مجالس العلماء، ت: عبدالسلام هارون ١٥٧، ١٥٨؛ المرزباني، الموشح ٣١٣.

(٢) المثل في مجمع الأمثال للميداني ٢/١٩٨.

(٣) وهذا النهج الذي أبانه بشار يفسر بعض الأقوال التي كنت أراها مجحفة في حق الرجل من مثل قولهم: [إنه كان ينظم الشذرة – أي اللؤلؤة الصغيرة – ثم يجعل إلى جانبها بعرة]. انظر : الموشح ٣١٥.

(٤) يقول الجاحظ في البيان والتبيين ١/١٤٥، ١٤٦ [ومتى سمعت حفظك الله بنادرة من كلام الأعراب فإياك أن تحكيها إلا مع إعرابها، ومخارج ألفاظها، فإنك إن غيرتها بأن لحنت في إعرابها، أو أخرجتها مخارج كلام المولدين والبلديين، خرجت من تلك الحكاية، =

التخاطب باللحن في مواضع تستوجب ذلك، بل وقد يفضلون ذلك كحديث الجارية ومعها مثلاً، لأن لكل طبقة ما يناسبها من القول.

ومن المناظرات الجميلة مارواه الزجاجي في مجالسه للعتابي مع منصور النمري [قال أحمد بن الحارث الخزار: أنشد العتابي كلثوم بن عمرو:

ياليلةً لي بحُوّارينَ ساهرةً   حتى تكلمَ في الصبح العصافيرُ

فقال له منصور النمري: العصافير تتكلم؟ فقال العتابي: نعم تتكلم وتنطق، ويقال ذلك لما أعرب عن نفسه بحالٍ تُرى فيه، فيقال: أخبرتِ الدارُ بكذا، وتكلمت بكذا، فكيف ماله نطق؟! أما سمعت قول كثير:

سِوى ذكرةٍ منها إذا الركبُ عَرّسوا   وهبّت عصافيرُ الصَّريم النواطقُ

وقال الكميت:

كالناطقات الصادقا   ت، الواسقات من الذَّخائرْ

= وعليك فضل كبير، وإن سمعت نادرة من نوادر العوام، وملحة من ملحهم، فإياك أن تستعمل لها الإعراب أو تتخير لها لفظاً حسناً، فإن ذلك يفسد الامتاع بها، ويخرجها من صورتها التي وضعت لها، ويذهب استطابتهم إياها] وقال أيضاً [واللحن من الجواري الظراف، ومن الكواعب النواهد، ومن الشّوابِّ الملاح، ومن ذوات الخدور أيسر، وربما استملح الرجل ذلك منهن مالم تكن الجارية صاحبة تكلف].

ثم يحدد منهجه في المناسبة بصورة أوضح، يقول: [ولكل ضرب من الحديث ضربٌ من اللفظ، ولكل نوع من المعاني نوعٌ من الأسماء: فالسخيف للسخيف، والخفيف للخفيف، والجزل للجزل، والافصاح في موضع الافصاح، والكناية في موضع الكناية، والاسترسال في موضع الاسترسال.

وإذا كان موضع الحديث على أنه مضحك ومله وداخل في باب المزاح والطيب، فاستعملت فيه الإعراب، انقلب على جهته، وإن كان في لفظه سُخف، وأبدلت السخافة بالجزالة صار الحديث الذي وضع على أنْ يُسرَّ النفوس يكربها ٠٠٠] الجاحظ، الحيوان ٣٩/٣.

قال : فسكت منصور منقطعاً][1].

وجمال المجلس المذكور لم يكن في معالجته لقضية من قضايا الأدب فحسب، بل وفي هذا النقاش الهادئ، والحوار المتزن، وإن كانت هذه المزية سمة معظم المجالس، وتسليم منصور النمرى للعتابي، ولا أقول استسلامه دلالة على تقديمه الحق والأخذ به، فالمنطق أسكته وليس خصمه.

وقد يتجاوز المتحاورون قضايا الأدب العامة إلى مسائل قريبة منه، تمت إليه بسبب قوي، كالنحو، يروي أبوالقاسم التنوخي بالإسناد، عن أبي العباس المبرد أنه قال: أنشدني ابن أبي دؤاد بين يدي الواثق قوله:

أظُليمُ إنّ مُصابكم رجلاً   أهدى السلام إليكم ظلمُ

قال محمد بن عبد الملك الزيات وزير الواثق: إنما "رجل" بالرفع لأنه خبر "إنّ" واختصم هو وابن أبي دؤاد في ذلك، ثم تراضيا بالمازني، فأمر الواثق بإشخاصه من البصرة، قال المازني: لما دخلت على الواثق، قال لي: باسمك؟ قلت: بكر بن محمد، قال المازني: ولولا أني سمعتها من ابن دريد ما عرفتها، قال القاضي: باسمك معناها: ما اسمك، وقد حكيت عن العرب من وجوه، قال المازني: ثم احتكما إليّ فحكمت لابن أبي دؤاد][2] ولا يتنافى خطأ ابن الزيات مع منزلته في النحو كما قدمنا، لأنه ليس من المعصومين من الزلل.

وإذا كان الواثق قد رعى هذا المجلس على غير إعداد مسبق، فإنا واجدون خليفة مثل "المأمون" قد شغفه العلم، وحبب إليه الدرس والمناظرة، فكان ديوانه

---

(١) مجالس العلماء ٢١.

(٢) لطائف الأخبار وتذكرة أولى الأبصار ٩٦، ٩٧؛ في نزهة الأخبار وتحفة الخلفاء للملك الأفضل ص ٧٠، ذكر أن جارية هي التي أنشدت البيت المذكور آنفاً في حضرة الواثق واعترض عليها الحاضرون..].

محط أنظار أفذاذ العلماء من كل فن، وفي كل علم، حتى أصبحت هذه المنتديات العلمية التي يقيمها ويفصل فيها في كثير من الأحايين متعته الحقيقة، وغذاء روحه وعقله في الآن معاً، ولا أعلم خليفة صنع صنيعه، وذلك ظاهر من خلال استقراء التاريخ، ومن هذه المجالس التي لايحصى عددها [مجلس جمع فيه بين العتابي وبين أبي قرّة النصراني، فقال لهما: تناظرا وأوجزا، فقال العتابي لأبي قرة: أسألك أم تسألني؟ فقال: سلني، قال: ما تقول في المسيح؟ قال: أقول إنه من الله عز وجل، فقال العتابي: إن "من" تجئ على أربعة أوجه: فالبعض من الكل على سبيل التجزؤ، والولد من الوالد على سبيل التناسل، والخلُّ من الحلو على سبيل الاستحالة والخلق من الخالق على سبيل الصنعة، فهل عندك خامسة؟ قال: لا، ولكني لو قلت واحدة من هذه ما كنت تقول؟ فقال العتابي: إن قلت إنه كالبعض من الكل جزّاته، والبارئ لا يتجزأ وإن قلت: إنه كالولد من الوالد أوجبت ثانياً من الأولاد وثالثاً ورابعاً إلى مالا نهاية، وهذا لايجوز على البارئ عز وجل، وإن قلت على سبيل الاستحالة أوجبت فساداً والبارئ لا يستحيل ولا ينتقل من حال إلى حال، وإن قلت: إنه كالخلق من الخالق كان قولاً لاحقا، وهو الحق الذي لاشك فيه][(١)].

إن قضية المسيح عليه السلام من المشكلات المستعصية في تاريخ الأديان قديماً وحديثاً، والصلة بينه وبين خالقه موضع خلاف - رغم وضوح الرؤية لنا كمسلمين - وإن كان القرآن الكريم قد حسمها منذ أمد بعيد، إلا أن المسيحيين لم يعترفوا بذلك، ولم يسلموا به، لأنهم في الأصل لم يؤمنوا بالقرآن، لذا نجد العتابي - بحكمته وذكائه - يسلك به طريقاً آخر في حواره، فهو لم يستشهد بآية لتأكيد الحقيقة ولكنه اعتمد على اللغة في اسكات خصمه، ورده إلى الصواب، ساعده على ذلك اتساع ثقافته، وبراعته في فقه اللغة، لذا نجده يحاصر محاوره بهدوء وثقة، ويجبره على الاعتراف بالحق طوعاً أوكرها بالحجة الدامغة، والبرهان المبين.

وتم كل هذا بإيجاز بليغ، إجابة لتوجيه المأمون الذي يعي أن الأهواء لو

---

(١) القرطبي، بهجة المجالس ١/١٠٦.

تركت على سجيتها من دون ضابط لأخذت هذه القضية إلى خطوط متوازية لا نهاية لها، ولا ثمرة مرجوة منها، لذا وجههما إلى الإيجاز وقد كان، فهو المنهج السليم المبلّغ إلى الغاية، وهي "الحقيقة المجردة" هدف أي حوار.

ومنها مايرويه ابن عبد ربه، يقول: [دخل سهل بن هارون على الرشيد فوجده يُضاحك ابنه المأمون، فقال: اللهم زده من الخيرات، وابسط له في البركات، حتى يكون كلُّ يوم من أيامه موفياً على أمسه، مقصراً عن غده، فقال له الرشيد: ياسهل من روى من الشعر أحسنه وأجوده؟، ومن الحديث أصحه وأبلغه؟، ومن البيان أفصحه وأوضحه؟، إذا رام أن يقول لم يعجزه، قال سهل: ياأمير المؤمنين ما ظننتُ أحداً تقدمني سبقني إلى هذا المعنى، فقال: بل اعشى همدان، حيث يقول:

وجدتُكَ أمْسى خَيْرَ بني لؤيٍ ... وأنتَ اليومَ خيرٌ منك أمسِ

وأنت غداً تزيدُ الخيرَ ضِعْفاً ... كذاك تزيدُ سادة عَبْدِ شمسِ][1]

الرشيد هنا لم يساير سهلاً ويجامله كما كان يأمل، بل قدم الحق عليه من خلال رؤيته وذوقه الخاص، رغم أن حكمه عام ومطلق يحتاج إلى منهجية الناقد المنصف، فهو لم يستمع إلى قول سهل وما إذا كان سيوفي بتلك المقاييس الجمالية التي ذكرها أم لا؟ وما يدرينا لعله لو أعطي الفرصة لإظهار ماعنده لكانت أفضل من بيتي أعشى همدان وأوفى بكل تلك القيم، وربما أثارت إعجاب الرشيد نفسه، وغيرت من رؤيته السابقة، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث.

وبعد: هذه المجالس تمثل الوجه المشرق للحضارة الإسلامية العظيمة في أزمان المنعة و العز، والسؤدد، ذلك أن الحوار في أجواء خلقية دليل قوة للأمة، وثقة في قدرتها، وهي في ذات الوقت تشي بصدق إلى ما وراءها من منتديات

---

(١) العقد الفريد ٢/١٤؛ الحصري، زهر الآداب ٢/٥٨٦ مع اختلاف يسير جداً، د/ نبيه حجاب، بلاغة الكتاب ٢٤٣، ٢٤٤.

أخرى في مجالات مختلفة، تمس الإنسان، وحياته، ورفعته.

واستطيع أن أثبت بشئٍ من الاطمئنان إلى أن روح الإيمان مع روح الابداع قد حققتا للمجتمع الإسلامي تلك المنزلة التي عاشتها ردحاً من الزمن، وسادت بها أمم الأرض آنذاك، فأين نحن منهم اليوم؟ سُؤآل إجابته مانراه لا مانسمعه.

جـ - التحليل النفسي:

إن العالِم لايمكن أن ينبت عن مجتمعه، وينفصل عنه، وإلا لكان عديم النفع، وغير جدير بما يحمله من علم، فمشاركته في حدود محيطه، ورصده لبعض الظواهر - والتي قد يمر عليها غيره من دون استشعار لها - أمر مهم، والأهم دراسة مايراه وتحليله اجتماعياً ونفسياً.

إن مايقوم به العالم الأديب على وجه الخصوص هو نقد للمجتمع عامة حين يستشري في بدنه بعض الهنات والنقائص، فيتصدى لها حينئذ ويشخص المرض برؤية علمية، هدفها تلافي العيب، وتلمس الصواب، ولعلي لا أذهب بعيداً وأضرب مثالاً لظاهرة من هذا النوع كانت ولا تزال تعيش بيننا وتحيا، إنها ظاهرة التشدق بغريب الألفاظ، ووحشي الكلام، فيراها بعض المتأدبين سبيلاً إلى التميز الذي ينشدونه على أقرانهم، وبه يرضون غرورهم، فيقعون في المحظور، ويصبحون مكان سخرية الناس واستهزائهم، في حين كانوا يأملون في إعجابهم، وإطراء بلاغتهم، فهو إذن مرض نفسي يصيب بعض الناس في مقتل، والمخافة من عدواه أكبر منه ذاته، لذا نرى حكيماً مثل سهل ابن هارون ينتقد هذه الطريقة، يقول: [والناس موكلون بتعظيم الغريب، واستظراف البعيد، وليس لهم في الموجود الراهن، ولا فيما تحت قدرتهم من الرأي والهوى، مثل الذي لهم في الغريب القليل، وفي النادر الشاذ... وعلى هذا السبيل يستظرفون القادم عليهم، ويرحلون إلى النازح عنهم، ويتركون ماهو أعم نفعاً، وأكثر من وجوه العلم تصرفاً، وأخف مؤونة، وأكثر فائدة][(١)].

وهذا التوجه من بعض أدباء ذلك العصر إلى الارث القديم، ومحكاته، مرده عائد إلى انتقاص النفس، وازدراء ماتقوم به من أعمال، فلم تكن ترى الكمال إلا فيما أنتجه الأقدمون، وكانت هذه النظرة سائدة عند فئة من خاصة الناس وعامتهم،

---

(١) الجاحظ، البيان والتبيين ١/٩٠؛ القلقشندي، صبح الأعشى ١/١٠١.

فكانوا يستحسنون القديم لقدمه وإن كان سيئاً، ويستقبحون الحديث لحداثته وإن كان حسناً، فعامل الزمن هو الفيصل الحاسم في الحكم على المأثور الأدبي دون النظر إلى أي اعتبارات فنية، ومن ثم كانت محاكاتهم للقدماء إرضاء للذوق العام السائد آنذاك من ناحية، واستجابة لما يشعرون به من مكامن الضعف في نفوسهم من ناحية أخرى.

وعلى كل فالفضل يعود إلى سهل في إثارته لهذه القضية، فقد فتح باباً للنقاد دلف منه الكثير منهم وعلى رأسهم ابن قتيبة[١] الذي أسهب في مناقشة هذه الظاهرة الخطيرة.

ولم يتوقف سهل عند هذا الحد، فنراه في موطن آخر يرصد بعين بصيرة ظاهرة اجتماعية أخرى، تلامس النفس، فيأخذ في مراقبة رد فعلها واستجابتها تجاه الأحداث، تأمل تشريحه الرائع لنفوس جمع من الناس تجاه مثير واحد، يقول: [لو أن رجلين خطبا أو تحدثا أو احتجا أو وصفا، وكان أحدهما جميلاً بهياً، ولباساً نبيلاً، وذا حسب شريف، وكان الآخر قليلاً قميئاً، وباذّ الهيئة دميماً، وخامل الذكر مجهولاً، ثم كان كلامهما في مقدار واحد من البلاغة، وفي درب واحد من الصواب، لتصدع عنهما الجمع عامتهم، ليقضي للقليل الدميم على النبيل الجسيم، وللباذ الهيئة على ذي الهيئة، ويشغلهم التعجب منه عن مناوأة صاحبه، ولصار التعجب على مساواته له سبباً للتعجب به، والإكثار في شأنه، علة للإكثار في مدحه لأن النفوس كانت له أحقر، ومن بيانه أيأس، ومن حسده أبعد، فلما ظهر منه خلاف ما قدروه، وتضاعف حُسْن كلامه في صدورهم كبُر في عيونهم، لأن الشئ من غير معدنه أغرب، وكلما كان أبعد في الوهم كان أطرف، وكلما كان أطرف كان أعجب، وكلما كان أعجب كان أبدع، وإنما ذلك كنوادر الصبيان، ومُلح المجانين، فإن استغراب السامعين لذلك أعجب، وتعجبهم منه أكثر][٢].

---

(١) الشعر والشعراء ٦٢/١ وما بعدها.

(٢) الجاحظ، البيان والتبيين ٨٩/١، ٩٠؛ القلقشندي، صبح الأعشى ١٠١/١.

إن هذا التحليل العلمي لنفس المتلقي إزاء المثير الذي ذكره قائم على الملاحظة الدقيقة، وعلى استشعار الكاتب لهذه الحالة النفسية التي تعتري جمهرة المتلقين، ويدل أيضاً على فضل القدماء وريادتهم في هذا الجانب، فقد كان لهم أولية السبق في تطبيق بعض النظرات النفسية على بعض المستجدات، ودراستها بعمق كبير، يثير فينا الإعجاب بقدراتهم، يقول د/ سامي الدروبي: [ليست الدراسة النفسية للآثار الأدبية جديدة، إن البحوث النقدية القديمة التي تعني بسيرة المؤلف فتربطها ببعض صفات آثاره كانت تدخل علم النفس في بحثها، ولكنها تفعل ذلك على أساس من المعارف النفسية العامة، وعلى أساس من الذوق، لا بطريقة منهجية ...][(١)] وأغلب الظن أن د/ سامي لم يطلع على هذا النص وسابقه، وإلا لكان له رأي أكثر انصافاً لمنهجية القدماء، فسهل - وهو منهم - لم يقف عند ربط المؤلف بآثاره وإدخال علم النفس في ذلك كما يقول، بل تعدى هذه السطحية إلى مراحل جد خطيرة، ترمي بجذورها في أعماق النفس البشرية وتستجلي كنهها، وإنْ لم تبلغ المناهج الحديثة في علم النفس كما انتهت إليه الآن.

فهذا النص يشير إلى التقدم الذي بلغوه في تفسير الأحداث بنهج علمي؛ صحيح أن للذوق أثره في ذلك، وصحيح أيضا أن اعتمادهم ينصب على الملاحظة، وعلى تفسير الظواهر الطارئة على أساس من معارفهم النفسية العامة، ولكنهم طوعوا ذلك كله لخدمة أهدافهم بفكر منظم، أفضى بهم إلى منهجية علمية تربط السبب بالمسبب كما فعل سهل بن هارون هنا، فانتصار جمهرة المتلقين "للدون" على نده، له منطقه الخاص، يفسره الرجل بجملة مبلغة حين قال: والشئ من غير معدنه أغرب، ومن هنا كان استسلامهم لباذ الهيئة استسلاماً نفسياً، وتعاطفهم معه تعاطفاً وجدانيا، له سمة الاشتراك بينهما "الباعث والمتلقي".

---

(١) علم النفس والأدب، ط: الثانية، دار المعارف، ٢٥٣.

د - الفكاهة:

إن الفكاهة هي الجذوة التي تذكي روح الابداع عند الإنسان، تسكن إليها النفس من غير أن تركن، وتتزود منها وقودها الذي يشعل فيها النشاط، ويعيد إليها الحيوية.

ولا نعني بالفكاهة ما قد تعطيه هذه اللفظة من دلالات ثانوية غير مرغوب فيها في عرف الدين والتقاليد، من اسفاف منحط، أو مجون مقيت، ولا غيرهما من ظلال سوداوية يحيا فيها بعض الماجنين، ولكننا نعني بها تلك التي وردت في الأثر [روحوا القلوب ساعة وساعة](١) فكما أن للجد حيناً فإن للهزل حيناً آخر، وهما صنوان مكملان لبعضهما البعض، الأول منهما نتاج للآخر، فالعمل الجيد وراءه روح وسطية، استطاعت أن توازن بين الجد والهزل، فأمتعت العقل والنفس معاً.

والحياة ذاتها لا تطاق إذا اختلت هذه الموازنة، فلا يمكن أن تكون عملاً جاداً في كل الأحوال، ولا يمكن أن تكون العكس، بيد أنها لو رواحت بين هذا وذاك لكانت أكثر روعة وامتيازاً، وكتب الأدب مليئة بأصناف الفكاهة الصالح منها والطالح.

أما فيما يخص نتاج مترسلي الشعراء، فهو يميل إلى الاعتدال حيناً، والى غير ذلك أحياناً، نثبت الغث منه والسمين لنرى شكل الحياة الاجتماعية آنذاك، ومنها ما ترويه الكثير من مصادر الأدب عن العتابي، تقول: [كان كلثوم العتابي واقفاً بباب المأمون، فجاء يحيى بن أكثم فقال له العتابي: إن رأيت أن تعلم أمير المؤمنين بمكاني، قال: لست بحاجب، قال: قد علمت، ولكنك ذو فضل، وذو الفضل معوان، قال: سلكت بي غير طريقي، قال: إن الله قد ألحقك بجاه، ونعمة منه، فهما

---

(١) قال العجلوني: "رواه الديلمي، وأبونعيم، والقضاعي عن أنس رفعه" كشف الخفاء، ومزيل الالباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، ط: الثانية ١٣٦١هـ، ١/٤٣٥.

مقيمان عليك بالزيادة إن شكرت، وبالتقتير إن كفرت، وأنا لك اليوم خيرٌ منك لنفسك، أدعوك لما فيه زيادة نعمتك، وأنت تأبى ذلك، ولكل شئ زكاة، وزكاة الجاه بذله للمستعين، فدخل يحيى فأخبر المأمون الخبر، فأدخل إليه العتابي وفي المجلس إسحاق بن ابراهيم الموصلي، فأمره بالجلوس، وأقبل يسأله عن أحواله، وشأنه، فيجيب بلسان ناطق، فاستظرفه المأمون، وأخذ في مداعبته، فظن الشيخ أنه قد استخف به، فقال: يا أمير المؤمنين الإيناس قبل الإبساس[1]، فاشتبه عليه قولُه، فنظر إلى إسحاق فغمزه بعينه، ثم قال ألف دينار. فأتى بها فوضعت بين يدي العتابي، ثم دعا إلى المفاوضة، وأغرى المأمون إسحاق بالعبث به، فأقبل إسحاق يعارضه في كل باب يذكره، ويزيد عليه، فعجب منه، وهو لا يعلم أنه إسحاق، ثم قال: أيأذن أمير المؤمنين في مسألة هذا الرجل عن اسمه ونسبه؟. فقال: افعل، فقال له العتابي: من أنت؟ وما اسمك؟ قال: أنا من الناس، واسمي كل بصل! فقال له العتابي: أما النسبة فقد عرفت، وأما الاسم فمنكر، وما كل بصل من الأسماء! فقال له إسحاق: ما أقل انصافك وما كلثوم؟ والبصل أطيب من الثوم قال العتابي: قاتلك الله، ما أملحك! ما رأيت كالرجل حلاوة، أفيأذن أمير المؤمنن في صلته بما وصلني به، فقد والله غلبني؟ فقال له المأمون: بل ذلك موفر عليك، ونأمر له بمثله، فانصرف مع اسحاق إلى منزله، ونادمه بقية يومه][2] والفكاهة هنا لإسحاق الموصلي بمشاركة نده العتابي، قال أبوالقاسم على التنوخي القاضي تعقيباً على هذا النص: [كلمات العتابي هذه مأخوذة من معنى كلام أمير المؤمنين على عليه السلام، وهو قوله: أيها الناس افشوا المكارم، وسارعوا إلى المغانم، واشتروا بالجود حمداً، ولا تكسبوا بالبخل ذماً، أيها الناس إن من كثرت نعم الله عليه كثرت حوائج الناس

---

(١) ورد هذا القول عند الميداني في الأمثال ٥٩/١ وهو يضرب في المداراة عند الطلب.

(٢) المسعودي، مروج الذهب ١٤/٤،١٥؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان ١٢٣/٤، تاريخ الطبرى ٦٦٣/٨، ٦٦٤؛ الكتبي، فوات الوفيات ٢٢٠/٣، ٢٢١؛ البغدادي، تاريخ بغداد ٤٨٩/١٢، ٤٩٠.

إليه، فمن قام لله فيها بحقها أوجبها للتمام، ومن كفر واجب حقها عرضها للزوال والفناء](١).

وأرى تأثره يبدو أكثر وضوحاً من قول على - رضي الله عنه - أيضاً [إن لله تعالى في كل نعمةٍ حقاً، فمن أداه زاده منها، ومن قصّر فيه خاطر بزوال نعمته](٢).

وقد تتلون الفكاهة بشخصية قائلها، تحكي بصدق عن نهجه، وتعبر عن فلسفته تجاه الأشياء، فهو وهي كيان واحد، وروح واحدة، وخير مثال على ذلك مفاكهات سهل الضاحكة التي تخبر عن بخله الذي اشتهر به، وأشاعه هو [لقيه رجل فقال له: هبْ لي ما لا ضرر به عليك، فقال: وما هو يا أخي؟ قال: درهم، قال سهل: لقد هونت الدرهم، وهو طائع الله في أرضه، لا يُعصى، وهو عُشْرُ العشرة والعشرة عُشر المائة، والمائة عشر الألف، والألف دية المسلم، ألا ترى إلى أين انتهى الدرهم الذي هونته؟ وهل بيوت المال إلا درهم على درهم](٣) وفي نص آخر يستنكر على خادمه أن رمى رأس الديك، ويأخذ في وصف منافعه، ويعدد محاسنه، مظهراً طاقة هائلة من المعارف، يروي دعبل يقول: [كنا عند سهل بن هارون فلم نبرح حتى كاد يموت من الجوع، فقال: ويلك ياغلام آتنا غداءنا، فأتى بقصعة فيها ديك مطبوخ تحته ثريد قليل، فتأمل الديك فرآه بغير رأس، فقال لغلامه: وأين الرأس؟ فقال: رميته، قال: والله إني لأكره من يرمي برجله فكيف برأسه، ويحك أما علمت أن الرأس رئيس الأعضاء، ومنه يصيح الديك: ولولا

(١) لطائف الأخبار وتذكرة أولى الأبصار ١٧٤؛ وانظر: الشريف الرضي، نهج البلاغة ٢/٣٩١.

(٢) الشريف الرضي، نهج البلاغة ٢/٣٦٠.

(٣) ابن نباتة، سرح العيون ص ١٣٧؛ ونسب هذا النص في بخلاء الخطيب البغدادي ١٣٦ إلى خالد بن صفوان، وأرجح نسبته إلى سهل بن هارون لتواتر الروايات في نسبته إليه، زيادة على توافق الأسلوب مع اسلوب سهل.

صوته ما أريد وفيه فرقه[١] الذي يتبرك به، وعينه التي يضرب بها المثل، فيقال شراب كعين الديك، ودماغه عجيب لوجع الكلية، ولم نر عظماً أهش تحت الأسنان من عظم رأسه، وهبك ظننت أني لا آكله، أما قلت عنده من يأكله، انظر في أي مكان رميته فأتني به، فقال والله لا أدري أين رميته، قال: لكني أنا أعرف أين رميته، رميته في بطنك الله حسيبك][٢]. ولاغرابة في هذا الجانب (الكوميدي) في شخصية سهل، فالجاحظ يروي أنه تمتع بهذه الطرفة منذُ حداثته، يقول: [تندر ذات مرة على أحد جيرانه وهو صغير يختلف إلى الكتاب، فقال:

نُبِّيتُ بغلك مبطوناً فرعت له فهل تَماثَل أو نأتيك عُوَّادا][٣]

وإذا كانت الفكاهة قد أفصحت عن شخصية سهل البخيلة والمرحة في آن، فقد قامت بذات الدور وعبرت عن شخصية محمد بن عبد الملك الزيات القاسية. فكانت طرفته مرآة عاكسة لحقيقته، تأمل قوله لبعض أصحابه وسترى جفاء طبعه ماثلا في هذا النص، قال لبعض أصحابه: ما أخرك عنا؟ قال: موت أخي،، قال: بأي علة؟ قال: عضت أصبعه فأرة، فضربته الحمرة، فقال ابن الزيات: مايرد القيامة شهيدٌ أخس سبباً، ولا أنذل قاتلاً، ولا أضيع ميتةً، ولا أظرف قتلةً من أخيك][٤].

وإذا كانت السخرية قد حُرمت بنص القرآن[٥] الكريم، إلا أنا نجد كاتباً مثل

---

(١) فرق الديك: انفراق عرفه، يروى الجاحظ في الحيوان ٢/٢٠٧ أن الناس تتبرك بالديك الأفرق: يقول: [وما للديك إلا ما تقول العوام: إنه إذا كان في الدار ديك أبيض أفرق لم يدخله الشيطان] وهذا القول ليس له مايثبته من كتاب أو سنة.

(٢) الأبشيهي، المستطرف ١٨٥؛ ابن نباته، سرح العيون ١٣٧؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان ٢/٢٦٩؛ الجاحظ ، الحيوان ٢/٣٧٤، ٣٧٥؛ الكتبي، فوات الوفيات ٢/٨٤؛ الدميري، كمال الدين، حياة الحيوان الكبرى ١/٦٠٨، ٦٠٩.

(٣) الحيوان ٣/٦٦.

(٤) الأصبهاني، الأغاني ٢٣/٥٦.

(٥) انظر ص ١١٨ من البحث.

العتابي تجوز لنفسه في ذلك، وانتهج مذهباً جديداً مزج فيه بين السخرية والفكاهة، حتى أصبحت هذه الصفة تمثل روح العتابي النرجسية التي تقدس الأنا، وتحقر الغير: [قال عثمان الوراق: رأيت العتابي يأكل خبزاً على الطريق بباب الشام، فقلت له: ويحك، أما تستحي؟ فقال لي: أرأيت لو كنا في دار فيها بقر أكنت تستحى وتحتشم أن تأكل وهي تراك؟ فقال: لا، قال: أصبر حتى أعلمك أنهم بقر، فقام فوعظ وقص ودعا حتى كثر الزحام عليه، ثم قال لهم: روى لنا غيرُ واحد انه من بلغ لسانُه أرنبة أنفِهِ لم يدخل النار فما بقي واحد إلا وأخرج لسانه يومئ به نحو أرنبة أنفه، ويقدِّره حتى يبلغها أم لا، فلما تفرقوا قال لي العتابي: ألم أخبرك أنهم بقر" ؟[1] ومن الفكاهة الساخرة مايرويه الجهشياري له أيضاً يقول: [كان منصور النمري الشاعر مدح الرشيد بقصيدة طويلة، قال فيها:

إنْ أخلفَ القطرُ لم تُخْلِفْ مخايلُهُ ... أوْ ضاقَ أمرٌ ذكرناه فيتّسع

وكان شكا قبل إنشاده هذا البيت إلى كلثوم بن عمرو العتابي عسر الولادة على زوجته، فلما أنشد هذا البيت قال له العتابي: اكتبْ على فرج زوجتك "هارون" فذكر هذا النمري للرشيد فأمر بضرب عُنق العتابي، حتى شفع فيه يحيى بن خالد، واستوهب دمَه، فصفح عنه][2].

وأختم هذا المبحث بذكر الدعابة المتحررة، التي لم يردعها الشرع، ويمثل هذا الاتجاه بشار بن برد، الذي لم يقف كثيراً عند حدود الدين مما حدا بالمؤرخين إلى تجاهل نتاجه النثري بقصد لما يحويه من ساقط القول، ورذيل الكلام، وسأورد بعض مفاكهاته، والتي تمثل انسياق الإنسان وراء أهوائه، واندفاعه خلف شهواته، دون حسيب أو رقيب، يروي العباسي في معاهد التنصيص، يقول: [مر برجل قد رمحته بغلة، وهو يقول: الحمد لله شكراً، فقال له بشار: استزده يزدك، ومر به قوم

---

(١) الأصبهاني، الأغاني ١٣/١١٤؛ الكتبي، فوات الوفيات ٣/٢٢١.

(٢) الجهشياري، الكتاب والوزراء ٢٣٣؛ الحصري، زهر الأداب ٣/٧٠٣ مع اختلاف في الصياغة.

يحملون جنازة وهم يسرعون بها المشي، فقال: ما لهم مسرعين؟ أتراهم سرقوه فهم يخافون أن يُلحقوا فيؤخذ منهم٠٠][1] ويعف القلم عن ذكر المزيد من هذه الدعابات، ولعل ماذكر فيه إشارة إلى ماوراءه من تساهل في الدين، واستهزاء ببعض أحكامه سواء أكان ذلك بقصد أو بغير قصد.

---

(١) ٢٩٤/١، ٢٩٥؛ ودائرة المعارف الإسلامية ، دار الفكر، ٦٥٠/٣.

هـ - الحكمة :

الحياة مدرسة كبيرة ينتسب إليها الإنسان طوعاً أو كرهاً، ويكون نجاحه فيها بقدر خبراته، وإفادته من حكم السابقين وتجاربهم.

وعلى الأريب أن ينهل من تلك التجارب في كبير أمره وصغيره، فما هي إلا اختصار للزمن الطويل، والدهر المديد، وكفاية له من خوض غمار التجارب، مع جهل بالمآل يقول علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - لابنه: [أي بني لما رأيتني قد بلغت سناً، ورأيتني أزداد وهنا، بادرت بوصيتي إليك.. استقبل بجد رأيك من الأمر ما قد كفاك أهل التجارب بغيته وتجربته، فتكون قد كفيت مؤونة الطلب، وعوفيت من علاج التجربة](١).

وهذه الحكمة لم يبلغها الأوائل إلا بعد كد ومجاهدة، فهم السابقون إليها، ونحن اللاحقون في تمثلها والسير على منوالها، يقول ابن المقفع في حديثه عن فضل الأقدمين: [ووجدناهم لم يرضوا بما فازوا به من الفضل الذي قُسِمَ لأنفسهم، حتى أشركونا معهم فيما أدركوه من علم الأولى والآخرة، فكتبوا به الكتب الباقية، وضربوا الأمثال الشافية، وكفونا مؤونة التجارب والفطن](٢).

وتأخذ الحكمة مذهب الإيجاز البليغ، والاختصار الشديد، فالرجل منهم قد عرك الحياة، والحياة عركته، حتى أحكمته التجارب بعد امتحان، ومحصته بعد اختبار، فلم يشأ أن يودع دنياه بدون أن يوصى بما أدركه في سني حياته، يقول د/ صالح آدم: [والذين يبتدعون هذه العبارات القصيرة الموجزة القوية في تصويرها وينشئونها هم في العادة أشخاص ذوو خبرة واسعة بالحياة، وأصحاب تبصُّر بأحوالها عميق](٣).

---

(١) الشريف الرضي، نهج البلاغة، ١٨٢/٢، ١٨٣.
(٢) الأدب الكبير والأدب الصغير، دار الجيل، بيروت، ص ٨.
(٣) فصول وقطوف ٧ .

ولمترسلي الشعراء في هذا الجانب عطاء جيد، وإن كان تأثرهم بحكمة عليٍّ يبدو هنا واضحاً جداً، فقد أخذوا معانيه وألبسوها ألفاظاً من عندهم، بل وقد يأخذون معناه ولفظه ولا يحدثون تغييراً إلا في اليسير، ولعل هذا من الأمور الطبيعية فليس من العيب الإفادة من علي، ولكن العيب هو عدم رد الفضل لأهله، وعلى هو صاحب الفضل لذا كان قبلة الفصحاء لفصاحته، والعلماء لعلمه، والحكماء لحكمته، فكان – رضي الله عنه – مفتاحاً للعلوم.

وتأخذ أقوال المترسلين ضروباً من أمور الدنيا والدين، فهي لا تقتصر على ميدان دون آخر، ولكنها تتشعب بتشعب الحياة.

ومنها ماسطره سهل بن هارون، كتب: [من طلب الآخرة طلبته الدنيا حتى توفيه رزقه فيها، ومن طلب الدنيا طلبه الموت حتى يخرجه منها][(١)] ولك أن تقارن بين هذا النص وبين قول علي – كرم الله وجهه – وسيبدو التقارب بين النصين كبيراً في المعنى واللفظ، قال: [الرزق رزقان: طالب ومطلوب، فمن طلب الدنيا طلبهُ الموت حتى يخرجه عنها، ومن طلب الآخرة طلبته الدنيا حتى يستوفي منها رزقه][(٢)] ومن مأثورهم الذي يتزين بالحكمة قول العتابي في وصاة: [إن طلبت حاجة إلى ذي سلطان فأجمل في الطلب إليه، وإياك والإلحاح عليه، فإن الحاحك يَكْلِمُ عِرْضَكَ، ويريق ماء وجهك، فلا تأخذ منه عِوضاً لما يأخذ منك، ولعل الإلحاح يجمع عليك إخلاق ماء الوجه وحرمان النجاح، فإنه ربما ملّ المطلوبُ إليه حتى يستخف بالطلب][(٣)] وهذه حقيقة لا مراء فيها، يلمسها الإنسان منا في داخله إذا ما أثقل عليه آخر بالإلحاح، وتكرار الطلب، وفي هذا يقول سهل بن هارون: [من ثقل عليك بنفسه، وغمك بسؤآله، فأعره أذناً صماء، وعيناً عمياء][(٤)].

والعتابي لا يقول مالا يفعل بل يفعل مايقول:[كلم يحيى بن خالد –ذات يوم–

(١) العسكري، الصناعتين ٣٤٢؛ ابن المعتز، البديع ٤٦.
(٢) الشريف الرضي، نهج البلاغة ٢/٤٠٤.
(٣) ابن عبد ربه، العقد الفريد ١/٢١٢.
(٤) المصدر السابق ٢/١٥٣.

في حاجة بكلمات قليلة، فقال له يحيى: لقد نَدَرَ كلامُك اليوم وقل، فقال له: وكيف لايقل وقد تكنفني ذلُّ المسألة، وحيرة الطلب، وخوف الرد؟ فقال: والله لئن قلَّ كلامُك لقد كثرت فوائدُه، وقضى حاجته](١) والعتابي كسابقه ينهل من حكمة علي - رضي الله عنه - ويتأثر بنهجه، ويأخذ عنه، استمع إلى قوله - كرم الله وجهه - وسترى حجم الاقتداء، يقول: [يمنع البليغَ عن المسألة أمران: ذلُّ الطلب، وخوف الرد](٢) ويقول العتابي أيضاً في حسن اختيار الكاتب والحاجب [إذا وليت عملا فانظر من كاتبك، فإنما يعرف مقدارك من بعد عنك بكاتبك، واستعقل حاجبك، فإنما يقضي عليك الوفود قبل الوصول إليك بحاجبك، واستكرم واستظرف جليسك ونديمك، فإنما يوزن الرجل بمن معه](٣) وقال في ذات المعنى: [كاتب الرجل لسانُه، وحاجبه وجهه، وجليسه كله، ونظم في ذلك شعراً فقال:

لسان الفتى كاتبه ... وَوَجْهُ الفتى حاجبه

وَنَدْمَانُه كلُّه ... وكلٌّ له واجبه](٤)

ولست هنا أريد التمحل في رد الفضل لعلي - كرم الله وجهه - في أي نص يكتبه العتابي أو غيره من المترسلين، ولكني رأيت شديد تعلقهم بحكمته، وانعكاس ذلك على مأثورهم بالمعنى والمبنى غالباً، قال علي بن أبي طالب في ذات الموضوع: [لايكن لك إلى الناس سفيرٌ إلا لسانك، ولا حاجب إلا وجهك](٥).

وماذكرته في النصوص السابقة يمثل التأثر المباشر، والاقتداء الصريح،

(١) الأصبهاني، الأغاني ١١٤/١٧، في وفيات الأعيان ١٢٤/٤ [قال مالك بن طوق العتابي: يا أبا عمرون رأيتك كلمتَ فلاناً فأقللت كلامك، قال: نعم كانت معي حيرة الداخل، وفكرة صاحب الحاجة، وذل المسألة، وخوف الرد، مع شدة الطمع] وانظر: الكتبي، فوات الوفيات ٢٢٠/٣؛ البغدادي، تاريخ بغداد ٤٩١/١٢.

(٢) الشريف الرضي، نهج البلاغة ٣٦٠/٢.

(٣) المسعودي، مروج الذهب ١٦/٤.

(٤) المصدر السابق ١٥/٤، ١٦.

(٥) الشريف الرضي، نهج البلاغة ٢٨٩/٢.

والنقل الحرفي دون أن يكون للاحق فضل على السابق، وهو ماقد يفسر بأنه نوع من السرقات الأدبية.

أما الابداع فهو الافادة من معاني الحكمة ثم صياغتها في قالب جديد، تزداد الحكمة به تجدداً، وتنشط لها الأذهان، وتقبل عليها النفوس، يقول الحسن بن وهب – وقد أخذ معنى من حكمة على وأحسن في صياغته – [اعلم أن المودة لا تتم مادامت الحشمة عليها مسلطة](١) وهو نفس المعنى الذي ذكره الإمام علي – كرم الله وجهه – في قوله [إذا احتشم المؤمن أخاه فقد فارقه](٢) ونلحظ بين النصين فرقاً في الصياغة كبيراً، واتفاقاً بينهما في المعنى عميقاً، وكلاهما يدعو إلى نبذ الحشمة بين الخلان لأنها تحيل العلاقة إلى تكلف مقيت، لا ترتاح معها النفس ولا تطمئن، ومن ثم يحدث الفراق كثمرة من ثمار الحشمة في غير موقعها، لذا نجد محمد بن عبد الملك الزيات يأنس بأهل البلادة، ويستوحش من أهل الذكاء، فسئل عن ذلك فقال: [مؤونة التحفظ شديدة](٣) وهو معنى لطيف وصحيح في الآن معاً، ومقتبس بصورة ذكية من قول الإمام – رضي الله عنه – [شرُّ الإخوان من تكلف له](٤)

ولا يعني نبذ الحشمة إطلاق النفس على أهوائها دون ضابط، تتجول في مراتع السوء، وتتساق وراء لهو القول والفعل وساقطهما، فالدين رادع، ومنظم لحياة الإنسان، والمروءة صفة يتحلى بها الرجال، سئل العتابي عنها – أي المروءة – فقال: [إخفاء مالا يستحيا من إظهاره، ومواطأةُ القلب اللسان](٥).

وإذا ما انتقلنا إلى مجال السياسة نجد لهم رؤية معبرة، وحكمة مكتسبة، يقول العتابي: [المداراةُ سياسة رفيعة، تجلب المنفعة، وتدفع المضرة، ولا يستغني

---

(١) الأصبهاني، محاضرات الأدباء ٢٤٩.
(٢) الشريف الرضي، نهج البلاغة ٢/٤١٤.
(٣) ابن عبد ربه، العقد الفريد ٣/١٦٦.
(٤) الشريف الرضي، نهج البلاغة ٢/٤١٤.
(٥) الوشاء، الظرف والظرفاء ٩٥.

عنها ملك ولا سوقة، ولايدع أحدّ منها حظه إلا غمرته صروف المكاره][1] وهذه هي السياسة العامة في التعامل مع الآخرين، وليست السياسة بمفهومها السائد المحدود، وإن كانت هي الأخرى تعتمد على المداراة لتجنب المكاره، واجتلاب المنافع.

وتقوم السياسة على العدل بين الرعية، يقول العتابي: [مما يعين على العدل اصطناع من يؤثر التُقى، واطِّراح من يقبل الرُّشا، واستكفاء من يعدل في القضية واستخلاف من يشفق على الرعية][2].

وهي مقومات إسلامية تعين حقيقة على العد ل، أساس أي دولة ترنو إلى الاستقرار والأمن؛ وأختم أقوالهم في الحكمة، بقول العتابي أيضاً عن الشيب، بداية النهاية للوجود الإنساني، يقول: [الشيب نذير المنية][3].

---

(١) الحصري، زهر الآداب ١٠٥٦/٤.
(٢) ابن منقذ، لباب الآداب ٥٥.
(٣) الحصري، زهر الآداب ٩٧١/٤.

الباب الثاني:

الدراسة الفنية

ويشتمل على فصلين:

الفصل الأول: خصائص نثرهم، وسماته.

الفصل الثاني : الموازنة.

الفصل الأول

خصائص نثرهم وسماته

ويحتوي على مبحثين

المبحث الأول: شاعرية النص وموسيقاه

المبحث الثاني: الاسلوب الجدلي والتشكيل الفني

تمهيد

لم يكن نصيب الدراسات الفنية النثرية أحسن حظاً من النثر الفني نفسه، فكما لقي الأخير عقوقاً من الدارسين، لقيت دراساته الفنية العقوق ذاته ممن قاموا بهذا الدور.

وإذا ما تصفحنا الأبحاث التي عنيت بالنثر الفني – قديماً وحديثاً – وجدناها لا تخرج عن جمع متفرق، وتصنيفه حسب العصور، أو الموضوعات، أو الفنون، أو المدارس الأدبية، أو الشخصيات .. وقد بذلوا جهوداً – تحمد لهم – في استجلاء صور الحياة في تلك العهود، من النواحي الاجتماعية والسياسية والعقلية وذلك من خلال النصوص النثرية، إلاّ أنهم أهملوا إبراز خصائص تلك الأعمال وسماتها الأدبية، وإذا أمعنت النظر فيها آملاً أن تجد ما تتمناه فسوف تصدم بمرارة الواقع، ذلك أنك لن تظفر منها بشئ، ولن تجد فيها غناء، إلا لمحات بسيطة، ونظرات يسيرة.

على أنها في مجملها أثرت المكتبة العربية المفتقرة إلى هذا الفن، وقد أفاد الباحث منها في عمله هذا، ولو لم يكن لها من فضل عليه إلا تلافي ماوقعت فيه من قصور لكان ذلك خيراً كثيراً اعترف به وأقر، هذا فضلاً عما اشتملت عليه من فوائد أكبر من ذلك وأجل، ولا يحسن بي ولا لغيري من المحدثين أن يقلل من جهود الأسبقين، ويسفه أعمالهم، وكأن الحياة رهن على هذا الصراع المقيت بين القديم والجديد، والموروث والمعاصر، فلهم فضل الريادة، ولنا الاجتهاد – بعد ذلك– والإضافة، وعلى هذا النحو ينبغي أن تقوم حياتنا الأدبية.

المبحث الأول

شاعرية النص وموسيقاه

تطور النثر الفني تطوراً ملحوظاً على أيدي المبدعين من الشعراء وسنبين في هذا المبحث – إن شاء الله – دلائل هذا التطور بادئين بالنظر في:

أ – الألفاظ والتراكيب:

لكل فن من الفنون مادته التي يقوم عليها، وأدواته التي يعتمد عليها، فالرسم – مثلاً – مادته الخطوط والألوان، والموسيقى مادتها النغم والألحان، وعلى ذلك تجرى الفنون كافة، أما الأدب بمختلف أجناسه فمادته الألفاظ.

ويكون إبداع الأديب بقدر نجاحه في اختيار مادته، وتوفيقه في انتقاء مايخدم فنه، ثم نظم تلك الألفاظ بشكل مؤثر يتولد منه ذلك السحر الذي عُرف به الابداع الفني المتميز.

وسنتناول في هذا المبحث ثلاثة محاور مهمة:

١ – المعجم اللغوي.

٢ – توازن الكلمات.

٣ – شاعرية النثر.

١ - المعجم اللغوي:

إنّ من اليسير على دارس الأدب أنْ يدرك في غير عناء اللغة ومفرداتها في الشعر الجاهلي، أو عند شاعر بعينه مثل المتنبي، أو عند مجموعة من الشعراء، وذلك لاهتمام نقاد الشعر بإبراز لغته في عصوره المختلفة، ولا يتأتى لهم ذلك إلا من خلال تتبع المفردات الدائرة في أشعارهم، يضمها مايعرف بالمعجم اللفظي. ومن فوائده تجلية السياق الأدبي العام.

ورأيت من الصالح أن أستعين بهذا المنهج في دراسة ألفاظ الكتَّاب حتى نرى اللغة النثرية عند مجموعة المترسلين الشعراء، وهي في الأغلب لن تخرج عن اللغة الشائعة بين أدباء ذلك العصر. وأحسب أن فكرة كهذه جديرة بإثراء الدراسات الفنية النثرية حول الألفاظ، فلم يكن حظها فيما سبق يتفق مع أهميتها في النقد الأدبي، وأثرها في البناء الفني.

وأحسب أيضا أنها فكرة مستحدثة لم يسبق لأحد من قبل أن طبقها على النثر، وسأبدأ - إن شاء الله - بالإبانة عن المعجم اللغوي لكل غرض من أغراض الرسائل بادئاً بـ :

أ – الرسائل الرسمية:

الحق والدين، والأناة والنظرة، والعدل ثم الأولياء منظومة لفظية يدرك الناظر إليها، والمتأمل فيها، اختصاصها بالجانب الرسمي من الرسائل، ولا نعني بهذا أنها لا توجد في غيرها من فنون النثر الفني، بقدر ما نعني شيوع استعمالها في هذا الضرب من الرسائل، مما أكسبها هذه الخاصية، فهي الرموز المبلغة عن سياسة الدولة في التعامل الخاص والعام.

[الحق]

تتواتر هذه الكلمة في رسائلهم، وتتخذ أنماطاً تنظيمية تشكل نوع الحياة الدينية بين الخالق والمخلوق، وتبين الهيئة السياسية بين الرئيس والمرؤوس، يقول ابن الزيات: [إن من أعظم الحقِّ حق الدين ·· فحقيق لمن راعى ذلك الحق·· أن يراعى له حسب مارعاه الله ··](١).

ولولاة الأمر حق يجب أداؤه كاملاً غير منقوص، ويجب القيام به دون تراخٍ أو تسويف، يقول ابن الزيات – وهو الخبير السياسي الذي أحكمته التجربة –: [إن الله أوجب لخلفائه على عباده حق الطاعة والنصيحة ··](٢) فالطاعة واجبة وإذا حل مكانها العصيان عمت الفوضى، وانتشر ضررها على المجتمع بأسره، لا فرق بين عظيم وحقير، وسيِّد ومسود، فالبلاء ينال من الأمة حينذاك، لذا نجد ابن الزيات من موقعه السياسي يشدد على وجوب الطاعة، اتباعاً لمنهج الله.

ولخاصة الخليفة – ممن بيدهم الحل والعقد – حقوق أيضاً يجب مراعاتها، يقول ابن الزيات: [إن حق الأولياء على السلطان تنفيذ أمورهم···](٣).

---

(١) انظر ص ٦٤، من البحث.
(٢) انظر ص ٦٢، من البحث.
(٣) انظر ص ٦٣، من البحث.

ويستخدم سعيد بن حميد هذه اللفظة في الاتجاه ذاته، يقول في مدح محمد بن عبد الله بن طاهر: [٠٠٠ فقام بحق الله، وحق خليفته ٠٠٠][١] فاستحق الثناء لقيامه بأداء الحقين، حق الله أولاً وحق خليفته ثانياً، وهذا الاستخدام في تقديم ما لله، وتأخير ما للخليفة، دليل براعة من الكاتب، وأدب مع خالقه.

وتتكرر هذه اللفظة كثيراً عند سعيد بن حميد، يقول في تحميده [٠٠ والناصر فلا يكون نصره إلا للحق وأهله٠٠][٢].

مما تقدم نستبين تقليد الأداء، ونمطية التوظيف، فهذه الكلمة لم تشذ – هنا– عن المألوف في الاستعمال العربي، وإن تشكلت بحسب المقامات، فالحقوق كثيرة، ولكل منها دلالته الخاصة، فحق الله مغاير لحق الخليفة، ومختلف عن حق الرعية.

[الدين]

والدين يأتي أحياناً – في صياغاتهم – مقترناً بالحق، وهذا التلازم مؤداه أن الدين هو الحق، والحق هو الدين، يقول ابن الزيات: [٠٠٠ أعظم الحق حق الدين وأوجب الحرمة حرمة المسلمين٠٠٠][٣] ويقول سعيد بن حميد في شكر الله على نعمه: [٠٠ الذي جعل دينه لعباده رحمة٠٠٠][٤] ويقول أيضا في الدعاء على الخارجين: [٠٠ والحمد لله الذي حكم بالخذلان على من بغي على أهل دينه٠٠٠][٥] ويذم الفرقة التي نبذت الدين، ولم تلتزم بأحكامه وشرائعه، يقول: [٠٠ فيما أحدثته الفرقة الضالة عن سبيل ربها، المفارقة لعصمة دينها٠٠٠][٦].

(١) انظر ص ٦٩، من البحث.
(٢) انظر ص ٦٨، من البحث.
(٣) انظر ص ٦٤، من البحث.
(٤) انظر ص ٦٨، من البحث.
(٥) انظر ص ٦٩، من البحث.
(٦) انظر ص ٦٩، من البحث.

وعلى هذا النحو أدخلوا الدين كمفردة إسلامية في شئون السياسة والحكم حتى تنقاد لهم الأمة انقياداً دينياً، يسهل عليهم بعد ذلك تصريف أمور الدولة في أمن واستقرار.

[الأناه والنظرة]

إن من ألزم أدوات الحاكم الحكيم سعة الصدر، والروية، إذْ أن الأمر لا يخلو من تجاوزات قد تقع في ملكه، وعلى خلاف رغبته، فإن كان متصفاً بالتسرع والغضب، أتت الأمور على خلاف مايحب، وعلى غير مايرجو، فيكون إصلاحه – حينذاك – فساداً، وعلاجه وبالاً، في حين كان يأمل في الاستقرار، يقول ابن الزيات في خطاب بعض عماله، وقد أبان عن سياسة خليفته: [٠٠ لولا ما يلقاك به أمير المؤمنين من الأناة والنظرة والأخذ بالحجة٠٠][(١)].

ويستعين سعيد بن حميد بهاتين اللفظتين أيضاً في إلقاء الضوء على سياسة الحاكم مع الخارجين على الدولة، يقول: [٠٠ وما قابل به أمير المؤمنين خيانتهم وآثره من الأناة في أمرهم٠٠][(٢)] ويقول أيضاً في ذات المعنى [٠٠ فتأناهم أمير المؤمنين، وفسح لهم في النظرة٠٠][(٣)].

وهذه المعاني الرسمية قد يعالجها غيرهم بألفاظ أخرى، وأساليب شتى، بينما آثر الرجلان – ابن الزيات وابن حميد – هاتين اللفظتين لعميق معناهما، ودقتهما في تصوير النهج السياسي المعتدل، ويبدو من التعبيرات السابقة هذه التوأمة بين اللفظتين فلا تكاد تنفك إحداهما عن الأخرى، غير أن الأناة تسبق النظرة، فالأولى نستشف منها التريث مع الأمل في رجوع المخطئ إلى صوابه، بينما الثانية تدل على التحفز وايقاع العقاب به إذا استمر التمادي في الغي، لكننا نستبطن من قول

---

(١) انظر ص ٦٤، من البحث.

(٢) انظر ص ٧٠، من البحث.

(٣) انظر ص ٧٠، من البحث.

ابن الزيات الصفح عما سلف من ذنب مع التحذير فيما يستقبل من أعمال، بيد أن نده ابن حميد يلجأ إلى التبرير لما حدث من حرب، وما وقع من دمار، ذلك ما ينطق به السياق العام.

[العدل]

وهي من المفردات الدائرة في الرسائل الرسمية عامة، ذلك أن الحكم لا يقوم إلا على قواعد أساسية يأتي في طليعتها تحقيق العدل، يقول ابن الزيات: [٠٠ ولعبيده على خلفائه بسط العدل٠٠][١] والرجل يوظف هذه اللفظة توظيفاً مباشراً، بيد أن ابن حميد يتحدث بمنطق المنتصر، فالنشوة بادية على ألفاظه، فالعدل عنده منحة من الله يهبها لأهل الحق، في إشارة خفية منه إلى أنه وقومه هم الأولى بها يقول: [٠٠ وأحكامه عادلةٌ لأهل الحق عليهم٠٠][٢] وحين قال في تحميده عندما منّ الله عليهم بالنصر: [٠٠ والحكم العدل فلا يرد حكمه٠٠][٣] نلمس هذا العمق في أداء المعنى الدقيق، إذ أنْ تحميده يشع بإيحاءات كثيرة، ودلالات بعيدة، فالمسألة خرجت من نطاق الحكم البشري، وما قد يعتريه من نقص وخطأ، إلى حكم من اكتملت فيه الصفات، فلا مظنة مع حكمه للجور والظلم، لذا كان نصره عدلاً لأصحاب الحق. وسوف نتعرض لهذه الجملة – إن شاء الله – ونبين أثرها في البناء الفني في موضعه[٤] من البحث إن شاء الله.

ونرى فيما تقدم هذا التفاوت في الاستعانة بهذه اللفظة فراوحت بين سطحية ووسطية، وعميقة الدلالة، على نحو العرض السابق.

[الأولياء]

لا ريب في أن الحاكم محتاج إلى رجال يعينون، وأولياء ينصرون، لذا نجد

(١) انظر ص ٦٢، من البحث.
(٢) انظر ص ٧٠، من البحث.
(٣) انظر ص ٦٨، من البحث.
(٤) انظر ص ٢٤٨، من البحث.

هذه المفردة متناثرة في ثنايا مكاتباتهم الرسمية بغزارة، وهي لا تعدو معاني الولاء من طاعة ونصرة وإخلاص، إلى معانٍ أخرى، ودلالات مستجدة.

وللأولياء في عُرف الساسة حقوق أيضاً، يفصح عنها ابن الزيات في قوله: [٠٠ إن حق الأولياء على السلطان تنفيذ أمورهم٠٠][١].

ويستكثر ابن حميد من هذه اللفظة بالدلالة نفسها، يقول: [٠٠ وإعزازه لأوليائه][٢].

ثم يبدأ التصاعد في بناء المأساة، فنذر الحرب بدأت بالموعظة [٠٠ فبدأهم الأولياء بالموعظة٠٠][٣].

ويعيد الألفاظ ذاتها مقرونة برد فعلهم في عدم انصياعهم للحق [فبدأهم الأولياء بالموعظة فلم يسمعوا٠٠][٤] ثم تنتهي هذه النذر إلى الخاتمة التي أنبأت عنها مطالعها، وأخبرت بها أوائلها، وهو خلال ذلك يبرئ ساحة مولاه من الحرب وأوزارها، يقول: [٠٠ ولم تزل الحرب بين الأولياء وبين الفرقة٠٠][٥].

فكان تصويره للمأساة منصباً على "الأولياء" فلهم الدور الإنساني في الإعذار والإنذار، ثم كان لهم الدور البطولي في البلاء والانتصار، والتدرج في بناء المأساة عند الرجل كان يركن إلى منطق الأحداث، فبدأ مع شرارتها الأولى، وانتهى مع ما أحدثته من دمار وخراب. فأدت هذه اللفظة – عنده – دوراً بارزاً في بناء العمل، وأحكمت تماسكه.

---

(١) انظر ص ٦٣، من البحث.
(٢) انظر ص ٧١، من البحث.
(٣) انظر ص ٧٠، من البحث.
(٤) انظر ص ٧١، من البحث.
(٥) انظر ص ٧١، من البحث.

والألفاظ السابقة هـي اللغـة المشـاعة بينهم فـي التعبير عـن سياسـة الدولـة، وليس معنى هذا اقتصار رسائلهم السياسية على تلك الكلمات فحسـب، بـل نجـد إلـى جوارهـا جملـة مـن الكلمـات المسـاندة والمهمـة مـن مثـل الطاعـة والفرقـة، والبغـي والضلال.. ولكن الباحث اكتفى بذكر الكلمات القليلة الآنفة، لدورانها في كتابـاتهم، وتواتر استخدامهم لها، وهذا هو المقصود بالمعجم اللغوي.

ب – ألفاظ الإخاء والصداقة:

الإخاء والود والوحشة والشوق، والقرب والبعد، ثم المكاتبة، جملة من الألفاظ الدالة على مكنون النفس العامرة بالحب، والمتوثبة في جموح ورغبة إلى إنشاء الصداقة، وإقامة العلاقة، على أسس قوية من هذه المعاني السامية.

[الإخاء]

وهي من معطيات الإسلام الداعي إلى التآخي في الله، والى تعميق الصلات بين الأمة الواحدة على هذا الأساس، لذا نجد الأصفياء من الأصدقاء يلجأون إلى "الأخوة" لوصف خلجات نفوسهم، وما تكتنزه من خالص الحب، فهذا محمد بن عبدالملك الزيات يكرر هذه اللفظة مرتين في رسالة موجزة، يقول: [٠٠ وأنا أخوك الذي لايزايله قرب الدار ولا بعدها٠٠ وأنا أخوك الواد لك٠٠][(١)] فهذه الألفاظ بما تحمله من معان تسامت على المصالح الآنية، تحدث في النفس ارتياحاً، ولعلها أحدثت شيئاً من الالتقاء الروحي، والتواصل النفسي، بين كاتبها ومتلقيها الأول، لما تحلت به من صدق فني في الشعور والاحساس.

ويكرر ابن الزيات اللفظة نفسها، يقول في التحبب إلى صديقه، وقد خفض له جناح الإخاء، [يا أخي مازلت عن مودتك، ولا حلت عن أخوتك٠٠][(٢)] فالنداء مع إضافة ياء المتكلم إلى الاخوة أعطاها عذوبة العلاقة، وصدقها، وعمقها، لعل لفظ الاخاء يذهب في النفس إلى أبعاد بعيدة، هي صلة الرحم والدم فتستجيب لها النفس بالغريزة.

---

(١) انظر ص ٧٤ من البحث.

(٢) انظر ص ٧٥من البحث.

[الود]

وهي صنو الإخاء في زرع المحبة بين الأصدقاء، وزيادة التقريب بينهم، وكثرة استعمالهم لها دليل على التجانس الذي كان يربطهم، والآصرة النقية التي أدخلتهم في جوهر الصداقة الصادقة، يقول محمد بن عبدالملك الزيات وقد أكثر من ترديد هذه اللفظة: [وأسباب المودة موصولة بحفظ المغيب، وأنس المشهد•• وإن مودات أهل الإخاء محوطة بالوفاء•• وأنا أخوك الواد لك••](١).

ومن رسالة أخرى يقول: [•• مازلت عن مودتك••](٢).

وعلى هذا النحو تسير مكاتباتهم حاملة في طياتها وفاء وودا، سعياً وراء تأصيل صداقاتهم، وترسيخها، وأملاً في زيادة مساحة الحب بينهم، يقول الحسن بن وهب: [•• وحفظي لك في مغيبك كمودتي لك في مشهدك•• فامنحني من مودتك••](٣) وسعيد بن حميد يهدي مودته إلى صاحبه رغبة في التقرب إليه، والاستئناس به، يقول [•• إني أهديت مودتي رغبة إليك••](٤) ومن رسالة أخرى يذيلها ببيت من منقوله يذكر فيها الود يقول:

فسر أو فقف، وقف عليك مودتي   مكانك من قلبي عليك مصون](٥)

وأبو علي البصير يقول بعد أن تأكد وده من عوادي الزمان: [قد أكد الله بيننا من الود ما نأمن الدهر على حل عقده••](٦) وأمان الدهر محال، ولكن فسحة في الأمل والاستبشار هما مادعياه إلى هذه الثقة، ويقول أيضاً: [•• مقيم

---

(١) انظر ص٧٤ من البحث.
(٢) انظر ص٧٥ من البحث.
(٣) انظر ص٧٤ من البحث.
(٤) انظر ص٧٦ من البحث.
(٥) انظر ص٧٥ من البحث.
(٦) انظر ص٧٦ من البحث.

على عهده، غير معتاض من وده٠٠][1] وقد تحتمل القسوة، وتغتفر الهفوة، في سبيل المودة القائمة، يقول العتابي [فاحتملنا قسوتك لعظيم قدر مودتك٠٠][2].

فهي لفظة وظفت في مكانها خير توظيف، تفاوتت في المعنى يسيراً بحسب السياق، وإن اتفقت في السير بالصداقة قدماً.

[القرب والبعد]

ويستخدمون هاتين اللفظتين لتأكيد الصلة وتوثيقها تارة، وللعتاب أخرى، حين تصرفهم الحياة بمشاغلها عن لذة اللقاء، يقول محمد بن عبد الملك الزيات في الأولى: [٠٠ وأنا أخوك الذي لا يزايله قرب الدار ولا بعدها٠٠][3] وفي الثانية يقول سعيد بن حميد: [٠٠ وكان مما زاد في الوحشة أنها جاوزت الأمل المتمكن في الأنس بقرب الدار، وتداني المزار٠٠][4] ويكرر عتابه أيضاً، يقول: [مثلنا - أعزك الله - في قرب تجاورنا وبعد تزاورنا كما قال الشاعر٠٠٠][5] ويقول أبوعلى البصير في المعنى نفسه: [وعلى - أبي فلان - سلام صب إلى قربه، مستوحش من بعده ٠٠][6].

ونلحظ من صياغاتهم السابقة كافة، تقديم القرب، وتأخير البعد، كناية عن الأمل الذي يحدوهم إلى لقاء، وثقة بالصداقة ومعطياتها من ودٍّ وإخاء.

---

(١) انظر ص٧٥ من البحث.
(٢) انظر ص٧٨ من البحث.
(٣) انظر ص٧٤ من البحث.
(٤) انظر ص٧٧ من البحث.
(٥) انظر ص٧٨ من البحث.
(٦) انظر ص٧٥ من البحث.

[الوحشة والشوق]

البعد يولد الوحشة، ويزيد من لواعج الشوق، ويؤجج حرارة العاطفة في صدورهم، ثم هم بعد ذلك يطلقون العنان لألسنتهم لإظهار ما استبطنوه من أحاسيس ومشاعر، رجاء في لقاء يلفهم، وموعد يجمعهم، وهو الهاجس الذي يطغى على مكاتباتهم الأدبية الخاصة، يقول الحسن بن وهب: [سروري- أعارني الله حياتك – إذا رأيتك كوحشتي إذا لم أرك٠٠][(١)] فالسرور في اللقاء، والسعادة به لا يطفئ ظمأ الوحشة عنده لشدة تعلقه به، فأصبح اللقاء مثل الفراق، كلا الأمرين يوحشه، وهو معنى دقيق وعجيب في التعبير عن خلجات النفس الشاعرة.

أما أبو علي البصير فإنه يقابل الوحشة في البعد بالوفاء لصاحبه، والإخلاص له، يقول في هذا المعنى: [٠٠ مستوحش من بعده، مقيم على عهده٠٠][(٢)] ويعبر سعيد بن حميد عما تجيش به نفسه من وحشة ورجاء، وشوق وأمل، يقول: [كتابي والله يعلم كيف وحشتي لك، لا أوحشك الله من نعمة ٠٠ وكان مما زاد في الوحشة أنها جاوزت الأمل٠٠][(٣)] ونلمح هذا التكرار للفظة ذاتها استجابة لتلك الرغبة المستكنة في نفسه، غير أن هذه الحدة قد تخفت ويأتي الشوق عوضاً عنها، يقول العتابي: [٠٠ أنت أحق من اقتص لصلتنا من جفائه، ولشوقنا من إبطائه٠٠][(٤)] فالعتابي هنا جعل أمر صاحبه في يده، فإما أن يتمادى في الأولى بعداً وجفاء، أو يسارع إلى الثانية شوقاً ووفاءً، وهي من الأساليب الذكية ذات الأثر السريع.

---

(١) انظر ص٧٤ من البحث.
(٢) انظر ص٧٥ من البحث.
(٣) انظر ص٧٧ من البحث.
(٤) انظر ص٧٨ من البحث.

واللقاء القصير لا يطفئ لوعة الشوق، ولا يبل الصدى، يقول سعيد بن حميد أيضاً: [٠٠ ولقد التقينا قبل وصول كتابك لقاء أحدث قطراً، وهاج شوقاً٠٠][1].

[المكاتبة]

وهي من ألفاظ الصداقة، يستحث بعضهم بعضاً إلى فضيلتها إذا ما حال الوقت بينهم في اللقاء، فتقوم المكاتبة بدور التواصل، يقول محمد بن عبد الملك الزيات [٠٠ ومتى لم تعمر بالمكاتبة، وفي المشهد بالمؤانسة٠٠][2] ويقول الحسن ابن وهب: [٠٠ وكتابي إليك وشطر قلبي عندك٠٠][3] والمكاتبة لا تغني عن اللقاء، ولا تقوم مقامه في كل الأحوال، يقول سعيد بن حميد: [٠٠ ولو كنت في كل يوم أكتب إليك كتاباً ٠٠ لكان ذلك دون القصد٠٠][4].

---

(١) انظر ص٧٩ من البحث.

(٢) انظر ص٧٤ من البحث.

(٣) انظر ص٧٥ من البحث.

(٤) انظر ص٧٧ من البحث.

جـ – ألفاظ الرثاء:

إن المعجم اللفظي في الرثاء عند مترسلي الشعراء لا يخرج عن نظائره عند سائر الكتاب، فقد اعتادوا على نمطية من التعبير توارثوها، واقتفوا أثرها غالباً من نبع القرآن الكريم، ومعينه العذب، وذلك لأن النفس المكلومة محتاجة إلى بلسم يشفيها، ودواء يخفف من آلامها، ولا يتهيأ ذلك لغير القرآن، ولعل أول ما يطالعنا من ألفاظهم في هذا الجانب كلمتا.

[النبأ والخبر]

فأيهما أبلغ في التعبير، وأدق في التصوير؟ الأولى منهما تدل على حجم المأساة وأثرها، يقول الحسن بن وهب مصوراً شديد تأثره، ومعبراً عن عميق أسفه: [٠٠ وقد ورد – أعز الله الأمير – ماكان من النبأ العظيم، والخطب الجليل٠٠][١]

أما الثانية فإنها توحي بسماع خبر من جملة الأخبار التي اعتادتها الأذن، والتي تمر بالإنسان غير مؤثرة في حياته، يقول سعيد بن حميد: [ورد عليّ الخبر٠٠][٢].

وليس من شك في أن بين اللفظتين تفاوتاً كبيراً في دقة المعنى، وبراعة التصوير، فالنبأ لايرد إلاّ في الجليل من الأخبار، والخطير من الأمور، يقول تعالى: (عم يتساءلون عن النبأ العظيم)[٣]، فاكتسبت هذه اللفظة "النبأ" ظلالها من الأسلوب القرآني، واستمرت كذلك في الأساليب العربية، ورغم أن التصوير لا يتأتى للفظة المفردة بمعزل عن السياق، إلا أن هذه اللفظة يمكن أن تقوم بدور التصوير، لما

---

(١) انظر ص ٩٣ من البحث.
(٢) انظر ص ٩٣ من البحث.
(٣) النبأ، ٢.

اكتسبته من ظلال القرآن حتى أصبحت لا تنفك عن ذلك، فبمجرد سماعها يستدعى اللاشعور قدر الأهمية، ثم يأتي السياق مساعدا لها في استكمال الصورة، بينما الخبر هو ما اعتادت الأذن سماعه - كما قدمت - فلا يحمل أمراً خطيراً، ولا يدل على أهمية واضحة، ومن هنا كان إبداع الحسن ونجاحه، وإخفاق سعيد بن حميد وفشله، لأن الأول كان بارعاً في تصوير الحدث في حين أن الثاني لم يوفق في ذلك.

[الرزية - المصيبة - النائبة][1]

تراوح ألفاظهم في التعبير عن الحدث بين كلمتي "الرزية والمصيبة" وتتكرر هاتان الكلمتان كثيراً في رثائهم، يقول الحسن بن وهب: [٠٠ فلو أن حادثاً سبق بالنفوس آجالها، وأعجلها عن الآجال المقدرة، لكانت الرزية أحق الرزايا بذلك٠٠][2] ويقول أيضاً من رسالة أخرى: [أفظعني مارأيت في الأمير - أعزه الله- من أثر هذه الرزية التي تكاد أن تكون أشبه بالنعم منها بالرزايا٠٠٠][3] ثم نجد سعيد بن حميد يستخدم الكلمة ذاتها يقول: [٠٠ وعوض بك من كل رزية٠٠][4].

أما المصيبة فهي من الألفاظ شائعة الاستعمال عند الخاصة والعامة، ولذلك تكاد أن تكون مبتذلة، يقول الحسن بن وهب: [٠٠ ومن شك في موضعي من هذه المصيبة٠٠][5] ويقول سعيد بن حميد: [٠٠ لولا أن التعزية على المصائب سبيل لا

(١) ورد عند الثعالبي في فقه اللغة، الطبعة الأخيرة ١٩٧٢م ص ٣٠٩ أسماء الدواهي، وذكر أنها تزيد على الأربعمائة اسم، وأشار إلى أن تكاثر هذه الأسماء من احدى الدواهي.

(٢) انظر ص ٩٣ من البحث.

(٣) انظر ص ٩٤ من البحث.

(٤) انظر ص ٩٥ من البحث.

(٥) انظر ص ٩٧ من البحث.

ينكر على مثلي٠٠][1] ويكرر اللفظة نفسها في رسالة أخرى: [٠٠ فكان وقع المصاب به على حسب علمي بمحله٠٠][2].

[الدنيا]

تجري هذه المفردة في كتاباتهم كمدخل مهم إلى ذمها، وتوطئة إلى التذكير بحقيقتها، فلم تُخلق للخلود على أديمها، ولا العيش فيها بلا كدر يقول تعالى (كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام)[3] ومن هذه الحقيقة يستقي هؤلاء مواساتهم، وهي لذلك تحدث ارتياحاً في نفس المعزَّى، وتنقله من حال القنوط والسخط، إلى حال الرضا والتسليم، يقول الحسن بن وهب وقد لامس هذه القضية [الأمير أعلم بالدين من أن يذكر به، وبالدنيا من أن يدل على ما خلقت له٠٠][4].

وعلى هذا النحو تجري جُلّ مكاتبات العزاء، والكاتب أحياناً في حاجة إلى إظهار إخلاصه، فيؤكد أن المصيبة قد أحدثت له زهداً في الدنيا، وكرهاً لها، يقول الحسن بن وهب: [٠٠ ولقد أحدثت لي منيته زهداً في الدنيا، وقصداً في الشح عليها، وذما للدنيا٠٠][5] ثم يكرر اللفظة بمدلول جديد، يبينه السياق، يقول: [٠٠ ولقد كانت الدنيا تزداد حباً إلى بمكانه٠٠][6] ويسميها الغرارة إمعاناً في ذمها وتحقيرها، وكأن لفظة الدنيا لا تفي بما تدل عليه من دنو، يقول: [وما نصنع بهذه الغرارة التي سيرتها – منذ كانت – سيرة واحدة، وأحكامها في كدر الصفاء، وتنغيص السرور أحكام راتبة؟ ٠٠][7].

(١) انظر ص ٩٣ من البحث.
(٢) انظر ص ٩٤ من البحث.
(٣) الرحمن، ٢٦، ٢٧.
(٤) انظر ص ٩٣ من البحث.
(٥) انظر ص ٩٧ من البحث.
(٦) انظر ص ٩٧ من البحث.
(٧) انظر ص ٩٧ من البحث.

[الأجر والثواب]

لفظتان جميلتان نجدهما في ثنايا مكاتباتهم، وتزدان بهما أعمالهم، لأن فيهما تذكيراً بالجزاء الحسن من الله للمصاب إن صبر، ولا خفاء في إدراك المعزّى لهذه الحقيقة، ولكن الكاتب يوقظ داخله الخير من باب التذكير، والتخفيف عنه، حتى تثوب إليه نفسه وتسكن في استسلام وثقة إلى خالقها، يقول سعيد بن حميد: [٠٠ وإنما أسأل الله عز وجل أن يوفق أمير المؤمنين لما يعظم به أجره، ويجزل به ثوابه٠٠][١] ويقول أيضا من رسالة أخرى مستعيناً باللفظتين لإرساء هذا المفهوم الإسلامي الرائع [٠٠٠ وأعظم الله للأمير الأجر، وأجزل له المثوبة والذخر٠٠٠][٢].

ويقول الحسن بن وهب [٠٠ لما وفر الله للأمير – إن شاء الله – من ثوابها له٠٠][٣] ويقول أيضاً [٠٠ أن يحسن لنا ولك العزاء، ويوفر علينا وعليك الأجر والثواب٠٠][٤].

وهاتان اللفظتان مأخوذتان من عطاء القرآن وبيانه، نجد الكثير من الآيات تحث على فضيلة الصبر، وتحذر من رذيلة القنوط، حتى يحيا الإنسان حياة نفسية سليمة، يقول تعالى: (ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون)[٥] وقال أيضاً (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب)[٦].

وعلى هذا النحو تتوالى الآيات تضئ وحشة النفس، وتنير ظلماتها، ويقتبس منهاكتاب العزاء هذا الوميض الروحاني، فينشرونه على المصابين، فيكون برداً وسلاماً وأمناً عليهم بإذن الله.

---

(١) انظر ص ٩٣ من البحث.
(٢) انظر ص ٩٤ من البحث.
(٣) انظر ص ٩٤ من البحث.
(٤) انظر ص ٩٦ من البحث.
(٥) النمل ٩٦.
(٦) الزمر ١٠.

[البقاء]

ثم إن الكاتب لا ينسى في هذا المقام أن يدعو للمعزَّى بالبقاء، من قبيل المجاملة، وجرياً وراء الرسوم الرسمية في مخاطبة العلية، يقول سعيد بن حميد [٠٠ وجعل الله الأمير وارث أعمارنا، والباقي بعدنا٠٠][1] والبقاء من خصائص الله وحده، لم يستثن منه أحداً من خلقه.

وإذا ما انتقلنا إلى الحسن بن وهب فإنا نجده يقتصد في دعائه، ولا يغلو في خطابه كصاحبه، فهو يدعو للأمير بطول البقاء لا بالبقاء وبين الأسلوبين فرق كبير يقول: [أطال الله بقاء الأمير٠٠][2].

وبعد: فإن ما عرضته يمثل أبرز الألفاظ التي حوتها رسائلهم، وهي في عمومها لا تخرج عن نطاق المألوف، وكان القرآن هو المشكاة التي تنشر لهم النور فيستضيئون به، ويسيرون في مواساتهم على هداه في رؤيتهم العامة للحياة والأحياء.

---

(١) انظر ص ٩٤ من البحث.

(٢) انظر ص ٩٤ من البحث.

د - ألفاظ الاستعطاف:

للاستعطاف ألفاظ تسيل عذوبة، يعمد إليها الكاتب عمداً، ويقصدها قصداً، حتى ينال بها بغيته، ويحقق هدفه، فنفسه تهفو إلى إصلاح ذات البين، وإلى تجديد العلاقة، وتنشيطها مع من هرمت علاقته وشاخت.

[الإقرار والاعتراف]

الإقرار بالذنب، والاعتراف بالزلة، مدخلان نفسيان يطرق بهما المستعطف اللبق قلب صاحبه الكاره له، والحاقد عليه، فيحيل كراهيته إلى حب، وحقده إلى ود، ذلك أن المستعطف قد وظف ذكاءه التوظيف الأمثل، وبه استل سخيمة صاحبه عليه من أقصر الطرق وأيسرها، لأن في الإقرار بالخطأ فضيلة عدم التمادي في الغي، ولهذا الفعل تأثير بالغ في نفس صديقه الغاضب، يقول أبو علي البصير وقد استعان بلفظة الاعتراف أولاً ثم تراجع عنها بعد ذلك: [٠٠ وقد أتيتك معترفاً بالذنب٠٠][1] ثم تنحسر شجاعته، ويتلجلج قوله، ويتراجع في اعترافه، فنراه يقدم رجلاً ويؤخر أخرى في المقام نفسه، يقول: [٠٠ ولو صح مني الذنب إليك لكان الصفح عني أولى بك٠٠][2] ولعل هذا الالتواء في القول، هو الذي جعل استعطافاته غير مجدية كما مر بنا سابقاً[3].

وإذا كانت نفس البصير غير بصيرة بالأداء الصادق في مثل هذا المقام، وما يستدعيه من مقال يناسبه، نجد في المقابل صدق القول، ونقاء النفس عند سعيد بن حميد، يقول في لطف وأدب جم: [٠٠ ولا يستعطفك إلا بالإقرار بالذنب٠٠٠ ولا يستميلك إلا بالاعتراف بالجرم٠٠][4].

---

(١) انظر ص ١١٠ من البحث.
(٢) انظر ص ١١٢ من البحث.
(٣) انظر ص ١١٠ من البحث.
(٤) انظر ص ١١٢ من البحث.

وآية البراعة نلمحها في قول سهل بن هارون، فهو لا يقر بالزلة، بل يتجاوز ذلك إلى الإ قرار بعجزه عن استمالة صاحبه، يقول: [٠٠ وإقرار بالعجز عن استعطافك][١].

فالإ قرار، والاعتراف لفظتان يتكئ عليهما المستعطفون كثيراً، وهما في المعنى بمنزلة متقاربة، كما يبدو من ظاهر السياقات السابقة، ونجد بجوارهما جملة من الألفاظ من مثل الذنب والجرم والزلة، تبدو بارزة في مكاتباتهم بين الحين والآخر وهي تمثل معجماً مسانداً.

[القبول]

إذا كان لكل أمر غاية، ولكل بداية نهاية، فغاية الاستعطاف القبول والرضا، ومنتهاه الصفح عما مضى، لذا نجد هذه المفردة منبثة في هذا الضرب من الرسائل، يقول سعيد بن حميد: [٠٠ فإن رأيت أن تستعمل الصنيعة بقبول العذر٠٠][٢] ويقول البصير [٠٠ فإن تقبل تتخذ عندي يداً٠٠][٣].

وقد يأتي القبول على خلاف ما يأمل المستعطف، يقول البصير عاتباً: [٠٠ والإسراع إلى قبول القبيح المضاف إليّ٠٠][٤].

وإذا عدنا إلى قول[٥] الكلاعي فيما يجب أن تكون عليه ألفاظ الاستعطاف ومعانيها، وجدناها هنا أتم أداء، فألفاظهم لها خصوصية الاستعطاف من رقة، وعذوبة، وسماحة، ممثلة النموذج الرائع لما يجب أن يكون عليه المعجم اللفظي لهذا النوع من الرسائل.

---

(١) انظر ص ١١٣ من البحث.
(٢) انظر ص ١١٢ من البحث.
(٣) انظر ص ١١١ من البحث.
(٤) انظر ص ١١٠ من البحث.
(٥) انظر ص ١٠٩ من البحث.

هـ - ألفاظ الهجاء:

للهجاء – كما لغيره من الأغراض – خصوصية في الألفاظ، وهيكلية في البناء، فألفاظه تدور في فلك الغنى والفقر، والمنع والمنح، ثم الفأل بالخير، أو اليأس منه، وأول ما يطالعنا من لبناتهم في هذا الجانب.

[الغنى]

وهو بيت القصيد، فله انشئت الرسائل، ولأجله حبرت القراطيس، وطمعاً فيه بذل السائل نفسه رخيصة للمسئول، وإذا قوبل – بعد كل هذا الجهد، وذاك العناء– بالصد فإنه يطلق للسانه العنان، ويفك عنه لجامه، يقول أبوالعتاهية: [إني توسلت إليك•• رجاء للغنى••][1] ثم يسترسل بعد ذلك في هجائه، وإذا كان أبوالعتاهية يذم صاحبه لبخله مع طلاب المال، فإنا نجد البصير يذم صديقه لبخله مع ذاته، فالغنى عنده مقترن مع الحرص عليه، يقول في ذلك: [•• ولا يفيدك الغنى إلا حرصاً••][2] وسعيد بن حميد يستخدم هذه اللفظة استخداما رائعاً، يقول: [•• وإذا كان ذلك داعية لغنى لا عزة له••][3].

فالغنى بمعزل عن عزة النفس فقر، والفقر مع عزة النفس غنى.

[المنع]

وإذا كان طلب الغنى هو الدافع إلى المدح فإن المنع هو مثير الهجاء، يقول أبوالعتاهية: [•• وأخطأت في منعي••][4] ويقول أبوعلي البصير: [•• ومن

---

(١) انظر ص ١١٥ من البحث.
(٢) انظر ص ١١٩ من البحث.
(٣) انظر ص ١١٧ من البحث.
(٤) انظر ص ١١٥ من البحث.

منعك بعذر واضح سببته..][1] وهذا حق، فالسُّؤآل لايلتمسون العذر للمسئولين، فإذا منحوا أجزلوا الثناء، وبالغوا فيه، وإذا منعوا[2] أسهبوا في الهجاء وتكثروا منه.

[الخطأ والغلط]

في غمرة انكسار النفس وانهزامها، يقف السائل معها موقف الصادق حيناً، والمخادع أحياناً، فصدقه يتمثل في اعترافه بخطأ السؤآل، وكذبه نراه في إرجاعه سبب المنع إلى خلل التمييز عنده مابين كرماء الناس وبخلائهم.

والحق أن السؤآل كله – حتى مع الفاقة – ذل، والقناعة بالكفاف – مع صون النفس – عز، فانظر أي الرجلين هؤلاء الذامين للناس، الساخطين عليهم؟! يقول أبوالعتاهية [.. ولقد أخطأت في سؤآلك، وأخطأت في منعي..][3]

والعتابي تستهويه كلمة "الغلط" للتعبير عن سوء تقديره في اختيار الصديق يقول: [وكشف لنا الصبر عن وجه الغلط فيك.. واطراحك حق من غلط في اختيارك][4] ويستخدم سعيد بن حميد اللفظة ذاتها، يقول: [ولولا علمي بغلط الناصح يؤدي إلى نفع في اعتقاد صواب..][5].

---

(١) انظر ص ١٢٠ من البحث.

(٢) الحر ينأى بنفسه عن ذل السؤآل، صوناً لها من أن تهان، ولنا في رسول الله – صلى الله عليه وسلم– الأسوة الحسنة، فما أروع قوله وأحكمه "لئن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير من أن يسأل أحداً فيعطيه أو يمنعه" البخاري، الصحيح، ت :محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت ٣٠٣/٤، ٣٠٤.

(٣) انظر ص ١١٥ من البحث.

(٤) انظر ص ١١٦ من البحث.

(٥) انظر ص ١١٧ من البحث.

[اليأس]

وهو منتهى كل أمر مآله إلى الفشل، وثمرة الاستسلام والقنوط، ولعل في اليأس – أحياناً – راحة للنفس من عناء لاخير معه، وجهد لاطائل من ورائه، يقول أبوالعتاهية: [أمرت باليأس من أهل البخل فسألتهم..][1] ويقول العتابي في خطاب صديقه بعد طول صبر عليه: [وصبرنا على تجرع الغيظ فيك حتى بان لنا اليأس من خيرك..][2] وفي المعنى نفسه يقول سعيد بن حميد: [رأيت رائد الهوى قد مال بك إلى هذا الأمر ميلاً أيأس من رغب فيك..][3].

من خلال العرض السابق كشف لنا المعجم اللفظي في كل غرض على حدة اللغة المشاعة بينهم، وهي في مجملها تمثل المخزون اللغوي عندهم مجتمعين، وتشكل الذائقة الفنية، والمسار اللغوي الذي انتخبوه، وفضلوه عما سواه.

ودلنا أيضاً على جمال لغتهم النابع من اعتدالها وتوسطها وهذا ما سنراه في الصفحات القادمة – إن شاء الله –.

---

(١) انظر ص ١١٥ من البحث.

(٢) انظر ص ١١٦ من البحث.

(٣) انظر ص ١١٧ من البحث.

٣ - توازن الألفاظ

إنّ أبلغ ما يمكن أن نطلقه وصفاً لألفاظ هؤلاء الأدباء هو أنها سهلة ممتنعة، فلا هي انحدرت إلى كلام العامة من المطروق بينهم، والمبتذلة في أحاديثهم، ولا هي قاموسية أبتعدت عن واقع العصر ولغته، إلى أعماق الغريب.

على أننا قد نجد بعض المتحذلقين والمتشدقين في كل عصر ممن يستهويه صعب الكلام وغريبه، لأنهم يرون في ذلك آية البيان، ودليل الفصاحة، وهذا يدلنا على أن النفس المضطربة التي تحس بعامل النقص، وبعقدة الدون، تتجه شعورياً أو لا شعورياً إلى ستر ما تحسه في داخلها من ضعف فتحجبه عن الآخرين، ووسيلتهم في ذلك الغريب، لأن اختلال التوازن النفسي يعقبه اختلال لما تقوم به، وما تفعله. على أن سبب الإغراب في الألفاظ لايمكن لنا أن نقصره على العامل النفسي فحسب، بل هنالك عوامل جد مهمة يمكن أن يكون لها تأثير على الأديب المتقعر، فالذوق مع البيئة الثقافية والزمن كلها عوامل قد تدفع صاحبها إلى السير في هذا الطريق الوعر. أما النفس المطمئنة فهي تلك التي لا تشذ عن القاعدة، ثقة في قدرتها ولأنها كذلك تختار ألفاظاً وسطية لا تنتسب إلى المبتذل، ولا يربطها بالغريب أدنى سبب.

والحكم على غرابة اللفظة من عدمها اليوم على الموروث فيه شئ من الصعوبة، ذلك أن الزمن قد يقف عائقاً بين الحكم وصحته، فما قد نراه غريباً اليوم ربما يكون مستعملاً في زمنه.

إذن ماهو المعيار الذي يفضي بنا إلى نتيجة نطمئن إليها؟

إن الاستقراء أولاً هو سبيلنا إلى عدالة الحكم، وكما أن "المعجم اللغوي" قادنا إلى تلمس اللغة المشتركة بينهم، والمعبرة عن عصرهم، فإن عكسه تماماً "المعجم الشاذ" سيدلنا على الغريب في مأثورهم، فاللفظة اليتيمة مع غرابة معناها،

وتجافيها عن الذوق ركائز آمل أن تصلنا إلى بغيتنا، على أن الاعتدال – كما قدمت – هو السائد في عطائهم، والقصد هو النهج الذي أتبعوه، ولكن هل التزموا بذلك في كل ما أنتجوه؟ بالتأكيد لا، فلابد أن يكون هنالك عودة إلى الماضي البعيد، والاستعانة ببعض ألفاظه التي لم تساعدها البيئة على التعايش في زمن أبعد من زمنها، ولا في مناخ مغاير لمناخها، ومن هذه الألفاظ "الإبساس" وهي الدعاء بالناقة إلى الحلب، ويقتصر استخدامها عادة في المجتمعات البدوية، غير أن العتابي استعان بها؛ دخل ذات مرة على المأمون وفي مجلسه إسحاق بن ابراهيم، فأخذ الخليفة يداعبه، فظن العتابي أنه قد استخف به، فقال: [الإيناس قبل الإبساس](١) فاشتبه على المأمون قولُه، فنظر إلى اسحق كالمستفهم فغمزه بعينه(٢)، أي أنه – على علمه ومنزلته – لم يدرك المعنى الذي قصد إليه العتابي إلا بعد إشارة خفية من إسحاق، ولعله هو الآخر لم يفهم اللفظة على تمامها، ولكنه استشف من عمومها القصد، ومرد غرابة هذه اللفظة وغموضها يعود إلى أنها نقلت من بيئة الصحراء القديمة إلى بيئة متحضرة، فاكتسبت بذلك غرابة بجوار ألفاظ هينة لينة أعتادت الأذان على موسيقاها.

وقد يجمع الرجل بين حداثة اشتقاق كلمة وغرابة أخرى في كلام واحد متصل، مما يؤدى إلى غموض المعنى، واستعجامه على السامع، يقول العتابي نفسه في تعريف البلاغة: [كل من أبلغك حاجته، وأفهمك معناه، بلا إعادة، ولا حُبْسة، ولا استعانة فهو بليغ...](٣) فالاستعانة من الألفاظ المبهمة، لذا سئل عنها فأجاب: [.. أن يقول عند مقاطع كلامه: اسمع مني، وافهم عني، أو يمسح عثنونه..](٤) فهي لفظة مشتقة من العون لأن معناه أن يستعين المتكلم لإفهام المخاطب بالأوامر

(١) انظر المثل ومصدره ص ١٧٥ من البحث.
(٢) انظر ص ١٧٥ من البحث.
(٣) انظر ص ١٥٩ من البحث.
(٤) انظر ص ١٥٩ من البحث.

تارة، أو ببعض الحركات الشكلية التي تخل بثقة المتكلم في نفسه، وتقعد به عن ايصال المعنى إلى الطرف الآخر.

والعثنون – اللحية – كلمةٌ نادرة الاستعمال في زمن الكاتب.

وقد تأتي الكلمة غريبة التركيب، صعبة النطق، وإن كانت ظاهرة المعنى بعد إعمال الفكر، فيجعلها ذلك في حكم الغريب من مثل "استيئهالك" يقول سعيد بن حميد [•• وقد كنت – أعزك الله – فيما يربأ بك عنه بما أنت أهله، واستيئهالك••][1] أي أنت أهل لما هو فوق ذلك فلا تحزن على فقده.

أخيراً يمكن للباحث أن يؤكد اعتدال نهج مترسلي الشعراء في ألفاظهم، وما أوردته هنا لا يمثل شيئاً بجانب غيره من لغتهم الشاعرية، وهذا ماسنرد عليه – ان شاء الله – بعد قليل.

ومعلوم أن الألفاظ العربية تعج بالحياة، فنراها تحيا وتموت، وتسكن وتنشط، وتضعف وتقوى، وهي في أطوارها أشبه ماتكون بالإنسان، الذي يمر بهذه المراحل ثم يعتريه الهرم، فيكون القبر مثواه، وتستمر دورة الحياة مع الإنسان ولغته، وكل هذا دليل على غناء لغتنا، وخصوصيتها واختلافها عن سائر اللغات.

---

(١) انظر ص ٩٩ من البحث.

٣ - شاعرية النثر:

إن المفهوم السائد - قديما وحديثاً - عن النثر الفني هو جفافه من العاطفة، وخلوه من الاحساس، وبعده عن الامتاع الأدبي، وكان الشعر يقوم بهذا الدور، ويشبع نهم النفس والعقل لما فيه من مؤثرات غنية بروائع الابداع، وفنون البيان، لذا كانت الحظوة للشعر من دون النثر، فقدمه النقاد، وخاصة الناس وعامتهم.

ولكن هل النثر كله جاف العطاء؟ وهل كله فقير الابداع؟ ثم هل كله بعيد عن الإمتاع؟

إن الحكم على النثر بصيغة العموم ضرب من العبث والسخف لايقبله العقل، ولا يقر به، وإذا ما تعمق الناظر في النثر الفني، فإنه سيجد في بعضه إمتاعاً لا يقل عن امتاع الشعر بل قد يزيد، وسيجد فناً خالصاً يغالب الشعر في منزلته، وسيجد قبل هذا وبعده روح الشعر، وشفافيته، والكثير من أدواته.

والحق أنه لم يعد هناك كبير فرق بين الشعر والنثر الفني، وبخاصة عند الشعراء الناثرين المجودين، والنقاد القدامي فطنوا إلى هذا التقارب بين الفنين، لذا نجد من الأبواب التي طرقوها مايعرف عندهم "بحل المنظوم" و "نظم المنثور" ففيهما تتحقق شاعرية النثر تحققاً ملموساً "فحل المنظوم" يشير إلى أن جانباً من النثر يقوم فيه الكاتب باستثمار معنى شعري عند أحد الشعراء فيكتبه نثراً، وبهذا يكون فيه حلاوة الشعر وروحه، بل ربما بلغت بعض النماذج من هذا الفن من حيث الارتقاء الفني أكثر من الأصل الشعري الذي تأثرت به، لأن الكاتب الجيد الذي يخشى على مكانته لا يقدم على هذه المغامرة إلا وهو على يقين بأنه سيتفوق على النموذج الشعري، يقول د/ محمد بن شريفة: [وقد كان ابن الخطيب مولعاً بتضمين شعر المتنبي في نثره، أو التلميح إليه، مما يدل على استظهاره، واستحضاره له،

كقوله في "خطرة الطيف"، وسرنا ودرّ الحصى بساط لأرجل ركابنـا، ودنانير أبي الطيب تنثر فوق أثوابنا، وكرر هذا التلميح في موضع آخر، وهو يشير إلى قوله:

وألقى الشرق منها في ثيابي دنانيراً تفرّ من البنان][١]

أما نظم المنثور فهو يبرز النثر في صورته المثالية من تحقق صفة الشعرية، ذلك أنه في هذا الفن يصبح النثر هو الموثِّر، وهذا يدل على أنه أنموذج فني عال لفت نظر الشاعر إليه حتى إنه تأثر به فنظمه شعراً.

والقدماء لهم تنظيرات مهمة، تشير إلى عنايتهم بهذه النوعية الخاصة من المأثور العربي النثري، فالقرطاجني يسمي النوع الراقي من النثر "بالقول الشعري" في إشارة صريحة منه إلى أنه أعلى درجة أو درجات من النثر الاخباري، يقول: [ماكان من الأقاويل القياسية مبنياً على تخييل وموجودة فيه المحاكاة، فهو يعد قولاً شعرياً][٢] فالخيال هو المادة التي يشترك فيه الشعر والنثر الجيدان، وإن خلا منهما فلا يعد الأول شعراً، ولكن يسمى نظماً كالفية ابن مالك مثلاً. أما الثاني فهو النثر الأجرد كما يسميه د/ عبدالله الطيب مادة التأليف العلمي في النحو واللغة والفقه[٣].

أما النثر الفني فله خاصية الشعر من التأثير والامتاع، وليست من وظائفه مجرد الاخبار.

ويعزز قول القرطاجني السابق في شعرية النثر قول الفارابي المقارب له، وإن كان أكثر منه بياناً وايضاحاً، يقول: [القول إذا كان مؤلفاً مما يحاكي الشئ ولم

---

(١) أبو تمام وأبوالطيب في أدب المغاربة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط: أولى، ١٩٨٦م، ص ١٥١.

(٢) منهاج البلغاء، وسراج الأدباء، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨١، ص ٦٧.

(٣) المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، ج ١ ص ٧٢.

يكن موزوناً بإيقاع فليس يعد شعراً، ولكن يقال هو قول شعري][1].

مما تقدم يتبين لنا أن تأصيل هذا المصطلح لم يكن جديداً، والمحدثون اليوم أفادوا منه وإن غيروا في المصطلح بعض الشئ، فهذا د/ عبدالله الطيب يسمى هذه النوعية من النثر بالقول الشاعري لا الشعري، ولا فرق بين التسميتين لأن مؤداهما إلى نتيجة واحدة، يقول في سياق حديثه عن أسباب رقي النثر في هذه الحقبة: [٠٠ أقبل النثر من أصوله الجاهلية على القرآن فأخذ من مادته، وشكله، وأساليب جرسه، فنشأ من ذلك أسلوب الخطب بجرسها، وإيقاعها ثم تلاهن عهد الرسائل بتقسيمها٠٠٠ وكل هذا كما ترى٠٠٠قويّ النظر إلى القرآن، غير بعيد حقاً عن مذاهب الشاعرية[2] في غير العربية[3]]

(١) جوامع الشعر، رسالة ملحقة بكتاب ارسطو في الشعر لابن رشد، ت/ محمد سليم سالم، المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية، القاهرة، ١٩٧١م، ص١٧٢.

(٢) يفسر د/ الطيب جملته الأخيرة "مذاهب الشاعرية في غير العربية" بقوله في ج٣ ص ٤٢ من كتابه [ولا أرى القارئ الكريم إلا يحط معي في أن النثر العربي في طرائقه المختلفة من رصف عبدالحميد، إلى انسياب الجاحظ، إلى سجع الصاحب، إلى صناعة الحريري، إلى زخرفة القاضي الفاضل شديد الشبه بالشعر الأفرنجي، ولقد يقال أن ضروباً من النثر الإفرنجي قد تنحو نحواً يقارب الشعر الافرنجي ولكن ينبغي هنا أن نذكر أن الشعر الإفرنجي نفسه الذي تريغ هذه الضروب إلى مقاربته يشبه نثرنا الفني دون شعرنا] فالشاعرية عند د/الطيب قائمة على الشكل دون الجوهر، وهذا ما حدا به إلى تشبيه النثر الفني العربي بالشعر الإفرنجي من حيث البناء الخارجي، المعتمد على الزخرفة، رغم أن هذه القضية مسلم بها، ولا خلاف حولها، وليست هي بيت القصيد، ولكن ماذا عن شاعرية النثر العربي قياساً إلى الشعر العربي نفسه؟! أغلب الظن أن مفهوم د/الطيب حول شاعرية النثر كان قاصراً، بينما كان مفهوم النقاد الأوائل أعمق غوراً، وأكثر شمولاً إذْ قامت الشاعرية عندهم على جمالية النص، وما يحدثه من أثر في النفس، ولا يتحقق ذلك إلا باتحاد الشكل بموسيقاه مع المحتوى بثرائه.

على أن بعض المحدثين قد أدرك الشاعرية النثرية بمفهومها الصحيح كما فعل د/ سعيد منصور حسين في كتابه عناصر الشعر في نثر عبدالحميد.

(٣) المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها ج١ ص ٢٧.

إذن يمكن حصر أقوال العرب على ضوء ماسبق إلى أربعة أصناف:

- الشعر. - القول الشعري أو الشاعري. - النظم. - النثر الأجرد.

ونثر المترسلين الشعراء ينتمي إلى الصنف الثاني، فهو وثيق الصلة بالقول الشعري، قوي الانتساب إليه، لهم الفضل في بث روح الفن فيه، وإضفاء الإبداع الفني عليه، أحالوه من جفاف إلى خصوبة، ومن فقر إلى غناء، ومن إخبار إلى امتاع، فلبس النثر هذا الثوب القشيب، فقارب الشعر في الروعة والافتتان، وسأعرض هنا نماذج يسيرة ليستبين منها من تأسره اللفظة، ويسحره البيان رائع ما أنتجوه "وإن من البيان لسحراً".

تنشيط الدلالة:

للكلمة في اللغة دلالة هي محور الاتصال بين اللفظة ومعناها، وأساس التواصل بين الباعث والمتلقي، والفائدة من وراء ذلك مجرد الاخبار، وهذه الدلالة الأولية هي الشائعة في اللغات عموماً، لأن من وظيفتها ذلك، فهي إذن لغة يشترك فيها العالم والجاهل، والشريف والوضيع، والصغير والكبير، ليس لأحد منهم فضل على الآخر إلا بقدر سلامة الاستخدام وصحته، فلا تتيح بهذا الشكل فناً أو ما يشبه الفن.

غير أن المبدعين من شعراء وكتاب قد استحدثوا دلالات للألفاظ أكثر عمقاً، وأبعد أثراً في نفس السامع، دفعهم إلى ذلك حب التميز، وساعدهم عليه اتساع مجالات اللغة، إضافة إلى مايستشعرونه في دواخلهم من حساسية فنية، وذوق رفيع، في استطعام اللفظة، فكان هذا الإنشاء الجديد، وهذه النقلة من طور الجمود إلى طور النشاط، مسايرين الحياة ذاتها في حركتها، وتطورها، وسائر أحوالها.

وسأضرب أمثلة على الحياة اللفظية عندهم، فخذ مثلاً "الزهد" فهي لفظة دينية ارتبطت دلالتها بالكف عن شئون الدنيا، والتسامي عليها، رغبة فيما عند الله، وسارت على هذه الدلالة المباشرة كثيراً في أدب الفقهاء، وفي التداول العام

والخاص حتى وصلت إلى الأدباء المتأنقين فحوروا مدلولها، يقول أبوعلي البصير: [٠٠ وزهدّت في اصطناع المعروف٠٠][١] ويقول أيضاً: [٠٠ إرثك عن أبيك السعاية، ونقل الأخبار والوشاية٠٠][٢] فإذا كان الموروث مرتبطاً في أزمنة سبقت بالملموس من مال ومتاع إلا أن الكاتب هنا أبى إلا أن يجعل النواحي المعنوية السيئة من ضمن الموروثات، وهو توسيع لدائرة الدلالة كما ترى، ومثلها قوله في الغرض نفسه: [٠٠ من أهانك استكنت له، ولنت في يديه٠٠][٣] وهو تصوير دقيق للذلة، لا أحسب أن لفظة غيرها توفي بعمق المعنى كما أوفت "لنت" هنا، على أن اللفظة تكتسب دلالتها في إطار السياق العام، فلنت في الآية (فبما رحمة من الله لنت لهم، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك)[٤]، دلت على الرحمة، فالسياق يترك ظلاله على مدلول اللفظة، وعلى هذه الشاكلة من روعة استحداث العلاقة تمضي ألفاظهم، لم يقفوا عند حدود المألوف لرقي مواهبهم مما أتبع ذلك رقياً في لفظهم، لنستمع إلى سعيد بن حميد في لغته العذبة مخاطباً صديقه، يقول: [لساني ترطب بذكرك، وقلبي معمور بمحبتك٠٠][٥] فلم يقل لساني يلهج بذكرك كما أعتدنا أن نسمع، ولكنه فاجأنا بهذه الومضة الرقيقة الرائعة، إن لفظة "ترطب" قد جمعت جملة من غزارة المعنى، ودقة التعبير، أحسن الرجل اختزالها، وأكاد أجزم أن صفحات كثيرة يسطرها الكاتب إلى صديقه، يذكر فيها وده، ويبث شوقه، ويظهر إخلاصه ووفاءه لن تعدل هذه اللفظة في بيانها، وما تتركه من أثر حسن، في نفس صاحبه.

وكما وفق في إنشاء هذه العلاقة الجيدة بين لفظته ومدلولها، نجده يبدع أيضا في التعبير عن حبه حين استخدم لفظة العمار، فنقلها من سكون الجماد إلى نشاط

---

(١) انظر ص ١٢٠ من البحث.
(٢) انظر ص ١٢٠ من البحث.
(٣) انظر ص ١٢٠ من البحث.
(٤) آل عمران ١٥٩.
(٥) انظر ص ٧٤ من البحث.

الحركة، فأخذت بذلك بعداً إبداعياً ممتازاً.

ومثلها قول محمد بن عبد الملك الزيات في حديثه عن الصداقة: [٠٠ ومتى لم تعمر بالمكاتبة٠٠][1] فهي عمار من نوع خاص، عمار في المعاني السامية، والمثل العالية، لا في الجماد، ولعل هذه النقلة أولى بالمعنويات منها بالماديات.

ودلالة التذوق أخذت بعداً آخر فلم تعد محصورة في معانيها الأولية الحسية، يقول الحسن بن وهب: [لما آذن الله في النهوض إليك، أحدث القدر مالم أكن احتسبه من شغل يعم قلبي، فلا أجد بقية تتذوقك، إذ كان الشغل حاجباً٠٠٠][2].

فهذه الجواهر اللفظية تشع شعراً وجمالاً، وتلك المعاني المغرقة في العذوبة تسطع بهاء وروعة؛ إنها قطعة شعرية منثورة تنساب إلى النفس في سلاسة ويسر، وتدخل إلى صميم القلب بلا استئذان.

ثم تأمل لفظة "أتذوقك" بدلالتها المبهرة، فلها في هذا المقام عطاء يعز علينا أن نقدره في غيرها، فقد أغنت عن كثير، وأبانت عن كنه نفسه، فالشغل يحول بين اللقاء والاستمتاع على وجه الحقيقة، أما الاجتماع الجسدي بمنأى عن تلاقي النفوس فذلك مالا سبيل إليه، ولا طائل من ورائه، ولا متاع فيه أيضا، وهو إنما يريد أن تسبقه نفسه إلى صديقه قبل رسمه، وروحه قبل جسده، حتى يحلو اللقاء، ويأنس بغيره، ويؤنس غيره، ولقد أحسن سعيد بن حميد في خطاب صديقه حين قال: [إني صادقت منك جوهر نفسي٠٠ لأن النفس يقود بعضها بعضاً][3].

وبعد: فلعل فيما ذكرته – من توسيع لدائرة الدلالة، إلى استحداث لها – الدليل على براعتهم البيانية، وامتلاكهم لناصيتها، وما أوردته هنا ماهو إلا قليل من

(١) انظر ص ٧٤ من البحث.

(٢) انظر ص ٧٩ من البحث.

(٣) انظر ص ١٠٦ من البحث.

كثير، فرض ذلك طبيعة البحث العلمي، فليس من مناهجه الاسترسال في غير ضابط، وهو على قلته ينبئ عما وراءه من حب للابتكار، وتنشيط للغة، وتجديد للصياغة.

فن الخطاب:

إن العربي القح يعبر عن مشاعره بصدق قاسٍ، فلا مجاملة في قوله، ولا أثر للمدنية عليه، إنما يترجم لسانه ما يختلج في صدره، أما غيره ممن هذبته الحضارة فإنا نرى من قوله شفافية الإنسان ورقته، يخبر أثره عن نعيم رآه، وحياة لينة عاشها، فانعكس ذلك على أحواله كلها، وهذا ما تحقق لمترسلي الشعراء وأضرابهم، فلا عجب إذن إذا رأينا لهم العبارات الرشيقة، والجمل الأنيقة، والمعاني العذبة، يقول الحسن بن وهب في خطاب صديقه بلغة شاعرية أرتوت بعاطفته: [٠٠ فامنحني منِ مودتك مُزْنَ لذاذة مشربك، وكن لي كأنا٠٠][١].

ثم تأمل تهنئة سعيد بن حميد لبعض أصدقائه في توليته أحد الأعمال، وسترى لباقة الخطاب وطرافته، وسمو معناه، يقول: [أنا أهنئ بك العمل الذي وليته، ولا أهنئك به٠٠][٢] وهذا النص من أعذب آداب التهنئة لباقة ولياقة، وأدباً وذكاءً، ألا تراه يصغِّر ماوليه من عمل إشارة إلى أنه أكبر مما ولي منزلة، وأجل مكانة، وأرفع قدراً، كل ذلك أدعى إلى التواضع - حقيقة أو إدعاء - وأجلب للانتاج والعمل الجاد.

ومن رائع الاتصال الخطابي وأدبه ماروي عن العتابي وهو كُثُر، قال للرشيد - وقد أجاد انتقاء اللفظة المعبرة، والمعنى المؤثر، ثم صاغها في أسلوب ساحر أخّاذ - : [يا أمير المؤمنين قد آذتني الناس لك، ولنفسي فيك، وردّني إبتلاؤهم إلى شكرك، وما مع تذكرك قناعة بغيرك، ولنعم الصائن لنفسي كنت لو أعانني عليك الصبر٠٠][٣].

(١) انظر ص ٧٤ من البحث.
(٢) انظر ص ٩٢ من البحث.
(٣) انظر ص ٢٠ من البحث.

وللرجل موقف مماثل مع المأمون، يدل على حنكته، ومعرفته بفنون التخاطب مع الملوك، يستدر بحلاوة منطقه، وسحر قوله، عطاءهم، وما يتبع ذلك من تقديم له، واحتفاء به، ورفعة فوق الأنداد، يفعل ذلك في غير كبير عناء، ولا طول مكابدة، إنما هي السجية المدربة، وشجاعة المواجهة، وصدق حين قال معبراً عن ذاته، ومفصحاً عن قدراته: [أقدر الناس على الكلام من عوّد لسانه الركض في ميادين الألفاظ..](١) وقد كان الرجل كذلك قال له المأمون: [بلغتني وفاتك فساءتني، ثم بلغتني وفادتك فسرتني، فقال له العتابي: يا أمير المؤمنين لو قُسمت هاتان الكلمتان على أهل الأرض لوسعتاها فضلاً وإنعاماً، وقد خصصتني منهما بما لا يتسع له أمنية، ولا يبسط لسواه أقل، لأنه لادين إلا بك، ولا دنيا إلا معك](٢).

ولم يكن في قول المأمون مايستحق كل هذا الثناء، والغلو فيه، ولكنها حماسة الأديب الذي يصدر عن عاطفته، تقوده إلى حيث تشاء، ولعل مقام الملوك يستحث مثل هذا الكلام، فتناسب الإخراج مع المقام، على أن الغلو من سمات الشعر قديماً وهو محمود عندهم، وانتقل منه إلى النثر.

ومن فنون الخطاب المؤثرة، براعة التعريض، يلجأ إليها الكاتب في إثارة مسألة، التلميح فيها أوفي وأدق من التصريح، والإيماء أبلغ وأرق من التحقيق، يقول العتابي أيضاً: [أما بعد، فإن سحاب وعدك قد أبرقت، فليكن وبلها سالماً من المطل..](٣).

ومثلها – في دقة وروعة البيان – الكناية، كتب محمد بن عبدالملك الزيات إلى عبدالله بن طاهر: [أما بعد: فإن أمير المؤمنين رأى أن يخلع ما في يمينك من أمر الجزائر والعواصم فيجعله في شمالك..](٤).

(١) انظر ص ١٦٠ من البحث.
(٢) انظر ص ٢٠ من البحث.
(٣) انظر ص ١٥٣ من البحث.
(٤) انظر ص ٦٧ من البحث.

والفنان – التعريض والكناية – يحتاجان إلى صحة فهم المخاطب، وسبر غور النص، إذْ أن المعنى لايتكشف إلا بعد معالجة، ونظرة تليق بأصحاب العقول الراجحة، والمواهب الظاهرة، لذا نجد العامة لايخاطبون بمثلها، ولا حتى أصحاب المواهب المحدودة.

والعرض السابق ليس حصراً لكل النماذج التي امتازت بلغة الشعر، إنما هي لمحة تغني عن طول النظر، فعلى نهجها سارت جُلّ مكاتباتهم.

نجد فيما سطروه أدوات الشعر ومؤثراته – لأنه مخبوء في نفوسهم – من لفظة منتقاة، وعاطفة صادقة، وأحاسيس مرهفة، وكناية، واستعارة ... حتى الخيال الجامح – أدق خصائص الشعر، وأقربها نسبة إليه – نقلوه بإحكام إلى النثر، وأتاح له الأخير آفاق التحليق، لايقف في طريقه عائق، ولا يحده مانع، يقول الحسن بن وهب، وقد اصطحبنا معه إلى عوالم بعيدة: [شربت البارحة على وجه الجوزاء، فلما أنتبه الفجر نمت فما عقلت حتى لحفني قميص الشمس][1] ولم يبق للشعر من مفاخره إلا الوزن والقافية، وحتى في هذه شاركه النثر ببعض الموسيقى الداخلية، والإيقاع الجميل، يقول ابن خلدون: [وقد استعمل المتأخرون أساليب الشعر وموازينه في المنثور ... وصار هذا المنثور إذا تأملته من باب الشعر وفنه][2] وصدق طه حسين حين قال: [فنحن عندما نقرأ نثراً كنثر الجاحظ لانحس عسراً في فهمه، بل نجد يسراً ومرونة، وفوق هذه المرونة واليسر كسب النثر خصلة أخرى هي الموسيقى، فالنثر أيام الجاحظ لا يلذ العقل وحده، ولا الشعور وحده، ولكنه يلذ العقل والشعور والأذن أيضاً][3].

---

(١) الحصري، زهر الأداب ٤٥٨/٢، الثعالبي، خاص الخاص ٥٢؛ والحموى، تقي الدين على بن محمد، ثمرات الأوراق، ط: الأولى، ١٩٧١م، ص ٣٣٧.

(٢) المقدمة ص ٥٦٧ وانظر مقالة د/ بسام قطوس "قصيدة النثر بين حد الشعر، وتجليات السوريالية" المنشورة في مجلة جامعة أم القرى للبحوث العلمية المحكمة، للسنة السابعة، العدد التاسع، ١٩٩٤م، ص ٢١١ – ٢٤٨

(٣) من حديث الشعر والنثر، دار المعارف، ١٩٥٣، ص ٦٤.

ثم إن للناثرين الشعراء رسائل وجدانية، سامية المعاني، عميقة الأفكار، طريفة المعالجة، تتغلغل إلى أعماق النفس فتحيي الأمل بعد اليأس، وتبعث الرجاء بعد الشقاء، وما كان ليتم لها ذلك لولا صدقها الفني من ناحية، وفرط شاعريتها في معانيها وألفاظها وتراكيبها من ناحية أخرى، فهي قصائد منثورة، ارتوت بالعاطفة والإحساس.

وإذا ما رأيت – قبل هذا أو بعده – رسائل دون القصد، وأقل من هذا الوصف فاعلم أن ذلك من الطبائع البشرية المألوفة، لأن النفس الشاعرة تتأثر بما يحيط بها سلباً وايجاباً، فحين تكون في كامل سعادتها نرى الأثر يحكي ذلك، وقد ينتابها السأم، ويحل بها الملل، فيحكي الأثر عن ذلك أيضاً، ولعل مانراه في أنفسنا – وهي ليست بذات الخاصة والاستشعار عند أولئك الأدباء – من تغير وتبدل في اليوم الواحد، أو الأيام المتعاقبة، وما تنتجه تبعاً لذلك من حسن وقبيح، وجيد ورديء الدليل على صدق هذه الظاهرة الطبيعية.

ب - الإيقاع الموسيقي:

ألمحت آنفاً[١] إلى مزاحمة نثرهم للشعر في أخص أدواته، وأدق سماته، ومنها سمة الموسيقى، ولم أقصد إلى استملاح هذه الطريقة، ولم أعن أيضاً أن هذا التوجه محمود في النثر على إطلاقه، بقدر ما عنيت إلى تلمس ظاهرة بدت في الظهور، وشاعت في العطاء الأدبي، ألا وهي تهدم التضاريس بين الفنين - الشعر والنثر -، والتقارب بينهما في الصفة والصنعة، أما إغراق النثر بالأوزان، وتكبيله بالقوافي فهو أمر يستكرهه النقاد - قدامى ومحدثين - ويستقبحه الذوق السليم.

وإذا كان التزام الشعر بهذه السمة ميزة له، يزهو بها على الأجناس الأدبية الأخرى، فإن - في المقابل - تحرر النثر منها خاصيته الأصيلة التي يفاخر بها غيره من الأجناس، وليس من شك في أن الكاتب إذا خرج عن هذا الحد، وتجاوز هذه المعادلة، طمعاً في ابتكار وابداع، وأملاً في تميز يرجوه على الأنداد، وقع في المحظور، لأنه والحالة هذه سيكون أسيراً للفظة يتكلفها في غير موقعها، ويستدعيها في غير موطنها، طلباً للجرس والموسيقى، فيصبح عمله حينذاك لا هو بالشعر الخالص، ولا هو بالنثر الخالص، أي أنه كائن غريب لايدري إلى من ينتسب، أما إذا وردت الإيقاعات الموسيقية من غير جور على المعنى، ووقعت بين الفينة والأخرى فذاك هو المستحسن المحمود، يقول ابن خلدون: [الشعر له أساليب تخصه لا تكون للمنثور وكذا أساليب المنثور لاتكون للشعر][٢].

ولعل مأثور المترسلين الشعراء يمثل الوسطية بين مذهبين: أولهما: اتجاه النثر قبل زمنهم، فيكاد أن يكون خالياً من موسيقى اللفظ، إلا عند موهوبي الكتاب من أمثال عبد الحميد الكاتب، يقول د/ عبدالله الطيب في سياق حديثه عن شاعرية

---

(١) انظر ص ٢٢٤ من البحث.

(٢) المقدمة ٥٧٣.

النثر: [٠٠ أما سائر أساليب النثر العربي فقد انساقت في الطريق الذي سلكه الحديث، والخطباء، والبلغاء، وأصحاب الرسائل، وأوائل الوزراء من إيثار الإيقاع، وتجويد النغم، ونجم في أواخر القرن الثاني، وأوائل الثالث كتاب قد انتهى إليهم من تراث البيان العربي قدر عظيم، وحباهم الله من الملكة قدراً عظيماً فتحوا بهذا الإيقاع والنغم المجرد إلى محض الاتقان والإحكام فيما غروا به من السجع والازدواج][1].

وثانيهما: اتجاه النثر بعد زمنهم - القرن الرابع وما يليه - والذي تفشت فيه الصنعة اللفظية، واستكثر منها الأدباء، وتباروا في الاتيان بالجديد فيها، وأصبح النص الأدبي - وقتئذ - ضرباً من الغريب المؤطر بالأوزان المتتابعة المملة، وهو يمثل الذوق الفني في مرحلة من مراحل التاريخ الأدبي.

وسأورد هنا - إن شاء الله - نماذج يسيرة من نغم القول وموسيقاه في إبداعات مترسلي الشعراء.

١ - السجع والازدواج والتوازن:

كان الانسياب الموسيقي من أعمالهم ينصب في سلاسة إلى النفس المتعطشة إلى الفن والجمال والامتاع، لأنهم أدركوا بشاعريتهم القدر الذي يحسن في الأنظار، ويعبر عن ذواتهم، فلا إفراط في هذا المنحى ولا تفريط، كتب الحسن بن وهب في مدح بلاغة أبي تمام [٠٠ وتضم أقطاره، وتجلو انواره، وتفصله في حدوده، وتخرجه من قيوده٠٠][2] فالتوازن بين الفقرات مع إختلاف الوزن في السجعات أضفى على هذه القطعة الفنية شكلاً موسيقياً رائعاً، والروعة لم تكن في ذلك فحسب بل كانت أيضاً في عدم سيطرة الوزن على بقية أجزاء الرسالة، ويقول العتابى: [أنت أيها الأمير ٠٠ المسدود بك ثلمهم، والمجدد بك قديم شرفهم، والمنبه بك أيام

---

(١) المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها ٢٨/٣.

(٢) انظر ص ٨٤ من البحث.

صيتهم، والمنبسط بك آمالنا، والصائر بك أكالنا٠٠](١).

ومثلها قول سعيد بن حميد: [جعلني الله من السوء والمكروه فداءك، وأطال في الخير والسرور بقاءك٠٠](٢) وعلى هذه الشاكلة يتسامى نثرهم بموسيقاه الغنية، تطرب الأسماع في غير إلحاح ورتابة، ومنها قول ابن الزيات: [٠٠ فإذى أدى كلّ إلى كل حقه كان ذلك سبباً لتمام النعمة٠٠ واتساق الكلمة، ودوام الألفة](٣)، ويقول -العتابي وقد أعجبه الوزن فأكثر منه من غير اغتيال للمعنى، أو إخلال بقيمته في النص - [٠٠ وكنا نعفيها من النجعة، استتماماً لزهرتها، وشفقة على خضرتها، وإدخاراً لثمرتها٠٠ واشتد علينا كلبها، وغابت قطتها، وكذبتنا غيومها، وأخلفتنا بروقها٠٠](٤).

فالتوازن في الجمل السابقة - كما هو ظاهر - ينتقل بالنثر إلى عوالم الشعر من غير أن يفقد أصالته، على أن القصد كان السبيل في استعانتهم بهذه الحلية، وإن كان لكل قاعدة شواذ، فإن رسالة البصير في ذم أبي العيناء كانت هي اليتيمة التي التزمت بالسجع من أولها إلى آخرها، وكان ذلك على سبيل السخرية من غريمه لا عن قناعة وتعلق به، كما ذكر هو في آخر رسالته(٥).

وقد يحلقون في فضاء الموسيقى متنقلين من نغم إلى نغم، ومن لحن عذب إلى آخر، كانتقالهم من السجع إلى الازدواج، وهذه التشكيلة الصوتية تحدث إمتاعاً للنفس، وترويحاً لها، فلا يتسرب إليها الملل من جراء التركيز على لون واحد من موسيقى اللفظ، يقول سهل بن هارون وقد مزج بين هذا وذاك: [٠٠ وعبتموني حين

---

(١) انظر ص ٨٣ من البحث.
(٢) انظر ص ١٠٠ من البحث.
(٣) انظر ص ٦٢ من البحث.
(٤) انظر ص ٨١ من البحث.
(٥) انظر ص ١٢١ من البحث.

ختمت على سد عظيم، وفيه شئ ثمين، من فاكهة نفيسة، ومن رطبة غريبة، على عبد نهم، وصبي جشع، وأمة لكعاء، وزوجة خرقاء][1].

(١) انظر ص ١٢٥ من البحث.

٣ - الجناس:

وهو من أنفس أنواع البديع، وأقلها استخداماً في مكاتبات الأدباء، إذْ تحتاج إلى صفاء الذهن، واستعداد الطبع، مع الدربة والمران، يقول سهل بن هارون [٠٠ وإن من أعظم الشقوة ألا يزال يتذكر زلَلَ المعلمين، ويتناسى سوء استماع المتعلمين، ويستعظم غلط العاذلين ولا يحفل بتعمد المعذولين٠٠][(١)] ولاشك أن مثل هذه الصياغة تعطى ثراء موسيقياً للجملة، ولا يحس معها القارئ بأي تعمل قد يفضي بالعمل الأدبي إلى التعقيد، ويخرج به من دائرة الفهم والادراك إلى دهاليز الأحجية والإبهام، رغم أن التجنيس مفتقر إلى إعمال الذهن من جماعة المتلقين، فهم شركاء الأديب في فهم مقاصد الكلام وأساليبه، والثراء هنا ليس في التجنيس فقط بل فيما تحمله الجملة إلى جوار ذلك من معنى التضاد بين المعلم والمتعلم، والعاذل والمعذول.

وقال أيضاً في جملة قصيرة: [الحِبْر عطر الحَبْر][(٢)]، ومن رائع هذا الفن وبديعه ماذكره العتابي وأوردته جل مصادر الأدب، قال له طوق بن مالك: أما ترى عشيرتك؟ - يعني بني تغلب - كيف تُدِلُّ عليّ، وتتمرغ وتستطيل وأنا أصبر عليهم؟ فقال العتابي: [أيها الأمير إن عشيرتك من أحسن عشرتك، وإن عمّك من عمّك خيره، وإن قريبك من قرب منك نفعُه، وإن أخف الناس عندك أخفهم ثقلا عليك، وأنا الذي أقول

إني بلوتُ الناسَ في حالاتهم ... وخَبَرتُ ما وصلوا من الأسباب

فإذا القرابةُ لا تقرِّب قاطعاً ... وإذا المودةُ أقربُ الأنسابِ][(٣)]

---

(١) انظر ص ١٢٤ من البحث.

(٢) الثعالبي، التمثيل والمحاضرة، ت : عبد الفتاح محمد الحلو، عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦١م، ص ١٦٦.

(٣) الأصبهاني، الأغاني ١١٧/١٣؛ ابن عبد ربه، العقد الفريد ٣٢١/٤مع بعض التباين في=

٣ - الطباق والمقابلة:

وهما حليتان لفظيتان تحدثان في الجملة تناغماً صوتياً خفيفاً، ولهما - إلى جوار ذلك - دور بارز في خدمة المعنى ونحته في ذاكرة المتلقي، والتضاد فيهما يعضد هذا الهدف بقوة، فإلحاح الكاتب على معنى دون غيره، وتكثيف الصورة حوله، دليل على أهميته، وموقعه من نفس قائله، ورجاء منه في أن يلتقي معه المتلقي عند هذا المحور من الخطاب.

ومترسلو الشعراء - بحسهم الأدبي - قد استكثروا من هذين الفنين، ولعل بعدهما عن تهمة التصنع، وما يعقب ذلك من استثقال لعطائهما هو الدافع وراء الاستزادة منهما، فهي - عند من يحسن استخدام أدواته - مؤثرة في بناء العمل، تمر على الأسماع في لطف وسكينة، لا تقرعها في عنف، لذا لا تكاد تقف عندها الآذان إلا تلك المتعطشة إلى مواطن الجمال - وإن قل - في أي نص إبداعي، تستملحه وتستزيده، أملاً في إشباع جوعها إلى المتعة الروحية والفائدة العقلية.

وسوف أعرض هنا نماذج قليلة تبين - إن شاء الله - عن روعة هذا الفن في مأثورهم، يقول محمد بن عبدالملك الزيات في المودة [٠٠ وأنا أخوك الذي لايزايله قرب الدار ولا بعدها، وتنقل الأحوال وتصرفها، وطول العهد وقصره. والذي لا ينتقل بانتقال الرغبة والرهبة٠٠ ومن يرعاك على النأي والقرب، والمغيب والمشهد][١]. فهذا الرتم المتسارع في الانتقال بين المتعارضات ماهو إلا تكثيف لحالة الشعور الواعي عند الكاتب، في سكون نفسه إلى صاحبه رغم دوافع التغير

= النصين؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان ١٢٣/٣؛ البغدادي، تاريخ بغداد ٤٨٨/١٢، ٤٨٩؛ أحمد صفوت، جمهرة رسائل العرب ٤٠١/٣؛ أحمد أمين، ضحى الإسلام ١٨١/١؛ عند العسكري في الصناعتين ٣٥٦ أورد تحت باب التجنيس قول العتابي على النحو التالي: [أما بعد، فاكتسب أدباً تحيي نسباً، واعلم أن قريبك من قرب منك خيره].

(١) انظر ص ٧٤ من البحث.

ومغرياته، من حركة لا تهدأ، ونشاط لايستكين، قرب وبعد، ورغبة ورهبة، وهو في خضم ذلك ثابت في ودّه لا يحيد عن ذلك.

ثم إن الطباق بخاصيته التي يحدثها في تنقلاته العجلى بين طرفي النقيض السالب والموجب، يشبه إلى حد كبير حالة النفس البشرية ذاتها، التي لا تكاد تطمئن إلى حاجة من حوائجها إلا رغبت عنه إلى مغايره، ويأتي الكاتب بفطنته فيلحظ هذا التشاكل بينهما، - الطباق بوظيفته، والنفس بجبلتها - فيتخذه - بما يثيره من متغيرات في المكان والزمان والحال - وسيلة إلى اثبات استقرار نفسه تجاه صديقه، رغم مقاومة الطبيعة لذلك، يقول سعيد بن حميد وقد أحكم الاستخدام [لساني ترطب بذكرك، وقلبي معمور بمحبتك، حضرت أو غبت، سرت أو أقمت..][1] فصداقته مع صاحبه كما صورها لم تتلون مع الأحداث.

وأبوعلى البصير حينما أمتدح سياسة عبد الله بن يحيى بن خاقان استعان بالطباق، لعلمه بما يبثه من شعور قوي، يؤكد فكرته، ويعمق معانيه، زيادة إلى ما يضفيه من جمال حسي تلحظه الأسماع في استمتاع يقول: [إن أمير المؤمنين لما استخلصك لنفسه، وأتمنك على رعيته، فنطق بلسانك، وأخذ وأعطى بيدك، وأورد وأصدر عن رأيك... وهذا يسير من كثير..][2].

ولا تختلف المقابلة في كثير عن الطباق، رغم التمايز بينهما، فالمقابلة رتيبة الموسيقى، هادئة النغم قياساً بسرعة ايقاع الطباق، يقول الحسن بن وهب في مدح بلاغة أبي تمام: [.. والفضل - أعزك الله - إذ كنت تأتي به في غاية الاقتصار في منظوم الأشعار، فتحل متعقده، وتربط متشرده..][3] ويقول محمد بن عبد الملك

---

(١) انظر ص ٧٥ من البحث.
(٢) انظر ص ٨٦ من البحث.
(٣) انظر ص ٨٤ من البحث.

الزيات في الإبانة عن معاملة ولي الأمر لبطانته [٠٠ أن يميز بينهم، فيقدم محسنهم، ويؤخر مسيئهم، ليزداد هؤلاء في إحسانهم، ويزدجر هؤلاء عن إساءتهم][١] فخدمته المقابلة في التفصيل والاستقصاء، وترسيخ المعنى، ويقول أبوعلى البصير: [من أبي علي البصير ٠٠ إلى أبي العيناء الضرير٠٠][٢].

نرى في الأمثلة السابقة إتفاق المعنى في السياق العام، رغم ما تحمله الجمل الثانية من نقيض للجمل الأولى، فالحل والعقد، والإحسان والإساءة، والتقديم والتأخير، والإبصار والعمى كلها مفردات تصف حالات الاضطراب والتنافر، فكأن الكاتب بحاسيته الذوقية يذكرها مجتمعة، ويصوغها باتساق عجيب، فيختار الصالح منها نعتاً لممدوحه، والطالح وصفاً لمذمومه على أساس أن الضد يبرز جماله الضد، ومنها ما كتبه أبوعلى البصير أيضاً مداعباً أحد إخوانه: [٠٠ فأقبل علينا تنعم، ولا تنفرد عنا فتندم، فإنك بطاعتنا تسعد، وبمخالفتنا لا ترشد][٣] وقد يعتمد نسيج العمل كله على عنصر المقابلة، ولا يحس معها القارئ بتعقيد لفظي، على خلاف السجع الذي يصم الآذان، وتمله الأذواق إذا ما استكثر منه الكاتب.

ومن النماذج الجيدة ما كتبه الحسن بن وهب وقد أغرته المقابلة بمحاسنها فأكثر منها، ولولا مخافة الإخلال بمنهجية البحث العلمي لأوردتها هنا كاملة، واتباعاً له – أي المنهج – سأحيل عليها[٤].

ويراوح الكاتب حيناً بين الفنين في يسر واتقان، فينتقل من طباق إلى مقابلة في سلاسة كما فعل سهل بن هارون في تهنئته لصديق له أبلّ من مرض[٥].

---

(١) انظر ص ٦٣ من البحث.
(٢) انظر ص ١١٩ من البحث.
(٣) انظر ص ٧٧ من البحث.
(٤) انظر ص ١٠٨ من البحث.
(٥) انظر ص ٩١ من البحث.

ثم إن من سمات هذين الفنين ما نبصره من توازن صوتي، ورونق شكلي، تحلى النص وتجمله، فهي هندسة لفظية محكمة، وعزف موسيقي رائع، يجتمعان فينساب صداهما إلى الآذان فتغرق في متعة وجمال نادرين.

المبحث الثاني

الأسلوب الجدلي والتشكيل الفني

أ – الأسلوب الجدلي:

كانت اللغة في العصور الأولى – الجاهلي والاسلامي والأموي – تؤدي أغراضها وفاءً دون زيادة أو نقصان، وكان تعويلهم يستند على مصدرين مهمين الكتاب والسنة، فانحصرت حياتهم هانئة حول هذين المنهجين المتوافقين، وتشكلت لغتهم – مادة الفكر – على ضوء محدودية الحياة وبساطتها من ناحية أخرى، وكان هذا عاملاً من عوامل ثبات اللغة عند مرحلة من مراحلها حقبة من الزمن، ثم تعاقبت الأيام، وتوالت السنون، فتنامت اللغة بتنامي الزمن حتى بلغت عصر الانفتاح – العصر العباسي – فتطورت القيم، واتسعت المفاهيم من جراء الاحتكاك الثقافي والحضاري مع الأمم الأخرى، فأصبح للعقل سلطان يوازي سلطان النقل، بل زادوا على ذلك فوظفوا النقل في خدمة عطاء العقل، وكان من نتائج ذلك تعدد الأفكار والرؤى، واتساع اللغة بمفرداتها، وطرائقها، وأساليبها، فازدهر الفكر وغزر نتاجه، إيجاباً حيناً وسلباً في كثير من الأحايين، فالمتكلمون، والمعتزلة، وفلاسفة الأدباء أو الأدباء الفلاسفة، والمجتهدون من الفقهاء، كل أولئك على اختلاف مشاربهم، وتباين أهدافهم، كانوا من ثمار التوجه إلى سلطان العقل، وليس هذا التوجه معيباً إذا لم يتعارض مع المسلمات، فقد دعانا الله سبحانه وتعالى إلى التأمل في آياته، والتفكر في مخلوقاته، وجعل للمصيب في اجتهاده أجرين، وللمخطئ أجراً، ودعوة الاجتهاد هذه تكريم للعقل وتحفيز له في أن يطوّف في كل الأنحاء، وأن يجتني مايراه مناسباً لحالة مستجدة من حالات الحياة.

وإذا تبصرنا في بعض مأثور مترسلي الشعراء فإنا واجدون هذه السمة ماثلة في جملة من رسائلهم، يأتي في طليعتها رسالتا سهل بن هارون في مدح البخل، وتفضيل الزجاج على الذهب، أما الأولى – مدح البخل، وتقديمه على الكرم – فقد أتينا عليها، وقد رأينا سهلاً يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، معتمداً على العقل

المجرد عن القيمة والمعتقد الإسلامي، ولولا مخالفتها للثابت لكانت أكثر قوة، وأعمق أثراً، على أنها مقنعة بفضل صياغتها في بعض جوانبها، وبالذات ماكان منها مؤيداً بآية أوحديث، أو أثر، يوظفها الكاتب بإتقان في سياق السرد العقلي ليصل من خلالها إلى بغيته، تأمل قوله: [٠٠ ثم قد تعلمون أنا ما أوصيناكم إلا بما قد اخترناه لأنفسنا قبلكم، وشهرنا به في الآفاق دونكم، ثم نقول في ذلك ما قال العبد الصالح لقومه: "وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الاصلاح ما استطعت، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب" [١]٠٠][٢].

فالوصاية هنا بالغة الإقناع، ذلك لأنها لم تخالف نهج الموصي نفسه، ثم يسندها بآية كريمة تحث على الإصلاح، كما كان هدفه الإصلاح أيضاً، ولكن بطريقته الخاصة، فالدليل العقلي عنده معزز بالدليل النقلي، وذلك هو الخيط الذي ينتظم الرسالة من أولها إلى آخرها، وفي هذا تأثير يقوى ويضعف بحسب قوة إيمان المخاطب وضعفه.

والرجل يدافع عن قضيته في كل الاتجاهات مثله في ذلك مثل المقاتل الذي لايكل ولا يمل، مستعيناً بالفكر في الطرح، والمنطق في الحكم، يسعفه في ذلك ثقافة مزجت بجدلية تميل بقضيته إلى حيث يريد، أو هكذا ذهب به الوهم، يقول -وقد استلهم نظرية اقتصادية تقوم على وجوب التوازن بين الإيراد والانفاق -: [وعبتم عليّ قولي: من لم يعرف مواقع السرف في الموجود الرخيص لم يعرف مواقع الاقتصاد في الممتنع الغالي، فلقد أوتيتُ من ماء الوضوء بمكيلة يدل حجمها على مبلغ الكفاية، وأشد من الكفاية، فلما صرت إلى تفريق أجزائه على الأعضاء٠٠٠ وجدت في الأعضاء فضلاً على الماء، فعلمت أنْ لو كنت سلكتُ الاقتصاد في أوائله، ورغبتُ عن التهاون به في ابتدائه، لخرج آخره على كفاية أوله، ولكان نصيب العضو الأول كنصيب الآخر٠٠٠ وقد قال الحسن عند ذكر السرف: "أما إنه

---

(١) هود ٨٨.

(٢) انظر ص١٢٤ من البحث.

ليكون في الماعونين: "الماء والكلأ"، فلم يرض بذكر الماء حتى أردفه بالكلأ٠٠][1] وهو كما ترى لا يكتفي بإلقاء نظريته قولاً بل يمثلها حسياً بواقع يتكرر في اليوم الواحد خمس مرات، حتى تثبت صورتها في الذاكرة، ويسهل تذكرها دائماً، ثم إن ربطه بين دعوته وبين الوضوء دليل على مكره ودهائه، ذلك أنه يحاول إيهام القارئ بمشروعية هذه الدعوة وصلتها بمحاسن الاسلام، ولا يقف عند هذا الحد رغم كفايتها بل يسندها بأثر إسلامي كعادته، حتى تكتسب صبغة دينية.

ونجده حيناً آخر يتلمس مواطن الضعف في النفس البشرية، ويخاطب فيها حب التملك والأثرة، حين تصل إلى مرحلة من العمر متقدمة، هي في ذاتها حريصة على البقاء، متمسكة بالحياة، وترى تحقق ذلك بإبقاء المال في حوزتها، والتقتير في الإنفاق، ثم يأتي سهل فيتكئ على هذا الوتر الحساس، مما يحدث أثراً عميقاً عند فئة من الناس، يقول: [وعبتموني حين قلت: لايغترن أحدكم بطول عمره، وتقوس ظهره، ورقة عظمه، ووهن قوته، وأن يرى نحوه أكثر ذريته فيدعوه ذلك إلى إخراج ماله من يديه، وتحويله إلى ملك غيره، وإلى تحكيم السرف فيه٠٠][2].

ثم ينثر افتراضاته على طريقة أهل الحساب، فيفترض أن يعمّر، أو يأتيه الولد على اليأس، أو أن يحدث الزمان حدثاً يكون فيه أحوج ما يكون إلى ماله فيسترده ممن لا يرده، فيقع في المحظور، ولات ساعة مندم.

وكلها فرضيات يمكن أن تحدث ويمكن ألا تحدث، ولكن النفس أميل إلى تصديق حدوثها، ومن ثم ينجح سهل بمحاصرة سامعه في بوتقة مخاوفه، فإما أنْ تقع هذه أوتلك، ولا خيار له حينئذٍ إلا باتباع نهج سهل، والسير معه في طريقه الذي رسمه استعداداً للمجهول القادم.

---

(١) انظر ص ١٢٥ من البحث.

(٢) انظر ص ١٢٧ من البحث.

وليس من شك في أن هذه الرسالة بجدليتها المحكمة مقنعة، بل شديدة الإقناع بمعزل عن الموروث الديني الصادق، رأينـا الرجـل - بسـوء نيتـه - كيـف يمتطـي الآثار الإسلامية الشريفة، وينتزعها من سياقاتها الداعية إلى الخير، ثم يوظفهـا فـي سياق آخر لم تخلق له، ليصل من ورائها إلى مراميه، فقد حشد لها كل آليات التأثير من أدلة عقلية إلى نقلية، ولعلي أذكر حكمة لعلي بن أبي طالب - رضي الله عنه- تعبر بصدق وجلاء عن حالة سهل، قال ذات مرة لرجل أحسن في قوله، وفطن إلى سوء نيته: "كلمة حق يُراد بها باطل" (١).

فسهل ألبس قوله لباس الصدق وماهو بصدق، وخـالف عطـاء العقـل - مـن حيث لايدري - الداعـي إلـى التنظيـم والتميـيز، فـي حيـن كـان هـو - أي العقـل - سلاحه الأعظم الذي أشهره في أوجه منتقديه فأرتد عليه.

والرجل مغرم بهدم الثابت، والخروج عن المألوف، ومخالفة العرف، وكلهـا أمور تدل على استقلالية رؤاه، واعتزازه الكبير بذاته، وإن أخذته العزة بـالإثم فـي كثير من الأحايين، كتب في تفضيل الزجاج على الذهب - فـي حيـن أن السـائد هـو العكس-: [الزجاج مجلوّ نوري، والذهب متاع سائر، والشَّراب فـي الزجـاج أحسـن منه في كل معدن، ولا يفقد معه وجه النديم، ولا يثقـل اليـد، ولا يرتفـع فـي السَّـوم، واسم الذهب يتطير منه، ومن لؤمه سرعته إلى اللئام، وهو فـاتن فـاتك لمـن صانـه، وهو أيضاً من مصـائد ابليس ولذلـك قـالوا: أهلك الرجـال الأحمـران(٢)، والزجـاج لايحمل الوضر، ولا يُداخله الغمر، ومتى غسل بالماء وحده عاد جديداً، وهـو أشـبه بالماء، وصفته عجيبة، وصناعته أعجب..](٣).

---

(١) ابن عبدربه، العقد الفريد ٢/٢٣٢.

(٢) الأحمـران عنـد ابـن قتيبـة فـي أدب الكـاتب ص ٣٦ همـا: الخمـر واللحـم، وهـذا التفسـير لايتناسب مع مـراد سـهل، ولا يتوافـق مـع سياقه العـام، ولعلـه قصـد الذهـب والخمـر أو الذهب والفضة كما ذكر أحمد صفوت في الجمهرة ٣/٣٩٥ هامش

(٣) ابن نباته ، سرح العيون ١٣٧.

المقارنة بين متغايرين ليست سليمة عقلاً، غير أن الرجل أبى إلا أن يبرز مقدرته في قلب الأشياء، وتبديل الحقائق، على عادته، وإذا كان حافزه في تقديم البخل على الكرم هدم ما للعرب من قيمة، فإن دافعه هنا معارضة بعض الكتاب[١] الذين مدحوا الذهب وذموا الزجاج، أي أن رسالته قائمة على التناص بمفهوم النقد الحديث[٢]، ولكنه تناص لايحمل قيمة فنية في ذاته، ولا هدفاً في جوهره، فغايته أن يتناص فحسب، لإبراز القوى البيانية، وإظهار تمكنه من الأسلوب الجدلي.

وهو حين يفعل ذلك يستلهم التراث الديني أيضاً، يجتني منه القدر الذي يوافق هواه، ويخدم أهدافه، يقول: ‥ واسم الذهب يتطير منه‥ وهو فاتن فاتك لمن صانه‥ وهذا معنى قوله تعالى "والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم"[٣].

والأسلوب الجدلي لم يكن خاصاً بسهل بن هارون – وإن كانت له الريادة في نشره في الأساليب الأدبية – فبعض مترسلي الشعراء أمتازوا بهذا النهج الأدائي، وبرعوا فيه، وذلك من حيث دقة التعبير، وحسن العرض، وجودة الاستدلال، فالعتابي – مثلا – لايقل بحالٍ عن سهل في هذا الجانب، ولعل ثقافته العالية، وإتقانه للغات المعاصرة في حينه أكسبه بعداً فكرياً، وجعله ينتهج هذا الأسلوب، ويمتطي صهوته بإحكام، وهو مع ذلك سخر قدراته في خدمه الإسلام.

وإذا عدنا إلى المناظرة التي جمعت بين العتابي وأبي قرة النصراني في

---

(١) يذكر ابن نباته في سرح العيون ص ١٣٧ أن سبب كتابة سهل لهذه الرسالة معارضة ما قام به شداد الحارثي، وكان قد وصف الذهب فأطنب، وكان النظام قد ذم الزجاج.

(٢) يقول رجاء عيد: "لقد سبق الشكلانيون إلى مصطلح التناص والذي يرد في ملمح المفارقة بين النص المعارِض والنص المعارَض ومن ثم فالمعارضة تناص‥" انظر مجلة علامات في النقد الجزء الثالث عشر، المجلد الخامس، ديسمبر ١٩٩٥م، ص ١٣٦ – ١٧٧.

(٣) التوبة ٣٤.

حضرة المأمون حول قضية عيسى – عليه السلام – مع خالقه – جل شأنه – التي كانت ولاتزال مثار خلاف أزلي بين المسلمين والنصارى، وجدنا أسلوباً جدلياً رائعاً من العتابي، يدل على ذكائه وحنكته، فنهجه أرتكز على وسيلتين، أولاهما: العقل، وثانيهما: اللغة، فحاور خصمه بما يشتركان معاً في الإيمان به "اللغة والعقل"، واستبعد الأدلة النقلية حتى لايدع مجالاً لنده في الاحتجاج عليه.

فجادله إذن بسلاحه الذي يجيده، وبمنطقه الذي يحسنه، فكان حواراً عقلياً لغوياً استطاع بهما العتابي أن ينتزع الإقرار بالحقيقة من النصراني، وأن يسلم له بذلك رغماً عنه.

والمناظرات عموماً بما تحتويه من قضايا عامة وخاصة تحتاج إلى العقل في تنظيم المسائل، بل هو أداتها الأولى في اختيار الأسلوب الأمثل للحوار، وتوظيف الموروث في خدمة القضية، والناظر في التركة الشعرية عند العرب يجد تفاوتاً كبيراً عند الشاعر الفحل من حيث الجودة والرداءة، والعمق والسطحية، فيدهش لذلك، ويعجب له، وهو في دهشته وعجبه تناسى التفاوت بين المتلقين أنفسهم، مما أتبع ذلك مخاطبة كل فئة بما تعي وتدرك، وفي الأثر الإسلامي عن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – ورد قوله "خاطبوا الناس على قدر عقولهم"[1]، ويوازي هذا القول الحكيم ماورد في الأمثال "لكل مقام مقال".

وبشار بن برد من الشعراء أصحاب المواهب، ورغم ذلك نجد في نتاجه العمق والرقي تارة، وقرب المأخذ في المبنى والمعنى تارة أخرى، لأنه يأخذ في خطاب كل فئه بما يلائم إدراكها، فليس عجيباً إذن أن ينشد بيتيه الشهيرين لربة البيت التي كانت تخصه ببعض بيض دجاجاتها، فقال في مجازاتها وقد أحسن تقدير قدرتها العقلية والذوقية.

---

(١) ابن عبد ربه، العقد الفريد ١٤٣/٤.

[ربابـــــة ربـــــة البيـــــت　　تصـــب الخـــل فـــي الزيـــت

لهــــا عشــــر دجاجــــات　　وديـــك حســـن الصـــوت][1]

فاستغرب صديق له حين سمع قوله هذا، وكأنه استكثر على شاعر في حجم بشار ومنزلته أن يتردى إلى قول السطحي من الشعر، والساذج منه، ومعلوم أن مخاطبة العامة غير مخاطبة الخاصة، والحديث مع الأديب ليس كمثله الحديث مع السوقي وهذه كلها مقامات تتفاوت، ويستدعي كلٌ منها مقالاً يشاكله، وهذا مافعله بشار واحتج له، فربة البيت هنا قد طربت للبيتين، ورضيت عنهما، ولو أنه أختار لها أسلوباً أفخم، ولغة أرقى لغضبت منه، وعدته ناكراً للجميل.

وبشار مدرك لهذه القضية، آخذ نفسه بها، لذا نجده يستنكر استغراب صديقه له، ويقول له في أسلوب جدلي مقنع: [٠٠ يا أبا مخلد الحال بيني وبينك قديمة، وأراك ليس تعرف مذهبي في هذا، هذه إمرأة كانت لها عشر دجاجات وديك، وكنت لا آكل بيض السوق، وإنما آكل البيض المحصّن، فأردت أن أمدحها بما تفهم، ولو أني مدحتها بمثل: قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل وأخواتها لم تفهم ما أقول، ولم يقع منها موقعه، وإنما أنا كالبحر الزاخر، يقذف بالعنبرة، وبالدرة النفيسة، وربما قذف بالسمك الطافي، ولكن لا أضع كل شئ إلا في موضعه٠٠][2].

---

(١) انظر ص ١٦٤ من البحث.

(٢) انظر ص ١٦٥ من البحث.

ب - التشكيل الفني:

للبناء الفني أهمية بالغة في الدراسات النقدية الجادة للأجناس الأدبية عامة، وقد حظي الشعر بشئ من ذلك، في حين أنّ النثر الفني كان كاليتيم المهمل دائما، فلاحظّ له من الدراسة، وإن درس فلا نصيب له من تلمس جمالياته الفنية، رغم أن مدار النقد قائم على النص الأدبي شعراً كان أو نثراً، لافرق بينهما إلا بالقدر الذي يتركه أحدهما في النفس من أثر بفضل مافيه من إبداع، ولا أعلم يقيناً السر الذي يجعل النقاد يفرون من النثر ويرتمون في أحضان الشعر، على الرغم من أنه غني كالشعر، وفاعل كالشعر، ومؤثر كالشعر.

والباحث هنا ملزم بتطبيق هذا المنهج البياني على النثر الفني كنص أدبي يستحق من العناية ما استحقه الشعر من قبله، كما أنه ليس من المنطق أن أجأر بالشكوى من دارسي النثر ثم أقع فيما وقعوا فيه فتنطبق عليّ حكمة السابق:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم(١)

واستعراض البناء في مأثورهم يمر عبر القنوات الرئيسة التالية، والتي تصب جميعها في حوض واحد هو البناء التام، وهي:

١ - التناسب. ٢ - هرمية النص النثري. ٣ - التكرار.

١ - التناسب:

وهي قضية إحساس وذوق واحتياج، ليس في مجال الفنون فحسب، بل في

(١) نسب البيت إلى أكثر من شاعر، فنسب في كتاب سيبويه، ت: عبدالسلام هارون، الخانجي ٤١/٣، ٤٢ إلى الأخطل، ولم يرد في ديوانه؛ ويذكر البغدادي في خزانة الأدب ٥٦٧/٨ أنّ المشهور أنه لأبي الأسود الدؤلي؛ وورد البيت في ديوان أبي الأسود الدؤلي، صنعه الحسن السكري، ت: الشيخ محمد بن حسن آلي ياسين، مؤسسة جيم للطباعة، بيروت، ١٩٨٢م، ص ٤٠٤.

مجالات الحياة، فما قد يلائم شاباً من زي لايتناسب ذلك مع عجوز، وهذا هو الإحساس، وما يتوافق من ملبوس لشعب ليس بالضرورة أن يكون مشاعاً لغيره من شعوب الأرض، وهذا هو الذوق والخصوصية، وما يحسن لزمن دون غيره، أو لفصل دون سواه هو مانعبر عنه بالاحتياج.

فالمناسبة إذن قريبة من نظرية "المقال والمقام" وإن كانت أشمل منها وأعم لأنها قضية حياة ما الأدب منها سوى جزءٍ، فهو كغيره يحتاج إلى عنصر المناسبة في بناء النص – أي نص – فهي تمثل "الترمومتر" الذي يعبر بدقة عن صحة البناء، وسلامة الأساس، فالأسلوب لابد أن يناسب الغرض، فإذا أخذنا نصاً في الغزل – مثلاً – فإنا واجدون لبناته – أس البناء – لا تخرج عن الحب / الهيام / الحنين / الشوق/ اللقاء/ الفراق، وما في حكمها، فهذه هي ألفاظ الغزل يشترك فيها المتغزلون جميعاً، فتنشط دلالتها وتتغير قليلاً أو كثيراً من نص إلى آخر، وتحلق في سماء الفن كطائر عذب الصوت، جميل المنظر، لأن المبدع يضفي عليها من نفسه وروحه مايهبها ذلك الجمال المتميز، وإن كانت في مجملها لا تخرج عن توصيف الأثر الجميل الذي تركه باعث الغزل، فهي ليست ألفاظاً مقيدة المعاني، معجمية الدلالة، ولكنها أكثر حياة، تحكي الأثر بصورة إجمالية.

وسنأخذ – إن شاء الله – نماذجاً من مأثور مترسلي الشعراء، لنستطلع من خلاله البناء الفني، فلتكن الرسائل الخاصة، فهي لم تكتب عن رغبة أو رهبة، وهذا أدعى إلى صدق لغتها، فما هي مادتها؟ وهل تتاسب الأسلوب مع الغرض؟ ثم ماهي إضافاتهم على السياق العام "الموروث" ؟

معلوم أن الكلمات إرث يشترك فيه أبناء اللغة، ينتقل بين الأجيال، ويتباين الانتفاع به من قبل الورثة بقدر مواهبهم، ولكن الأسلوب – عند البارع من الأدباء – يعيد صياغتها ويحيلها من مفردات محدودة الأثر، نفعية الوظيفة، إلى شاعرية الأداء، تترك أثرها في النفس فتهيم بها، فالكاتب هنا كالشاعر الذي قال فيه الحق

سبحانه وتعالى: (والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون، وأنهم يقولون مالا يفعلون)(١).

تأمل قول الحسن بن وهب في خطاب صديق له: [٠٠ وكن لي كأنا، فوالله ماعجتُ عن ناحيتك، وأنا محني الضلوع إليك، والسلام](٢).

أداء جمالي في لغة رائعة، تناسب الأسلوب بغلوه ومبالغته مع حرارة العاطفة وصدقها، ٠٠ كن لي كأنا٠٠ ثم يصعقنا بجملته الأخيرة التي يقف إزاءَها القلم حائراً لايجيب فما عساه أن يقول سوى إنه "سحر البيان" فالكناية أحكمت البناء في لطف، تحاكي مايختلج في نفس الحسن من مشاعر جياشة.

ويرتكز البناء على الأسلوب بما يحمله من ومضات إبداعية تضئ العمل، وترفع بنيانه، ولا يتأتى ذلك إلا لأصحاب الملكة، كتب محمد بن عبد الملك الزيات إلى صديق له: [يا أخي مازلت عن مودتك٠٠ ولا استبطأت نفسي لك٠٠](٣).

والاستعارة – مثلاً – من أسس البناء إذا احتاج إليها العمل من دون استدعاء مخل، أو إقحام لها في غير مكانها، وهذا هو التناسب الذي أشرنا إليه، كتب سعيد بن حميد إلى صديق له يستحثه على المجئ: [طلعت النجوم تنتظر بدرها٠٠](٤) فعنصر البناء هنا الإغراء بمفاتنه التي هيأته الاستعارة الشاعرية للصديق المنتظر، وهو إغراء بياني بارع التصوير، حركي الصورة، لم تدع مجالاً للقادم سوى السطوع في مجلسهم جواباً وحيداً ومقنعاً في الآن معاً.

ثم يأتي الرمز القرآني بما يحمله من إشباع نفسي، وامتلاء لغوي، فيؤدي

---

(١) الشعراء ٢٢٤ – ٢٢٦.

(٢) انظر ص ٧٤ من البحث.

(٣) انظر ص ٧٥ من البحث.

(٤) انظر ص ٧٧ من البحث.

دوراً بالغ التأثير في عملية البناء، فيذهب بالنص إلى آماد عميقة الغور، كتب العتابي – وقد ضاقت به الحال – إلى صديق له يستمنحه بعض المال، فلم يجد أبلغ ولا أصلح من الرمز القرآني بخاصيته المحكمة في أداء رسالته، يقول: [٠٠ حتى أصابتنا سنة من سني يوسف٠٠][١] اشارة إلى قوله تعالى: (يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون)[٢] فالرمز كما هو ظاهر قد اختزل طاقة من الإيماءآت الغنية، وضمها في نسق الأداء البليغ، فكان المفتاح الذي دخل بمعونته إلى نفس صاحبه وقلبه، فعمل فيهما ذلك الأثر الذي حدا به إلى مقاسمة الكاتب ما يمتلكه[٣].

وليس معنى المناسبة أن تتداخل النصوص في أساليبها، وتتوافق في أدائها، وإن كان هذا ليس بمستبعد في الآداب، وليس خللاً أيضاً بشرط أن يضيف اللاحق على السابق ما يميزه عن غيره، تأمل ما كتبه أبو على البصير إلى أحد إخوانه، وقد يبدو من ظاهر النص إفتقاره إلى عنصر المناسبة، يقول: [يومنا يوم رقيق الحواشي٠٠ فاقبل علينا تنعم، ولا تنفرد عنا فتندم، فإنك بطاعتنا تسعد، وبمخالفتنا لا ترشد][٤] فالحال بين الأصدقاء يحتمل هذه المداعبة، ويستملحها، وهو التميز الذي نعنيه مع الإلتزام بالمناسبة، فالصديق لا يعني بالندم دلالته الأولية كما يبين ذلك السياق العام وحالته.

وبعد، فلا أزعم أن البناء فكر نقدي محدث، بل هو ضارب في القدم، فطن إليه أصحاب المواهب، فأخذوا أنفسهم به في منتوجهم الأدبي، وإن لم يفسروه كحالة إبداعية داخلية في عمق النص، وقد نجد لمحات يسيرة تشير إلى ذلك في غير

---

(١) انظر ص ٨١ من البحث.
(٢) يوسف ٤٦.
(٣) انظر ص ٨٢ من البحث.
(٤) انظر ص ٧٧ من البحث.

إسهاب، كما فعل ابن خلدون في خطاب الشاعر مؤكداً على ضرورة المناسبة في بناء القصيدة، يقول: [٠٠ ثم يأتي ببيت آخر كذلك، ثم ببيت، ويستكمل الفنون الوافية بمقصوده، ثم يناسب بين البيوت في موالاة بعضها بحسب اختلاف الفنون التي في القصيدة][١] وقال أيضاً [وإذا سمح الخاطر بالبيت ولم يناسب الذي عنده، فليتركه إلى موضعه الأليق به، فإن كل بيت مستقل بنفسه، ولم تبق إلا المناسبة][٢].

---

(١)،(٢) المقدمة ٥٧٠، ٥٧٤.

٣ - هرمية النص النثري:

ونعني بها التدرج في بناء النص، مع اتحاد عناصره الثلاثة "مقدمة، غرض، خاتمة" وتوجيهها نحو تحقيق الهدف من إنشاء الكتابة.

فالبناء الفني يسير بالنص كوحدة متلاحمة الأعضاء، المقدمة فيه تشير إلى غرض النص إشارات خفيفة من غير أن تسبقه أو تقتحم مجاله، فلها حد ينبغي أن تقف عنده، والغرض تفسير وتحليل وتفصيل لتلك الإشارات، أما الخاتمة - آخر ما يطالعه القارئ - فيستحسن - في عرف أهل هذه الصناعة - أن تكون نتائج أو تكثيفاً أو توكيداً لما سبقها؛ فالنص بهذا المفهوم وحدة متماسكة، لا يند أحد أطرافها على الآخر، وكل عنصر منها له وظيفة ودورٌ مهم في البناء.

على أن هذه العناصر الثلاثة مرت بمراحل كما مر الشعر، فعمل فيها الزمن عمله، فالقصيدة - مثلاً - كانت تشتمل غالباً على "مقدمة وغرض وخاتمة" منذ العصر الجاهلي إلى بدايات العصر العباسي، ثم بدت المعايير الفنية تختلف فاستبدلت المقدمة الطللية بالخمرية، والغزلية بالغلمانية، وفي كثير من الحالات أُستغني عن المقدمة.

والنثر مثله في ذلك، اختلفت بعض معاييره باختلاف الزمان، فقل الاحتفاء بالعناصر السابقة مجتمعة، فلم نعد نرى المقدمة إلا في مثل الرسائل الرسمية الموجهة إلى الخليفة، وتلك التي تنقل سياسة الدولة إلى عامة الناس، وأصبح هذا الأمر ظاهرة فنية محدثة، أشتمل الجنس الأدبي بشقيه الشعري والنثري.

والمبحث هنا معنيٌّ بذلك اليسير مما توافرت فيه عناصر البناء الهرمي.

المقدمة:

وهي إرهاص بالقادم، وتوطئة له، فالكاتب الجيد يطلق إشاراته الخفيفة للنفس لتحسن استقبال الغرض، وهو الثقل في الرسالة والهدف معاً. فالصدمة الفنية في هذه الحالة ملغاة بفعل المقدمة، وليس من أهداف الكاتب ذلك، لأن همه كله منصب حول الصلب الذي يعرضه بين يدي طالبه في صورة يحسن بها، حتى يحقق القبول والاستجابة لما فيه.

والمقدمة أيضاً تحتاج إلى المناسبة حتى يصح البناء الهرمي، ومن الخلل البين أن يكون التحميد مخالفاً للغرض، ومغايراً للمضمون، يقول ابن الأثير في نقد الصابي: [ووجدت أبا إسحاق الصابي على تقدمه في فن الكتابة قد أخل بهذا الركن – يعني المناسبة – الذي هو من أوكد أركان الكتابة، فإذا أتى بتحميدة في كتاب من هذه الكتب لاتكون مناسبة لمعنى ذلك الكتاب، وإنما تكون في وادٍ والكتاب في واد..][(١)] ومترسلو الشعراء أولوا هذا الركن جُل عنايتهم، فلنأخذ – مثلاً – رسالة سعيد بن حميد في شرح ملابسات الفتنة التي أشعلت رحى الحرب بين أحمد المتوكل ومحمد بن عبد الله بن طاهر، كتب ابن حميد على لسان ابن طاهر بعد أن توقفت الحرب، وتحقق النصر، وكانت موجهة إلى أهل بغداد [بسم الله الرحمن الرحيم: أما بعد، فالحمد لله المنعم فلا يبلغ أحد شكر نعمته، والقادر فلا يعارض في قدرته، والعزيز فلا يذل في أمره، والحكم العدل فلا يرد حكمه، والناصر فلا يكون نصره إلا للحق وأهله، والمالك لكل شئ فلا يخرج أحد عن أمره، والهادي إلى سبيل رحمته فلا يضلٌ من أنقاد لطاعته، والمقدِّم إعذاره ليظاهر به حجته، الذي جعل دينه لعباده رحمة، وخلافته لدينه عصمة، وطاعة خلفائه فرضاً واجباً على كافة الأمة..][(٢)].

---

(١) المثل السائر ١٠٨/٣.

(٢) انظر ص ٦٨ من البحث.

السياق العام – كما هو ظاهر – غنيّ بالإيماءآت العميقة، ومشبع بلغة الفرح، فالألفاظ تكتسي بحلل النصر الذي تحقق، وهو نصر على فئة من البغاة من المسلمين أنفسهم، خرجوا على ولي أمرهم، والكاتب لايذكر ذلك صراحة ولكن يعرِّض به، والتعريض أبلغ في المقدمة من التصريح، يقول: [وطاعة خلفائه فرضاً واجباً على كافة الأمة..] فلم يقنع بفرضية الطاعة حتى عززها بالوجوب، مستلهماً ذلك من قول الحق سبحانه وتعالى (ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم)(١) وتتوالى الجمل ذوات العمق الدلالي موحية بالأحداث على الإجمال.

والنقاد(٢) يحمدون للأديب سلامة ذوقه، وصحة تخيره لألفاظ الابتداء حتى تتوافق مع الغرض، ويعيبون عليه حين يخل بهذا المعيار النقدي، ولهم كلام يطول شرحه وليس هنا مكان ذكره، فيما يحسن من الاستهلال ومايقبح، وإن كانت في مجملها تحث على المناسبة، ومراعاة الحال، وسعيد بن حميد في مقدمته هذه قد أحسن الابتداء وأجاد فيها، فلم تخرج عن مقامها، وكانت تمهيداً جيداً لما وراءها، ولم تتجاوز الإجمال إلى التفصيل، بل تركت ذلك لموقعه من الرسالة.

ومن المقدمات الجيدة ما كتبه سهل بن هارون في رسالته الشهيرة في مدح البخل، وهي جيدة من ناحية قيمتها الفنية لا من حيث مضمونها، تشي بالغرض من غير افصاح أو ابهام، ففيها إشارات دالة على مراميها، وتلميحات بأهدافها، أي أنها توطئة للغرض، وتحسين له، واستنفار للأسماع في تقبل ماسيلقى عليها، يقول: [بسم الله الرحمن الرحيم أصلح الله أمركم، وجمع شملكم، وعلمكم الخير، وجعلكم من أهله، قال الأحنف بن قيس "يامعشر بني تميم لا تسرعوا إلى الفتنة فإن أسرع

---

(١) النساء ٥٩.

(٢) انظر العسكري، الصناعتين ٤٨٩ – ٤٩٦ فقد ضرب أمثلة كثيرة للمطالع القبيحة التي انفصلت عن غرضها، وخالفت مقامها، وأورد أيضاً أمثلة رآها جيدة لتوافق مطالعها مع مراميها.

الناس إلى القتال أقلهم حياءً من الفرار "وقد كانوا يقولون إذا أردت أن ترى العيوب جمة فتأمل عياباً فإنه إنما يعيب الناس بفضل مافيه من العيب" وأول العيب أن تعيب ماليس بعيب، وقبيح أن تنهي مرشداً، وأن تغري بمشفق، وما أردنا بما قلنا إلا هدايتكم وتقويمكم، وإلا إصلاح فسادكم، وإبقاء النعمة عليكم..][1]

وهذا جزء من المقدمة كان الإجمال سمتها - على نهج المقدمات الجيدة - وكما أن الناقد يستحسن البيت الذي يدل صدره على عجزه[2]، فإن المقدمة التي تدل على غرضها من غير افصاح جيدة بهذا المعيار، نلمس منها معاناة الكاتب النفسية في مواجهة العرب، لتصادم القيم بين العنصرين العربي والفارسي، فعند الأول بذل المال شرف لايعدله شرف، أما الثاني فيرى حفظ المال هو الشرف والعقل معاً، لذا نجد إشاراته اللغوية مشبعة بغضبته ورغبته في تحطيم هذه القيمة الأصيلة دون تصريح أو اسهاب.. أصلح الله أمركم .. علمكم الخير .. جعلكم من أهله.. وما أردنا إلا هدايتكم .. إصلاح فسادكم .. ابقاء النعمة عليكم؛ إشارات تحوم حول الهدف ولا تلامسه، واختزال لغوي لثورة عارمة في صدره، عبرت عنها هذه الجمل من بعيد، وما تلبث بعد ذلك أن تنفجر إلى سيل من الحجج والأدلة، ولكن ذلك لايجدي نفعاً لتعارضها ليس مع العرب فحسب بل مع قيم الإسلام.

وإذا كانت المقدمتان السابقتان قد اتسمتا بالجودة الفنية فما ذلك إلا لأنهما قد ألتزمتا بمعايير المقدمة الناجحة، من توطئة تهئ النفس، إلى إجمال يشحذ الذهن، وتعريض يدعو إلى إعمال الفكر.

وسأعرض هنا - إن شاء الله - مثالاً لمقدمة أخلت بهذه المعايير، فسقط دورها في البناء الهرمي، بل وكانت وبالاً على العمل كله، لأنها ذابت داخل النص

---

(١) انظر ص ١٢٣ من البحث.

(٢) انظر ماكتبه الجاحظ في البيان والتبيين ١/١١٦.

"الغرض" إضافة إلى ماعتراها من تناقض صريح بين الدال والمدلول، مع إهمال المقام وما يستوجبه من مقال، وأعني بها مقدمة أبي على البصير من رسالته التي هجا بها أبا العيناء، يقول: [من أبي على البصير، ذي البرهان المنير، المبلغ في التحذير، والمعذر في النكير، إلى أبي العيناء الضرير ذي الرأي القصير، والخطل الكثير، والإقدام بالتعبير، سلام على المخصوصين بالسلام، من أجل حقيقة الإسلام، المؤمن بالحلال والحرام، والفرائض والأحكام، فإني أحمد الله إلى نفسه، وأوليائه من خلقه على ماهداني له من دينه، وعرفني من حقه، وامتن عليّ به من تصديق رسله، والأخذ بسننه، واتباع سبله، وصلى الله على محمد نبي الرحمة، والداعي إلى ربه بالحكمة..][1].

فيظهر من الكلمات الأولى لغة الهجاء الصريحة.. المبلغ في التحذير.. المعذر في النكير .. إلى أبي العيناء الضرير.. ذي الرأي القصير.. إلى آخر منظومة الهجوم على غريمه، وهذا خلل فني يعيب المقدمة، لأنها كشفت الستار – من غير مواربة – عن ماهية الرسالة من سطرها الأول، ولم تقف عند حدها الذي يحسن بها أن تقف عنده، فكأنها بهذا التجاوز قد ألغت دور الغرض نفسه، فلم يعد بنا حاجة إلى قراءة مابعدها، لأنه إمتداد للمقدمة ذاتها، وليس هذا كل مايعيبها، فهنالك التناقض الواضح بين الدال والمدلول – كما أشرت – فمن يقرأ قوله :[وامتن عليّ به من تصديق رسله، والأخذ بسننه..] يظن أن الرجل قد تراجع عن هجائه اتباعاً لنهج المصطفى الكريم – صلى الله عليه وسلم – واكتفى بما قدم غير أنه يسقط مرة أخرى في الانحراف الأسلوبي، ويستأنف الهجاء بعد ذلك مباشرة بقوله: فإنك الدقيق حسبه، الردي مذهبه..

فهجاء في استهلالها، ثم تحميد يشي بالتزامه السنة المحمدية، ثم يعقبه بهجاء، هو دلالة على اضطراب نفسه، مما اقتضى وقوعه في جملة من الأخطاء

---

(١) انظر ص ١١٩ من البحث.

الفنية، وتعارض ما يقوله من تحميد رائع مع مايفعله مما أخرج - في النهاية - عملاً مرتبكا، أختل بناؤه، وضعف تماسكه، فانهار من الوجهة النقدية، وكانت مثالاً للمقدمة الخاطئة التي أبطلت مفعول الرسالة.

ومن اللافت للنظر أن المقدمة عموماً سمة الرسائل الطويلة، فالكاتب يحتاج إليها في ربط شتات عمله، بخلاف الرسائل الموجزة فإنها في غنى عنها.

الغرض:

يجد الكاتب هنا مساحة كبيرة للتفصيل والتحليل والشرح والتعليل، ولهذا العنصر عملت المقدمة، ولأجله كانت الخاتمة، فهو المحتفى به في النص.

الخاتمة:

من خلال استقراء النصوص النثرية الجيدة، وجد "الباحث" أن البداية لها حدّ ينبغي أن تقف عنده من التلميح دون التصريح، ومن الخلل أن تتجاوزه إلى ماهو أبعد من ذلك، والغرض تفصيل لما ورد في البداية من إيماءآت، ثم تأتي النهاية مختتمة عناصر البناء الهرمي، ولأنها آخر أجزاء العمل الأدبي وأهمها، نجد أن الكاتب يُعني بها أكثر من عنايته بغيرها، فهي – في الغالب – أبقى في ذهن القارئ وألصق، ومن هنا كان حرص الكاتب على تجويدها.

وتتلون الخاتمة من كاتب إلى آخر، وذلك بحسب طاقة الأديب ومقدرته على حسن توظيف النهاية في خدمة الهدف من العمل الإبداعي نفسه، فتارة تكون نتائج لما سبقها، وأخرى نراها تكثيفا عميقاً لمذهب فكري ينتمي إليه الكاتب، وفي أحايين كثيرة تأتي توكيداً مباشراً للغرض، ويكون ذلك بأسلوب التذييل الشعري المشاع بين موهوبي الكتاب الشعراء.

أما الخاتمة السيئة فهي تلك التي تداخلت في العنصرين السابقين، فلم تتميز عنهما بشيءٍ، وفقدت بذلك هويتها، وانعدم تأثيرها في بناء العمل، كخاتمة أبي علي البصير في السخرية من أبي العيناء[١].

النتائج:

ومثالها رسالة سعيد بن حميد إلى أهل بغداد، والتي أوردت مقدمتها آنفاً[٢]، يقول في نهايتها وقد ذكر ما آلت إليه المعركة: [٠٠ والجراح فاشية فيهم حتى إذا عاينوا ما أنزل الله بأشياعهم من البوار، وأحل بهم من النقمة والاستئصال، مالهم

(١) انظر ص ١٢١ من البحث.
(٢) انظر ص ٢٤٨ من البحث.

من الله من عاصم، ولا من أوليائه ملجأ ولا مَوْئل، ولوا منهزمين مفلوبين، منكوبين، قد أراهم الله العبر في اخوانهم الغلوية، وطوائفهم المضلة، وضلّ ما كان في نفوسهم لما رأوا من نصر الله لجنده، وإعزازه لأوليائه، والحمد لله رب العالمين، قاطع الغواة الناكبين عن دينه، والبغاة لعهده، والمرّاق الخارجين من جملة أهل حقه حمداً مبلغاً رضاه، وموجباً أفضل مزيده، وصلى الله أولاً وآخراً على محمد عبده ورسوله، الهادي إلى سبيله، والداعي إليه بإذنه، وسلم تسليماً][1] فالخاتمة هنا نتائج لما سبق وأنْ أومأ به الكاتب في المقدمة، وما أطنب في عرضه وشرحه في الغرض، ثم نلمح هذا التحميد المتناسب مع المقام الذي يربط البداية بالنهاية، وهذا هو الإحكام الفني الرائع في البناء الهرمي، فالقارئ لهذا العمل – رغم طوله – لا يشعر معه بملل، ولا يحس في أجزائه الثلاثة بخلل، بل يجد ترابطاً جيداً، كل محور فيه يفضي إلى مايليه في إتقان يشد العمل، ويقارب بين أجزائه، فالبداية إشارة، والغرض إضاءة، والخاتمة نتاج ذلك كله.

التكثيف:

خاتمة الرسائل الفكرية[2]، ومثل هذا الضرب من الرسائل لاتنتهي بنتيجة محددة، ولكنها تبث دعوة، وتدعو إليها، فخاتمتها تكثيف للأدلة التي من شأنها أن تستقطب الأنصار لها.

صحيح أن الكاتب ينثر أدلته في ثنايا رسالته، ولكنه يستبقي المهم من الأدلة، والكثير منها، ثم يصبها في النهاية، حتى تبقى حية في الذهن من باب التأثير في المتلقي، وخير مثال لذلك رسالة سهل بن هارون في البخل، يقول: [وعبتموني حين قلت: إن فضل الغنى على القوت إنما هو كفضل الآلة تكون في الدار إن احتيج

---

(١) انظر ص ٧١ من البحث.

(٢) رسائل المأمون إلى علماء المسلمين في الدعوة إلى فكرة خلق القرآن الكريم مثلاً لم تكن نتائج، لأنه ليس من أهدافها ذلك، ولكنها كانت تكثيفاً للأدلة، وقس على ذلك ماشابهها.

إليها استعملت، وإن استغني عنها كانت عدة، وقد قال الحصين بن المنذر: وددت أن لي مثل أحد ذهباً لا أنتفع منه بشيءٍ، قيل: فما ينفعك من ذلك؟ قال: لكثرة من كان يخدمني عليه، لأن المال مخدوم، وقد قال بعض الحكماء: "عليك بطلب الغنى فلو لم يكن لك فيه إلا أنه عِزّ في قلبك وذلّ في قلب عدوك لكان الحظ فيه جسيماً، والنفع عظيماً" ولسنا ندع سيرة الأنبياء، وتعليم الخلفاء، وتأديب الحكماء لأصحاب الأهواء، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر الأغنياء باتخاذ الغنم، والفقراء باتخاذ الدجاج، وقال: "دِرْهمك لمعاشك، ودينك لمعادك" فقسموا الأمور كلها على الدين والدنيا ثم جعلوا أحد قِسْمَي الجميع الدرهم.

وقال ابوبكر الصديق – رضي الله عنه – "إني لأبغض أهل بيت ينفقون نفقة الأيام في اليوم الواحد" وكانوا يبغضون أهل البيت اللحمين، وكان هشام يقول: "ضع الدرهم على الدراهم يكون مالاً" ونهى أبوالأسود الدؤلي وكان حكيماً أديباً، وداهياً أريباً عن جودكم هذا المولد، وعن كرمكم هذا المستحدث، فقال لابنه: "إذا بسط الله في الرزق فأبسط، وإذا قبض فاقبض، ولا تجاود الله فإن الله أجود منك" وقال: "درهم من حل يخرج في حق خير من عشرة آلاف قبضاً" وتلقط عَرُندا من بريم فقال: تضيعون مثل هذا وهو قوت امرئ مسلم يوماً إلى الليل، وتلقط أبوالدرداء حبات حنطة فنهاه بعض المسرفين، فقال: "لِيهن ابن العنبسة أن مرفقة المرء رفقة في معيشته" فلستم عليّ تردون، ولا رأيي تفندون، فقدموا النظر قبل العزم، وتذكروا ماعليكم قبل أن تذكروا مالكم والسلام][(١)].

وقد فضلت أن أورد هذه الخاتمة كاملة – على طولها – حتى نرى التكثيف الذي أشرت إليه، فلا يخلو سطر من أثر نقلي، والرجل قبل الخاتمة كان يراوح بين العقل والنقل في الاستدلال لمذهبه، غير أنه آثر النقل على العقل في الخاتمة حتى

(١) انظر ص ١٣١ من البحث.

يجعل الصراع بين منتقديه وبين الفضلاء ممن استشهد بآرائهم، لا بينه وبينهم، يزيد في تأكيد ذلك قوله في آخر رسالته٠٠ فلستم عليّ تردون، ولا رأي تفندون، وهذا أسلوب في الدعوة ماكر، وإن خانته النية، فهي الفيصل بينه وبينهم.

التذييل:

وهي من الأساليب المشرعة بين الناثرين من الشعراء، فينثر الكاتب مايريد قوله ثم يجمعه شعراً، من باب التوكيد، وتعزيز الغرض، وللنقاد في هذا المذهب آراء، يقول العسكري: [وللتذييل في الكلام موقع جليل، ومكان شريف خطير، لأن المعنى يزداد به انشراحاً، والمقصد اتضاحاً][(١)]وللتذييل محاذير لايجهلها الكاتب المدرّب، فمخاطبة علية القوم ليست كمخاطبة الخاصة من الأصحاب، فلكل منهما أسلوب يناسب مقامه، ورسوم حددها العارفون بالآداب، يقول إبراهيم المدبر في وصاته للكتاب [٠٠ فإن تضمين المثل السائر، والبيت العابر البارع مما يزين كتابك مالم تخاطب خليفة أوملكاً جليل القدر، فإن اجتلاب الشعر في كتب الخلفاء والجلة الرؤساء عيبٌ واستهجان للكتب، إلا أن يكون الكاتب هو القارض للشعر، والصانع له، فإن ذلك مما يزيد في أبهته، ويدل على براعته][(٢)].

ولكن كيف للقارئ أن يعلم صاحب الشعر إن لم يحدده الكاتب، يقول في ذلك الكلاعي: [وكان المجيد كثيراً مايضمن في رسائله أشعاره وأشعار غيره، فكان إذا ضمن أشعاره يوافق بين قافيتها وبين السجع الذي قبلها، ليُعلم بذلك أن الشعر له، وكان إذا ضمن أشعار غيره خالف بين السجع والقافية، وهذا حسن يجب أن يتمثله من أراد إحكام صنعة الكلام][(٣)].

---

(١) الصناعتين ٤١٣.

(٢) الرسالة العذراء لإبراهيم المدبر. انظر جمهرة رسائل العرب ١٧٨/٤.

(٣) إحكام صنعة الكلام ص ٧١، ٧٢.

ولعل هذه الطريقة التي يدعو إليها الكلاعي كانت سائدة عند كتاب القرن الرابع ومابعده، فكأنهم استثقلوا تعيين قائل الشعر إن كان من عند غيرهم أو من عند أنفسهم، على خلاف نهج سلفهم من كتاب القرنين الثاني والثالث، فكثيراً ما نقرأ لهم•• وقد قال الشاعر •• أو ولله در القائل •• أو وأنا الذي أقول•• ولعل عدم التزامهم السجع حال بينهم وبين اتباع هذه الطريقة الجيدة التي أشار إليها الكلاعي.

والتذبيل في رسائل المترسلين الشعراء كثيرٌ جداً، والسبب في ذلك يعود إلى أنهم شعراء، فلا تكلف في ايراد الشعر عندهم بعد النثر، ولا يجدون عنتاً في ذلك ولا مشقة، ولهذا السبب أيضاً كان جُلّ ماسطروه من شعر من مأثورهم الخاص، ومنه ماكتبه "العتابي" إلى صديق له يستحثه على العطاء وإن قلّ، بدأ بالنثر واكده بالشعر يقول: [•• وأنا أقول في ذلك:

ظِلُّ اليسار على العباس ممدود ... وقلبُه أبداً بالبخل معقودُ

إن الكريمَ ليُخْفي عنك عُسْرتَه ... حتى تراه غنياً وهو مجهودُ

وللبخيل على أمواله عِلَلٌ ... زُرْقُ العيون عليها أوجُهٌ سود

إذا تكرهتَ أن تعطي القليل ولم ... تقدرْ على سَعَةٍ لم يظهر الجود

بُثَّ النوالَ ولا يمنعك قِلَّتُه ... فكلُّ ماسدَّ فقراً فهو محمود][١]

وكتب الحسن بن وهب رسالة إلى المتوكل يهنئه بالنيروز، ثم أعقبها بالشعر، وكلا الفنين يتداخلان لغة وشعوراً، فالثاني منهما تقوية للأول، وتعزيز له، يقول:

فداك الزمان وأهل الزمان ... إمام الهدى بك مستبشرينا

قد ألقوا إليك مقاليدهم ... جميعاً مطيعين مستوسقينا

---

(١) انظر ص ٨١ من البحث.

ولازلـــــت زينــــاً لأعيادنــــــا — وللديــن كهفــاً وحصنــاً حصينــا
يعــــز بدولتـــك الصــــالحون — ويشـقى بـك الشـرك والمشـركونا
فيــــارب مشــــكلة أبرقــــت — فجللتهــا السـيف حقــاً يقينــا
بصــــدق عزيمــــة مســـتبصر — وضــرب يقــد الطلــي والمتونــا
وســمت النصــارى بشــيطانها — وذللــت منهــا الأغــرّ البطينــا
وكـم فعلــة لــك فــي المشــركين — أقــرّت عيونــاً وأبكــت عيونــا][1]

ومن التهاني المذيلة بالشعر ماكتبه سعيد بن حميد إلى صديق له في يوم نيروز أيضاً، وجعل الاعتراف بالتقصير هديته، وهذا المعنى يتكرر بلفظة ومعناه في النثر وفي الشعر، يقول:

إن أهْــدِ مــالاً فهـــو واهِبُــهُ — وهـــو الحقيـــقُ عليـــه بالشـــكر
أو أُهْــدِ شــكري فهـــو مرتَهَــنٌ — بجميـــل فِعلـــك آخِـــرَ الدهـــر
والشـــمس تســتغني إذا طلعَـــتْ — أن تســـتضيَ لِسُـــنَّةِ البـــدر][2]

وأبو العتاهية حين استرفد معن بن زائدة فرده، نراه يلجأ إلى الفنين معاً في هجائه، فكأن أحدهما لا يشفي غليله في النيل من خصمه، كتب مذيلاً رسالته بالشعر حاملاً ذات العناصر التي سبقه إليها النثر، يقول:

[٠٠ وفي ذلك أقول:

---

(١) انظر ص ٩١ من البحث.
(٢) انظر ص ٨٩ من البحث.

فررتُ من الفقرِ الذي هو مُدْركي إلى بُخلِ محظور النَّوالِ منُوعِ

فأعقبني الحرمانَ غِبٌّ مطامعي كذلك من تلقاه غير قنوعِ

وغيرُ بديعٍ منْعُ ذي البخل مالَهُ كما بَذْلُ أهلِ الفضل غير بديع

إذا أنتَ كشَّفْتَ الرجالَ وجدتهم لأعراضهم من حافظٍ ومُضيعِ][1]

ماسبق عرضه يمثل الاستثمار الأمثل لمواهبهم دون اللجوء لمأثور سواهم، سواء في خطاب العلية من القوم أو في خطاب الخاصة من الأصدقاء، وهي ميزة يختصون بها، وإن شاركهم فيها بعض من يحسن إنشاء الشعر من موهوبي الكتاب.

على أن المترسلين لم يلتزموا بهذا النهج في كل ما حبروه من رسائل، فنراهم – في النادر – يشذون عن هذه القاعدة، ويستعينون بمأثور غيرهم الشعري، فهذا محمد بن عبدالملك الزيات على وفرة مواهبه، وتمكنه من ناصية البيان في كلا الفنين، يلجأ إلى بضاعة غيره، إعجاباً بما تحمله من معان جيدة، وعاطفة حارة، كتب رسالة موجزة ثم أعقبها ببيتين يقول: [٠٠ ولله در القائل:

أما والذي لو شاء لم يخلق النَّوى لئن غبتَ عن عيني لما غبتَ عن قلبي

يُذكرنيكَ الشَّوقُ حتى كأنني أناجيكَ عن قربٍ وإن لم تكن قربي][2]

فهذان البيتان قد أثرا في ابن الزيات، لذا نجد ظلالهما في منثوره بالألفاظ والمعاني استمع إليه [٠٠ وإن شخصك لماثل نصب طرفي، ولقلّما يخلو من ذكرك قلبي٠٠][3].

ومثلها في سطوة الشعر المقتبس على مأثور الكاتب النثري ماكتبه سعيد بن

(١) انظر ص ١١٥ من البحث.
(٢) انظر ص ٧٥ من البحث.
(٣) انظر ص ٧٥ من البحث.

حميد إلى صديق له، يقول [... كقول أخي أبي دلف:

لعمري لئن قرّت بقربكَ أعيُنٌ لقد سخنَت بالبَيْنِ منك عيونٌ

فسِرْ أو فقِفْ، وقفْ عليك مودتي مكانُك من قلبي عليكَ مَصونٌ][١]

وما قبلهما من منثور لا يختلف في كثير عن البيتين.

وإن كان "الباحث" قد تحدث فيما مضى[٢] عن حل المنظوم، ونظم المنثور نظرياً فإن هذا المبحث تطبيق عملي له، وتصديق لآراء النقاد الذين لفتت أنظارهم هذه الظاهرة الأدبية.

ففي النماذج الأولى التي أعتمد فيها الناثر على قدراته الشعرية نلحظ فيها تبعية الشعر للنثر في المبنى والمعنى، لأن النثر في هذه الحالة كان أصل التفكير، وأداة التعبير، فطبيعي أن يتولد الشعر عنه، ويتبعه في أسلوبه، ولولا مخافة الإخلال بالمنهج العلمي – الذي ينبذ التكرار – لأوردت هنا رسائلهم كاملة بنثرها وشعرها، ولكن حسبي أن أحيل عليها حتى ترى حقيقة ذلك[٣].

أما النماذج الثانية التي أستعان فيها الناثر بشعر غيره نجد أن النثر تابع للشعر ومتولد عنه، ولعل ذلك يأتي من باب الإجبار الذهني، فالكاتب في هذه الحالة واقع تحت تسلط الفكرة المجتباة، أسرته في محيطها، فلم يزد عن نثر البيت بلغته وأسلوبه، ينطق بذلك نسيج النثر الواقع تحت السيطرة الشعرية.

وبعد فالبناء الهرمي بعناصره الثلاثة "مقدمة ، غرض ، خاتمة" لا تجتمع إلا في الأعمال الأدبية المسهبة، أما تلك التي تتخذ مذهب الإيجاز منهجاً لها فإنها

---

(١) انظر ص ٧٥ من البحث.

(٢) انظر ص ٢١٥ من البحث.

(٣) انظر ص ٧٨، ١٠١ من البحث.

تكتفي عادة بعنصر واحد، أو تتجاوزه إلى عنصرين اثنين، غرض وخاتمة شعرية، وهذا أمر مألوف في الجنس الأدبي شعراً كان أو نثراً، فالنص الطويل محتاج إلى رابطة تضم بعضه إلى بعض، وتقارب بين أجزائه، وتجمع شتاته، ولا يتأتى ذلك إلا بتضافر العناصر السابقة مجتمعة، وبها أيضاً يقتل الكاتب السأم الذي قد ينتاب القارئ أثناء مطالعته، لأنه حينذاك ينتقل من جزء إلى آخر مجدداً نشاطه، وهذا هو الاحكام في البناء الهرمي.

٣ - التكرار:

والتكرار أنواع، منه ماهو فني يخدم العمل، ويضيف إليه لمسات أدبية ترفع من درجته، وترقى به، ومنه ماهو دون ذلك في المرتبة، وأعنى به تكرار التقسيم، وقد يأتي التكرار عبثياً قصد إليه الأديب لملء الفراغ، فيكرر اللفظة من دون أن يكون لها داعٍ في العمل.

والنوع الأول هو التكرار الفني الذي يحكم البناء في النص الأدبي، وإذا أخذنا مثالاً له من نتاج مترسلي الشعراء، وجدنا رسالة سهل بن هارون في مدح البخل خير مايمثل التكرار الجيد، فالرجل يلجأ إلى لفظة "العيب" خمساً وعشرين مرة، منها ثماني مرات في المقدمة، وسبع عشرة مرة في أجزاء الرسالة الأخرى.

فرسالة سهل قامت في بنائها - بالإضافة إلى هرمية النص - على الهاجس الذي كان يعتمل في صدره، فأصابع الاتهام كلها كانت تشير إلى خطئه في التقدير، وعلى سوء مذهبه، فالدين يحرم مايدعو إليه ويراه عيباً، والعرف عند الأسوياء يسخر من توجهه الشاذ عن الطبيعة ويراه عيباً أيضاً ، فاستنفر - حينذاك - قواه البيانية لصد التهمة ورد العيب، وهو في ذلك لايدري من يخاصم ولا من يحارب، أيحارب الدين ويخاصمه؟ أم يحارب القيمة العربية ويخاصمها؟ أم يحارب المعتدلين من جنسه وبني قومه ويخاصمهم؟ فكان يسير على غير هدى، بل كان يخبط خبط عشواء يرتد إليه سريعاً ماكان يرمي به غيره من الغفلة، على أنه في نفسه - وهو صاحب الحكمة - كان يستشعر خطأ ما يدعو إليه، وخطله، فأصبح الصراع بينه وبين نفسه من ناحية، وبينه وبين الدين والعرف والتقاليد من ناحية أخرى، فتولدت في داخله - من جراء هذا الصراع المحموم - لفظة العيب، تدينه كأبلغ ما تكون الإدانة، وتعبر عن اضطرابه كأبلغ مايكون التعبير، ثم إنه لا يكتفي بها مجردة حتى يضيف إليها واو الجماعة وياء المخاطب "عبتموني" الواو بما تحمله من دلالة

الإجماع على خطئه، والياء بما تحمله من التفرد بالبخل، وخصوصية العيب، والشذوذ عن قاعدة الجماعة.

وهذه اللفظة بكل طاقاتها كانت محور البناء في هذه الرسالة، فجزأت العمل الطويل إلى أجزاء قصيرة، كانت تستقل بكل جزء منها وتربطه بما قبله وما بعده بإحكام، ثم إن الرتم المتكرر لـ "عبتموني" إضافة استدعتها الحالة النفسية للكاتب، والحالة الفنية للنص.

تكرار التقسيم:

وإذا كان التكرار البياني مهماً في بناء النص الأدبي فإن تكرار التقسيم مهم أيضاً، فالأول – الفني – يتكئ على جمالية النص من خلال الإلحاح على جانب يراه الأديب جديراً بتكثيف الصورة حوله، وتسليط الضوء عليه، حتى يُرى بالصورة المأمولة من الكاتب تجاه متلقيه، كما فعل سهل بن هارون في رسالته مدح البخل والتي ألمحنا إليها في الصفحة السابقة.

أما الثاني – تكرار التقسيم – فإن أهميته تبرز من خلال استيفاء المعنى، وإشباع الفكرة، ولا يتأتى ذلك إلا بالتفصيل، وهذا النوع بخاصيته هذه أقرب إلى طبيعة النثر منه إلى الشعر، فهو من السمات الأصيلة في المنثور، ولعله انتقل منه – بعد ذلك – إلى الشعر.

ويُعرف هذا الفن في النقد القديم بـ "التقسيم" تحدث عنه العسكري وابن الأثير وغيرهما من جُلة النقاد، ولكن اللافت للنظر أنهم يتوارثون الأمثلة الدالة على الجيد منه والردئ بحسب مقاييسه عندهم، وهم في مجملهم لم ينظروا إليه من جانب التكرار، رغم ما يحمله من بسط وتفصيل بوسيلة من وسائل التقسيم التي يعتمد عليها من تكرير بعض الحروف، من مثل ․․ إما ․․ الواو ․․ إنْ وغيرها

أو تكرير بعض الكلمات في النادر، فالحروف هي الشائعة في التفصيل، وهي أيضاً أس البناء في مثل هذه الأعمال الفنية، فلو حذفت لانهار البناء، واختل الأساس.

على أن النقاد القدامى قد أولوا صحة التقسيم، واستيفاء أقسامه جل عنايتهم، وهو المعيار الوحيد الذي يحتكمون إليه في الحكم للتقسيم أو عليه، يقول العسكري: [التقسيم الصحيح أن تقسم الكلام قسمة مستوية تحتوي على جميع أنواعه، ولا يخرج منها جنس من أجناسه](١).

وابن الأثير لايختلف كثيراً عن سابقه في رؤيته للتقسيم، وإن أشار إلى بعض أدواته، يقول: [وإنما نريد بالتقسيم هاهنا ما يقتضيه المعنى مما يمكن وجوده من غير أن يترك منها قسم واحد، وإذا ذكرت قام كل قسم منها بنفسه، ولم يشارك غيره، فتارة يكون التقسيم بلفظة إما، وتارة بلفظة بين، كقولنا بين كذا وكذا، وتارة بلفظة منهم كقولنا منهم كذا ومنهم كذا، وتارة بأن يذكر العدد المراد أولاً بالذكر ثم يقسم كقولنا: فانشعب القوم شعباً أربعاً: فشعبة ذهبت يميناً، وشعبة ذهبت شمالاً وشعبة وقفت مكانها، وشعبة رجعت إلى ورائها](٢).

ولمترسلي الشعراء في هذا الفن عطاء جيد، يأتي تقسيم العتابي مع مجادله النصراني آية في الإبداع، ونهاية في الإتقان، ذلك لأنه انتصر للحق، سأل النصراني ماتقول في المسيح، قال [أقول إنه من الله عز وجل، فقال العتابي: إن من تجئ على أربعة أوجه: فالبعض من الكل على سبيل التجزؤ، والولد من الوالد على سبيل التناسل٠٠ والخل من الحلو على سبيل الاستحالة، والخلق من الخالق على سبيل الصنعة، فهل عندك خامسة؟ قال: لا٠٠٠](٣).

فتكرار التقسيم بما يحمله من مزية الإحكام دون اللجج في القول حسم هذه

---

(١) الصناعتين ٣٧٥.
(٢) المثل السائر ٣/ ١٦٧.
(٣) انظر ص ١٦٨ من البحث.

القضية، وانتهى بها إلى الحق المجرد عن الأهواء، نجد العتابي يكرر "الواو" عنصر التفصيل، ويكرر أيضاً "من" مادة البناء، وبجوار ذلك تأتي لفظة السبيل مكررة أربع مرات مسايرة عناصر التفصيل.

ومن تكرار التقسيم الصحيح – في عرف النقد القديم – ماكتبه محمد بن عبد الملك الزيات إلى أحد عماله، يقول: [٠٠ فقد انتهى إلى أمير المؤمنين كذا فأنكره، ولا تخلو من إحدى منزلتين، ليس في واحدة منهما عذر يوجب حجة، ولا يزيل لائمة، إما تقصير في عملك دعاك إلى الإخلال بالحزم، والتفريط في الواجب، وإما مظاهرة لأهل الفساد، ومداهنة لأهل الريب، وآية هاتين كانت منك لمحلة النكر بك، وموجبة العقوبة عليك٠٠][١].

فالتقسيم هنا بوسيلة من وسائل التكرار "إما" قد حاصرت "الوالي" ذلك لوقوعه في الخطأ، والخطأ في نظر ابن الزيات لايخرج عن الإهمال أوالمداهنة، وهو بهذا الأسلوب لا يدع لعامله مجالاً لتلمس الأعذار والخروج من هذا المأزق الذي أوقع نفسه فيه.

والتقسيم بخاصيته عامل مهم في الفصل في أي مسألة إذا ما أحسن الكاتب توظيفه، وذلك باستيفاء المعنى، وصحة التقسيم، كما ذهب إليه النقاد القدامى، وكما أوفى بعناصره ابن الزيات في هذه المقطوعة الفنية.

ومن التقسيم المخل بمعاييره ماكتبه أبوعلى البصير في ذم أبي العيناء، يقول: [٠٠ والناس منك بين أسرار تفشى، وبوائق تخشى، وشفاعات واردة، ونوادر باردة٠٠][٢] ووسمته بالخلل لعدم استيفائه المعنى، ولعل طبيعة الموضوع لا تسمح له بالاستقصاء، وسقطته كانت في استخدام التقسيم لتعداد نقائص صاحبه، إذْ من

(١) انظر ص ٦٤ من البحث.
(٢) انظر ص ١٢٠ من البحث.

المنتظر في مقام كهذا ألا يكون لمعايب غريمه عدد، لا أن يذكر شيئاً ويترك أشياء، وهو بالتأكيد لم يعن العدل في إثبات ماعليه من نقائص، ولو أمكنه أن يتلمس عيوب غيره من الناس وعيوب نفسه ومنحها لخصمه أكثر من هذا لفعل دون تحرج.

وينتقل التقسيم من طور التقليد إلى طور التجديد على أيدى المبدعين من مترسلي الشعراء، كتب الحسن بن وهب في مدح الحسن بن سهل وقد وافق بين متغيرات مناخ يومه، وبين مزايا ممدوحه، وتعدد شمائله، قال: [٠٠ وقد رأيت تكافؤ إحسان هذا اليوم وإساءته، وما استحق ذماً لأنه إن أشمس حكى ضياءك وحسنك، وإن أمطر أشبه سخاءك وجودك، وإن غام فلم يشمس ولم يمطر فقد أشبه طيب ظلك، ولذة فنائك٠٠][1].

فالتقسيم – كما هو ظاهر – اعتمد على تكرار إنْ، للربط بين أحوال المناخ وصفات الممدوح، وهذا التقسيم خارج عن المألوف، ذلك أنه عند كثير من الكتاب يعتمد على صحة التقسيم، ولا يتأتى ذلك إلا بوساطة العقل، بينما نراه هنا يعتمد على العاطفة والخيال، والغلو فيهما، ومثل هذه المعالجة ليست بمستغربة في عطاء أمثال هؤلاء الكتاب الشعراء، لأنهم في جل منتوجهم يصدرون عن مواهبهم الشعرية في منثورهم، وبذلك قاربوا المسافة – كعادتهم – بين الفنين – الشعر والنثر – وتلاشت الحدود بينهما أو كادت، حتى أصبحت ظاهرة أدبية مستحدثة، ولعل مانراه من حالات جديدة[2] في أدبنا المعاصر هي إمتداد للجذور العربية الضاربة في القدم والأصالة والإبداع.

والتكرار في التقسيم ليس مقصوراً على الحروف، وإن كانت هي الشائعة في الاستخدام، والغالبة على غيرها لدقتها في أداء المعنى فقد نجد كلمات تقوم

---

(١) انظر ص ٨٧ من البحث.

(٢) لا أستبعد أن تكون مايسمى بقصيدة النثر الحديثة ثمرة هذا التعانق بين الشعر والنثر، فبوادر التجديد بدت على أيدي هؤلاء وأمثالهم.

بدور التكرار، يقول سهل بن هارون في تبريره لدعوته الناس إلى البخل: [٠٠ ولئن أخطأنا سبيل إرشادكم فما أخطأنا سبيل حسن النية فيما بيننا وبينكم٠٠][١].

وقريب من هذا قول أبي العتاهية: [٠٠ وقد قسمت اللائمة بيني وبينك، لأني أخطأت في سؤالك، وأخطأت في منعي٠٠][٢].

التكرار العبثي:

وأعني به ذلك التكرار الذي يلجأ إليه الكاتب من دون أن يكون له داع في النص أو ضرورة فنية ترقى بلغة العمل، وتخدم أهدافه.

وغالباً ما يكون مرد هذا التكرار عائداً إلى قلة بضاعة الكاتب من المادة اللغوية، أو إهماله تلمس الجمال في نصه.

والنقاد يكرهون هذا التكرار، ويحذرون الكتاب من الوقوع في شراكه، لما يحدثه من خلل في العمل ينقص من قيمته، بل ويبلغ التقريع به إلى حد التحريم، يروي الكلاعي عن أبي العلاء المعري قوله [تكرير الكلمة في الكتاب مرتين كالجمع في النكاح بين أختين، الأولى حل يرام، والثانية بسل حرام][٣].

وهذا النوع من التكرار يكاد يختفي من مأثور مترسلي الشعراء إلا في نصين، الأول لسعيد بن حميد في عزاء محمد بن عبدالله بن طاهر[٤] حيث كرر لفظة الأمير سبع مرات من دون أن يكون هنالك ضرورة ملحة إلى كل ذلك.

والثاني للحسن بن وهب في عزاء محمد بن عبدالله بن طاهر[٥] أيضاً حيث

---

(١) انظر ص ١٢٤ من البحث.

(٢) انظر ص ١١٥ من البحث.

(٣) إحكام صنعة الكلام ٢٤٦.

(٤) انظر ص ٩٣،٩٤ من البحث.

(٥) انظر ص ٩٤ من البحث.

كرر اللفظة ذاتها ست مرات، كان بمقدوره الاقتصاد في ذلك والإعتدال، حرصاً على تناسق النص وجماليته، كما فعل هو ذاته في عزاء ابن الحسن بن سهل[١] عن أبيه إذْ لم يذكر هذه اللفظة سوى مرة واحدة.

وعلى كل فهذا الاستكثار من هذه اللفظة لم يكن مخلاً بالنص من حيث بنائه وإن كان باعثاً إلى السأم من جراء الترديد الممل، ولعل المجاملة حدت بهما إلى ذلك إظهاراً للولاء والتبعية.

---

(١) انظر ص ٩٥ من البحث.

الفصل الثاني

الموازنة بين نثر المترسلين الشعراء ونثر الكتاب الخلص

ويحتوي على أربعة مباحث:

المبحث الأول : الصورة الأدبية

المبحث الثاني : الأداء الشاعري

المبحث الثالث: الغلو النثري

المبحث الرابع : اعتدال المفردة

تمهيـــد

الموازنـة فعل نقدي أصيل في الموروث العربي، لجأ إليه أسلافنا في المفاضلة بين بيتين، أو قصيدتين، أو شاعرين، وكانت هذه الجهود انطباعية، يحكمها الذوق الفردي بعيداً عن المقاييس الجمالية، وهي كثيرة جداً، نجدها متناثرة في أمهات الكتب، يحفل الأغاني، والعمدة، وزهر الآداب وغيرها بشئٍ غير يسير من تلك الآراء.

وقد يوازن الناقد بين بيت وجملة من الأبيات في موضوعه، فيرفعه فوق غيره، كأن يقول أفخر بيت قالته العرب كذا، وقد يبالغ في الانسياق وراء عاطفته فيقدم بيتاً أعجبه على كل ماعداه من تركة العرب الشعرية، لذلك نجد "أفعل " التفضيل تتكرر كثيراً في التحكيم، فنقرأ لهم أجمل بيت، وأحسن، وأبلغ .. ومثل هذه المفاضلة تفتقر إلى المنهجية، وغالباً مايكون وراءها ميل لبيت دون غيره، أو تعاطف مع شاعر دون سواه، ولهذا تعددت الآراء واختلفت في الأفضل والأجود والأشعر بين النقاد باختلاف مشاربهم الثقافية، وتباين أذواقهم الأدبية، ولقد فطن إلى خلل هذه الموازنة وجورها بشار بن برد، قيل له [أخبرنا عن أجود بيت للعرب، فقال إن تفضيل بيت واحد على سائر شعر العرب لشديد][1] ثم أتى الآمدي بعد ذلك مستفيداً من تلك الجهود التي سبقته، ومهدت له الطريق، فوضع كتابه "الموازنة بين الطائيين" منهياً بذلك مرحلة الارتجال النقدي الذي ساد حقبة زمنية، كبداية طبيعية لأي علم في نشأته الأولى، وانتقل به إلى المنهجية ولا يعني هذا أن الآمدي – على فضله – كان بريئاً من داء التعصب كما ينبغي للموازن أن يكون، فنراه حيناً يتبع نفسه هواها وينتصر لـ "البحتري" على "أبي تمام" من دون مبرر مقنع لذلك[2]، وعلى كل فهو عمل رائد في فنه، والفضل يعود للآمدي في إرساء الفكر النقدي

---

(١) الثعالبي، خاص الخاص ١٠١.

(٢) لاحظ "الباحث" هذا الميل للبحتري من خلال قراءة الكتاب، وهو الانطباع الذي خرج =

التوازني الذي يحتكم إلى المنهجية.

والنثر الفني أقل حظاً من الشعر في هذا الجانب - كما هو في كثير من شئونه -، ورغم ذلك قد نجد على ندرة موازنة يسيرة بين نص وآخر.

والباحث هنا معنيّ بإقامة الموازنة بين مأثورهم ومأثور غيرهم من الكتاب الخلص، وقبل أن أدلف في هذا العمل الشاق على أن أشير إلى حقيقة تبدو بدهية، ألمحت إليها في المدخل[١]، ألا وهي تلازم العربي والشعر، فهو مجبول عليه، وبخاصة إذا ماكان أديباً كاتباً، والفرق إذن بينهم وبين المترسلين الشعراء يكمن في شهرة المترسلين بالشعر، وإبداعهم فيه، وإكثارهم منه، على خلاف من أفرغ جهده كله للكتابة فحسب.

وقد استعرض "الباحث" في الباب الأول، وفي جزءٍ من الباب الثاني نثر المترسلين الشعراء بأغراضه، واتجاهاته، وسماته، وكان في مجمله رائعاً ومعبراً عن مواهب من حبروه، ولكن يبقى هذا الحكم ناقصاً حتى يوضع مأثورهم في الميزان مقابلاً غيره من مأثور الكتاب، فهذا بجوار ذاك يعطي - إن شاء الله - الصورة الحقيقية لكلٍ منهما، ويكشف عن مستوياتها الفنية.

منهج الموازنة:

تقوم الموازنة على مقوماتها الأساسية من التوافق بين الموضوعات،

= به، ثم أكده محقق الكتاب محمد محيى الدين عبدالحميد القائل في المقدمة(وقد كانت النية على أن انشر بحثاً ضافياً أتعرض فيه لتأريخ فن النقد الأدبي، ثم أرسم لك طريقة أبي القاسم الآمدي في كتابه، وأذكر لك ما تجمع لديّ من الملاحظات عليه، بعد أن صحبته أمداً ليس بالقصير وأحدثك على الأخص عن تحامله على أبي تمام، وأغضائه الإغضاء البالغ عن البحتري].

(١) انظر ص ٥ من البحث.

والتشاكل بين الأغراض، مع التزامن بينها في النشأة أو التقارب في ذلك، والبعد عن الهوى، والتجرد من العاطفة، وستكون – إن شاء الله – الموازنة هنا معتمدة على الأسس السابقة في ضوء المعايير الفنية التالية:

- الصورة الأدبية.
- الأداء الشاعري.
- الغلو النثري
- اعتدال المفردة

فالباحث سيعنى بالنصوص المختارة لغير المترسلين على ضوء العناصر الأربعة، فالاختيار – إذن – منصب على انتقاء أجود ما أنتجه غير المترسلين، وموازنته بما لدى المترسلين، فلا خير – عندي – في نثر لا يحمل قيماً فنية، ولا يضير الباحث ولا البحث أن نرى نثراً جيداً في مستوى نثر المترسلين، أو أعلى منه، على الوجه الذي ينتهي به هذا الفصل.

وهذا المنهج يجمع بين الطريقة التقليدية الشائعة التي تقوم على مقابلة النصوص إزاء بعض، وبين وضع معايير فنية يتم من خلالها اختيار النصوص الصالحة للموازنة، وإلا فإنه من اليسير جداً على الباحث أن يقابل نصاً بآخر في موضوعه، ثم ينتهي إلى تفضيل أحدهما على الآخر، ومعلوم أن النتيجة مسبقاً ستكون في الغالب للمترسلين الشعراء، لجودة مأثورهم، وفي هذا خلل بمقومات الموازنة الجادة المتجردة عن الهوى والميل.

المبحث الأول

الصورة الأدبية

للصورة – بمكوناتها الأولية من تشبيه، واستعارة، وكناية، وخيال، وغيرها من المواد – أهمية قصوى في التفريق بين النثر الأدبي الراقي، وبين النثر الإخباري المعهود، فالأول منهما هو حلية الأدباء، وآسر النقاد، ومثار الإمتاع الأدبي، أما الثاني فهو محور التواصل النفعي المباشر بين الناس.

وقد آثرت أن أورد هذا المبحث في فصل الموازنة على أن أثبته قبل ذلك في السمات الفنية للمترسلين الشعراء حتى يكون قريباً في المسافة مع الصورة في نثر غيرهم من الكتاب، وبهذا تسهل الموازنة بين الإبداع في الصورتين، والابتكار في العطائين.

هذا على أن "الباحث" قد ألمح إلى نتف يسيرة في مواطن متفرقة من البحث، إلى الصورة في نثرهم، ولكنها صورة غير واضحة المعالم، وسأورد في هذا المبحث – إن شاء الله – الصور التي تتشاكل عند المترسلين الشعراء مع نظائرها عند كبار الكتاب، وأختمه بالتفرد في إجادة التصوير عند أي منهما.

ونبدأ "بالقلم" وسيلة الأداء، نجد في البداية أن الله سبحانه وتعالى كرّمه، ورفع من شأنه، حين أقسم به في آية من القرآن الكريم إذْ قال جل شأنه "نون والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون" (١) وقال الرسول – صلى الله عليه وسلم – "إن أول ماخلق الله القلم، فقال أكتب، قال: يارب وما أكتب؟ قال: اكتب القدر. قال: فجرى القلم في تلك الساعة بما كان، وما هو كائن إلى الأبد" (٢) فلا عجب أن يسري الإعجاب به بين صفوة الأدباء، وخاصة العلماء، فقد أصبغوا عليه

---

(١) القلم ١،٢.

(٢) تفسير الطبري ٥٦٤؛ القلقشندي، صبح الأعشى ٢/٤٧٣.

من الوصف مايستحق، وحبروه من التصوير مــاهو لـه أهـل، فالمترسـلون الشـعراء وغيرهم منحوه الحياة، وتعاملوا معه على أساس أنه كائن يعقل، ولكنه يـأخذ أشـكالاً مختلفة من الحياة، فهو عند العتابي يبكي ويبتسم الكتاب لبكائه، وهي صـورة لطيفـة يقول: [ببكـاء الأقـلام تبتسم الكتـب][١] وعنـد عبدالله بـن المعـتز يسـكت، وينطـق، ويقبِّل، أيضـاً يقـول: [٠٠ والقلـم مجهِّز لجيوش الكـلام، يخـدم الإرادة، ولا يَمَـلّ الاستزادة، يسكت واقفاً، وينطق سائراً، على أرض بياضها مظلم، وسوادها مُضـئ، وكأنه يقبل بساط سلطان، أو يفتتح نوّار بستان][٢] وهذه الصورة الحية للقلم تتكرر كثيراً في نتاج المبدعين من الكتاب، وهي ناطقة لا تحتاج منا إلى تحليـل أو تعليـق، تـأمل التصويـر البـارع فـي الأقـوال التاليـة، يقـول سـهل بـن هـارون: [القلـم أنـف الضمير، إذا رعف أعلن أسراره، وأبان آثاره][٣] ويقول أحمد بن يوسف: [عبرات الأقلام في خدود كتبها أحسن من عبرات الغواني في صحون كتبها][٤] ويقول أيضـاً: [القلم لسان البصر يناجيه مما أستتر عن الأسماع، إذا نسج حلله، وأودعها حكمه](٥)

وفي كلام موجز يقول العتابي: [الأقلام مطايا الفطـن][٦] ثم يـأتي العميـد – وهو المتأخر – فيفصل أطوار القلم في حالاته يقول [قلم يطلق الآجال والأرزاق٠٠ فطوراً يُرى إماماً يُلقي درساً، وطوراً يُرى ماشطه تجلو عرساً، وطوراً يُرى ورقاء تصـدح فـي الأوراق، وطـوراً يُـرى جـواداً مخلقـاً بخلـوق السِّـباق، وطـوراً إفعوانـاً مطرقاً، والعجب أنه لايزهـو إلا عند الإطـراق][٧] وهـذه القيمـة متجـذرة فـي كيـان العربي الأديب لهذه الأداة مما حدا بالنديم في الفهرسـت[٨] إلـى تخصيـص صفحـات

---

(١) انظر ص ١٦٠ من البحث.
(٢) الحصري، زهر الآداب ٢/٤٧٩.
(٣) انظر ص ١٦١ من البحث.
(٤) الصولي، أدب الكتاب ٦٧.
(٥) المصدر السابق، ٦٦.
(٦) انظر ص ١٦١ من البحث.
(٧) جويدة، إنشاء الكتابة ٢٤٢.
(٨) انظر ص ٧-٢٣.

طويلة عن القلم، أورد فيها أقوال الخاصة من الأدباء العرب، وأقوال العجم عنه، وخصص له الصولي في أدب الكتاب[١] مبحثاً جمع فيه ماقيل فيه شعراً ونثراً، وكلها صور تتشاكل فيما بينها، وتختلف بشكل الحياة التي يبثها فيه الأديب.

وتحسن الصورة في نتاج مبدعي الكتاب إذا ماكان وراءَها طمع في وعد سبق من أحد الكبراء، فحينها يتفتق ذهن الكاتب، وتتجلى مواهبه، ويتفنن في رسم الصورة الحية، وهم في ذلك يعمدون إلى التشبيه تارة، وإلى التعريض في كثير من الأحايين، فينأون بأنفسهم عن المباشرة في التعبير، لأنه ليس في ذلك أداء بليغ من المؤمل أن يؤثر في السامع، ويحثه على الإجابة، كتب العتابي إلى أحدهم: [أما بعد: فإن سحاب وعدك قد أبرقت، فليكن وبلها سالماً من علل المطل والسلام][٢] فصورة العطاء المرتجى عند الكاتب هنا مستوحاة من الطبيعة، فالسحاب مع البرق في العادة إيذان ببشائر الخير، ينقلها تعريضاً إلى صاحبه ليستدر بها عطاءه، ويستحلب سخاءه، ويماثل هذه الصورة تماماً قول الجاحظ: [أما بعد: فإن سحائب وعدك قد أبرقت، فليكن وبلها سالماً من صواعق المطل والاعتلال][٣] ونلحظ التماثل بين الصورتين، ولعل أحدهما أفاد من صاحبه، وأرجح أن يكون الجاحظ هو المستفيد، وذلك لأن العتابي أسبق منه زمناً، وأكثر شهرة حينذاك.

ومن الصور في استنجاز الوعد قول الجاحظ أيضاً: [أما بعد: فإن شجرة وعدك قد أورقت، فليكن ثمرها سالماً من جوانح المطل والسلام][٤] وهذه الصورة ظاهرة التكلف، حاول فيها الجاحظ إقتفاء أثر الصورة السابقة، فاستبدل السحاب بالشجرة، وأبرقت بأورقت، والوبل بالثمر، فأخفق في تركيبها، وقال أيضاً: [أما بعد: فقد رسفنا في قيود مواعيدك، وطال مُقامنا في سجون مَطْلك، فأطلقنا

(١) انظر ص ٨٦ ومابعدها.
(٢) انظر ص ١٥٣ من البحث.
(٣) أحمد صفوت، جمهرة رسائل العرب ٥٢/٤.
(٤) ابن عبد ربه، العقد الفريد ٢١٠/١.

– أبقاك الله – من ضيقها، وشديد غمها، بنعم منك مثمرة أولا مريحة][1] إن هذه الهيئة التخييلية معبرة عن حالة النفس المتطلعة إلى الخير الذي وعدت به، فهي مسجونة في الوعد لا تتعداه إلى غيره.

وبعد: فـ "صورة" طلب الوفاء بالوعد رائعة في نتاج الكتاب، فهم لا يطلبون ذلك بسطحية في الأداء، ولكن بتعريض جميل، يرسمونه في لوحة بيانية غنية بثراء البيئة، يذهب معها العقل لتقصي أعماقها، وتتبع أبعادها، ولعل مايعيب هذه الصورة أمران، أولهما: الوقوع تحت طائلة التكرار كما فعل الجاحظ، وثانيهما: التكلف كما فعل الجاحظ أيضاً. والحق أن العتابي كان مبتكراً لهذه الصورة الجيدة مما حدا بالكثير من الأدباء بعده إلى محاكاتها، وإن أحدثوا فيها بعض التغيير اليسير الذي لم يخالف الأصل عند العتابي.

ومن الصور الأدبية الجيدة ما كتبه "محمد بن مكرم" إلى صديق له يستحثه على الإسراع في العطاء إذ يقول [لا تتركني معلقاً بحاجتي، فالصبر الجميل خيرٌ من المطل الطويل][2] ففي هذه الكلمات الموجزة رسم الرجل صورته المعلقة بالوعد، وهي صورة حركية مؤثرة، ومبتكرة أيضاً، ولكن الصورة السابقة للعتابي متكاملة الأبعاد، وشديدة الإيحاء، وبالغة التأثير، أما هذه فهي مؤثرة ولكن ليس بحجم سابقتها، ولعل لغتها الشاكية أخلت بشئ من عمقها.

وللدهر عند الأدباء صور متعددة، تختلف بينهم باختلاف الحالة النفسية التي يعيشها الواحد منهم، فإن كان راضياً عن حياته، هانئاً بأيامه سكت دلالة الرضا، وعلامة السرور، وإن كانت الأخرى، أستل قلمه، وأطلق لسانه في ذم الزمان، وسب الأيام، وأرجع كل بلواه إلى دهره، والعجيب أن هذا باب مطروق من مبدعي

---

(١) أحمد صفوت، جمهرة رسائل العرب ٤/٥٢.

(٢) المرجع السابق ٤/٢٢١.

الأدباء دون غيرهم، ولعل لمشاعرهم الحساسة دوراً في هذا الإفراط، فمنهم من يصوره في شكل إنسان جائر. يقول عبد الله بن المعتز: [كأن الدهر أبخل من أن يمليني بك، وأنكد من أن يسوغني قربك، وإني له لصابر إلا على فقدك، وراضٍ إلا ببعدك][(١)] وازدادت هذه الصورة للدهر كآبة، فتخيله بعضهم في هيئة وحش كاسر لايرحم، يقول البديع: [الحر - أطال الله بقاءك-، ولاسيما إذا عرف الدهر معرفتي، ووصف أحواله صفتي، إذا نظر علم أن الدهر •• أماني فإن وجدت، فهي عواري، وان محن الزمان وإن مطلت فستفد، وإن لم تصب فكأن قد، فكيف يشمت بالمحنة من لا يأمنها في نفسه، ولا يعدمها في جنسه؟ والشامت إن أفلت فلن يفوت، وإن لم يمت فسيموت، وما أقبح الشماتة بمن أمن الأمانة، فكيف بمن يتوقعها بعد كل لحظة، وعقب كل لفظة، والدهر غرثان، طعمه الخيار، وظمآن شربه الأحرار، فهل يشمت المرء بأنياب آكله، أم يسر العاقل بسلاح قاتله][(٢)].

وأبلغ مما مضى الصورة التي رسمها الجاحظ للدهر حتى ليخيَّل إليّ أن أيامه كلها عاشها في كدر لا صفاء معه، وظلم لا عدل فيه، وبؤس، وشقاء ويأس، يقول: [بسم الله الرحمن الرحيم، حفظك الله حفظ من وفقه للقناعة، واستعمله بالطاعة، كتبت إليك وحالي حال من كثفت غمومه، وأشكلت عليه أموره، واشتبه عليه حال دهره، ومخرج أمره، وقلَّ عنده من يثق بوفائه، أو يحمد مغبَّة إخائه، لاستحالة زماننا، وفساد أيامنا، ودَولةِ أنذالنا، وقِدْماً كان من قدَّم الحياء على نفسه، وحكَّم الصدق في قوله، وآثر الحقَّ في أموره، ونبذ المشتبهات عليه من شئونه، تمت له السلامة، وفاز بوفور حظِّ العافية، وحمد مغبَّة مكروه العاقبة، فنظرنا إذ حال عندنا حكمه، وتحولت دولته، فوجدنا الحياءَ متصلاً بالحرمان، والصدق آفة على المال، والقصد في الطلب - بترك استعمال القِحَةِ، وإخلاقِ العرض من طريق

---

(١) المرجع السابق ٤/٣١٠.

(٢) نبيه حجاب، بلاغة الكتاب ٩١،٩٢.

التوكل – دليلاً على سخافة الرأي، إذ صارت الحظوة الباسقة، والنعمة السابغة، في لؤم المشيئة، وسناء الرزق، من جهة محاشاة الرخاء، وملابسة معرة العار.

ثم نظرنا في تعقب المتعقِّب لقولنا، والكاشر لحجتنا، فأقمنا له علماً واضحاً، وشاهداً قائماً، ومناراً بيناً، إذ وجدنا من فيه السُّفُوليَّة الواضحة، والمثالب الفاضحة، والكذب المبِّرح، والخُلف المصرِّح، والجهالة المفرطة، والركاكة المستخفة، وضعف اليقين والاستثبات، وسرعة الغضب والجراءة، قد استكمل شروره، واعتدلت أموره، وفاز بالسَّهْم الأغلب، والحظ الأوفر، والقدر الرفيع، والجواز الطائع، والأمر النافذ، إن زل قيل حكم، وإن أخطأ قيل أصاب، وإن هذى في كلامه وهو يقظان قيل رؤيا صادقة، من نسمة مباركة.

فهذه حجتنا والله على من زعم أن الجهل يخفض، وأن النَّوك يُردي، وأن الكذب يضر، وأن الخُلف يزري.

ثم نظرنا في الوفاء والأمانة، والنبل والبلاغة، وحسن المذهب، وكمال المروءة، وسعة الصدر، وقلة الغضب، وكرم الطبيعة، والفائق في سعة علمه، والحاكم على نفسه، والغالب لهواه، فوجدنا فلان بن فلان، ثم وجدنا الزمان لم ينصفه من حقه، ولا قام له بوظائف فرضه، ووجدنا فضائله قاعدة به، فهذا دليل أن الطلاح أجدى من الصلاح، وأن الفضل قد مضى زمانُه، وعفت آثارهُ، وصارت الدائرة عليه، كما كانت الدائرة على ضده، ووجدنا العقل يشقى به قرينه، كما أن الجهل والحمق يحظى به خدينه، ووجدنا الشعر ناطقاً على الزمان، ومعرباً عن الأيام حيث يقول:

تحامَقْ مع الحمقى إذا ما لَقِيتَهمُ ... ولاقِهِمُ بالجهل، فَعْلَ أخي الجهل

وخلِّطْ إذا لاقيت يوماً مخَلِّطا ... يخلِّط في قول صحيح وفي هَزْل

فإني رأيت المرءَ يشقى بعقله ... كما كان قبلَ اليوم يسعد بالعقل

فبقيت – أبقاك الله – مثلَ من أصبح على أوفاز[١]، ومن النقلة على جهاز، لا يسوغ له نعمة، ولا تطعم عينه غمضة، في أهاويل يباكره مكروهها، ويراوحه عقائبها، فلو أن الدعاء أجيب، والتضرع سمع، لكانت العِدَةُ العظمى، والرجفة الكبرى، فليت – أي أخي – ما استبطئه من النفخة، ومن فجأة الصيحة، قُضي فحان، وأذن به فكان، فوالله ماعذّبت أمّه برجفة، ولا ريحٍ، ولا سخطة، عذاب عيني برؤية المغايظة المدمنة، والأخبار المهلكة، كأنّ الزمان يؤكّل بعذابي، أو يُنْصَب بأيامي، فما عيشُ من لا يُسَرُّ بأخ شفيق، ولا يصطبح في أول نهاره إلا برؤية من يكرهه، وبغُمةِ من يغمّه طلعتُهُ، فقد طالت الغُمَّة، وواظبت الكربة، وأدلهمت الظلمة، وخَمِدَ السِّراج، وتباطأ الانفراج][٢].

وهذه الصورة الانفعالية للدهر من قبل الكتاب يندر أن نراها في عطاء المترسلين الشعراء، وإن كانت رسائل العزاء[٣] عندهم تحفل بتصوير إسلامي بليغ للحياة مكاناً وزماناً لكي يزهد فيها المغرور بها، ويتعزى عما فقده منها، طلباً لما وراءها من حياة هانئة سرمدية.

إذن الفرق بين الصورتين كبير، فهي عند المترسلين وضعت في إطار التشريع الإسلامي ولم تخالفه، بينما هي عند غيرهم مخالفة للنهج الإسلامي، لقول الرسول – صلى الله عليه وسلم – (لاتسبوا الدهر فإن الله هو الدهر)[٤].

وما أجمل ما سطره ابن المعتز، وقد أجهده حاله، فلم يذم زمانه، وتحلى بالصبر، تأمل هذه الصورة الرائعة منه، يقول: [لوكان في الصمت موضع يسع حالي لخففت عن سمع الوزير ونظره، ولم أشغل وجهاً من فكره، ومازالت الشكوى

(١) أوفاز: واحدها وفز بالتحريك والسكون: وهو العجلة.

(٢) أحمد صفوت، جمهرة رسائل العرب ٤/٤٩-٥١.

(٣) انظر ص ٩٢-١٠١ من البحث.

(٤) أحمد بن حنبل، المسند، المكتبة الإسلامية ٥/٢٩٩.

تعرب عن لسان البلوى، ومن أختلت حالته، كان في الصمت هلكته، وقد كان الصبر ينصرني على ستر أمري حتى خذلني][1].

ومن التصوير السياسي ماكتبه أبو مسلم إلى أبي جعفر المنصور، وفيه يبين عن نهجه مع خصوم آل العباس، وهي صورة تماثل إلى حد كبير ما أثبتته كتب التاريخ، ومصادر الأدب عن قسوته على خصومه، وسطوته على آل أمية خاصة، يقول: [أما بعد: فإني كنت قد اتخذت أخاك إماماً ودليلاً على ما أفترض الله على خلقه، وكان في مَحِلّه من العلم، وقرابته من رسول الله – صلى الله عليه وسلم– بحيثُ كان، فَقَمَعني بالفتنة، واستجهلني بالقرآن، فحرّفه عن مواضعه، طمعا في قليل قد نعاه الله إلى خلقه، فمثّلَ الضلالة في صورة الهدى، فكان كالذي ضلَّ بغروره، حتى وترْتُ أهل الدين والدنيا في دينهم، واستحللتُ – بما كان من ذلك من الله– النِّقْمة، وركبتُ المعصية في طاعتكم، وتوطئة سلطانكم، حتى عرفكم من كان يجهلكم، وأوطأتُ غيركم العشواء بالظلم والعدوان، حتى بلغتُ في مشيئة الله ما أحب.

ثم إن الله بمنه وكرمه أتاح لي الحسنة، وتداركني بالرحمة، واستنقذني بالتوبة، فإن يغفر فقديماً عُرف بذلك، وإن يعاقب فبما قدّمت يداي، وما الله بظلام للعبيد][2] واعتمد أبومسلم في رسم صورته على الإستعارة، وهي بالغة الدلالة على حقيقته، ومؤدية أبلغ أداء على طريقته، يقول.. وركبت المعصية.. وأوطأت غيركم العشواء، ثم يُعرِّض بتوبته تهديداً لهم في الكف عن نصرتهم وعونهم، يقابل هذه الصورة الساخطة صورة راضية لأبي على البصير عن سياسة[3] "عبيدالله بن يحيى بن خاقان".

---

(١) الحصري، زهر الآداب ٢٢٧/١.

(٢) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، الحلبي، ١٣٢/٢، ١٣٣.

(٣) انظر ص ٨٦ من البحث.

وبعد: فلعل من المفيد أن أشير إلى أن الصورة في النثر سهلة التركيب، قياساً بمثيلتها في الشعر، وهي تعتمد بعد المحسنات – البيانية – على تكثيف اللغة، وعلى حسن توظيف الكلمات في إنشاء الصورة، وعلى قدرة الأديب في الابتكار، وأحسن العتابي حين ساوى بين الكلمات وأعضاء الجسم، إذ ينبغي أن يكون كل عضو في مكانه كما ينبغي أن يكون كل لفظ في موقعه، حتى لا تتغير الصورة، ويختل الشكل(١)

وهذا يعني أن الكاتب يعي الصورة الأدبية التي يبدعها، وذلك بالتنسيق بين أجزائها، والتأليف بين عناصرها.

وفي نهاية هذا المبحث يمكن "لي" أن أقر بتفرد الصورة الأدبية عند المترسلين الشعراء عن غيرها عند جلة الكتاب، وجهابذة البيان، فالإبداع عندهم ظاهر في التصوير الفني، والتخييل الحركي، وتركيب المواد المتباعدة، وضمها في نسق بياني مبتكر، من ذلك قول الحسن بن وهب: [شربت البارحة على وجه الجوزاء، فلما انتبه الفجر نمت، فما عقلت حتى لحفني قميص الشمس](٢) فالمادة الأولية لهذه الصورة موجودة في الكون لم يأت بها الحسن من العدم، ولكنه استطاع بخياله الشعري أن ينشئ هذه الهيئة المتفردة من الطبيعة المتاحة، وذلك بمزج موادها على الشكل الذي رسمه خياله الخصب.

---

(١) انظر ص ١٥٨ من البحث.

(٢) انظر ص ٢٢٤ من البحث.

المبحث الثاني

الأداء الشاعري

ونعنى به جمالية الأشياء عموماً، ففي استخدامنا المطروق اليومي نقول مثلاً، الجو شاعري أي جميل، ويقول واحدنا لصاحبه أسلوبك شاعري أي جميل أيضاً، ويكثر الاستعانة بهذه اللفظة عند العامة والخاصة بذات الدلالة، وهي الدلالة نفسها التي تستميل الناقد بإضافة روح الشعر ومقاييسه على الأداء الجميل في الجنس الأدبي.

والأداء الشاعري مجال واسع، وعنوان كبير، يندرج تحت رايته الكثير من القضايا الجديدة بالموازنة، وهي:

أ – استحداث العلاقة   ب – تطور الأساليب.

جـ – تعدد الوظائف   د – رقة الألفاظ.

أ - استحداث العلاقة:

أشرت في الدراسة الفنية(١) إلى تفوق مأثور المترسلين الشعراء في إنشاء العلاقة المستحدثة بين الدال والمدلول، وتوظيف اللغة توظيفاً خاصاً بهم، أضاف إلى الموروث العربي ثراء بأدائه، وإمتاعاً بفنه، فالكاتب المتمكن شبيه بالشاعر المتمرس لكل منهما لغته التي تميزه عن السياق العربي العام، وهي الأثر الذي يشير إلى صاحبه، وإذا عجز الأديب عن ترك هذه البصمة، أو إن لم يكن حريصاً على عامل التفرد، فإنه سيذوب في السياق العام، وينضوي تحت راية المبدعين.

وللكثير من الكتاب البارعين آثار تحكي نجاحهم في هذا الجانب، كما هو الحال عند المترسلين الشعراء، حتى ليصعب على الباحث الحكم السليم، والترجيح العادل، في أيهما أكثر نجاحاً، وأبدع إنشاء من حيث نسيج اللغة، وابتكار التأليف، أولئك أم هؤلاء؟. ذلك أنها في مجملها جيدة، إذْ يكفي الأثر الحسن الذي يتركه أحدهم لكي يحييه بين غيره من الأدباء، وليس من وكدي أن أضرب أمثلة للمترسلين الشعراء، وهي متناثرة في ثنايا البحث، أما عن عطاء غيرهم من الكتاب فنبدأ برسالة للمعتصم كتبها إلى عبدالله بن طاهر حين صارت إليه الخلافة، يحذره فيها من القدوم عليه، ويدله على طريق السلامة، كتب(٢): [عافانا الله وإياك، قد كانت في قلبي منك هَنَاتٌ غفرها الاقتدار، وبقيت حزازات أخاف منها عليك عند نظري إليك، فإن أتاك ألف كتاب أستقدمك فيه فلا تقدم، وحسبك معرفة بما أنا منطو لك عليه، باطلاعي إياك على ما في ضميري منك، والسلام](٣) فتأمل "هنات غفرها الاقتدار" و "حزازات أخاف منها عليك" وأمثال هذه الصياغة المبتكرة،

---

(١) انظر ص ٢١٨ من البحث.

(٢) معلوم أن الخلفاء في هذا العصر كانوا يستكتبون المقتدرين من الأدباء، والموهوبين من الكتاب، لانشغالهم بأمور إدارة الدولة، إلا في تلك القضايا الخطيرة التي يرونها جديرة بأن يقوموا بها هم دون غيرهم، ولعل هذه الرسالة من تلك.

(٣) الحصري، زهر الآداب ٣/٨٤٠، ٨٤١.

والإنشاء الجديد، هي من عطاء هذا العصر.

وإذا ما انتقلنا إلى أنموذج آخر فإنا واجدون أشباه هذا الإبداع أكثر من أن يحصى، فتن به الكتاب، وزينوا رسائلهم به. من ذلك ما كتبه عبدالله بن المعتز في رثاء سامراء، وقد أكثر من تأليف اللغة الأدبية، وتنشيطها، بحيث تعطي دلالة أعمق تعبر عما آلت إليه المدينة في نفسه، وفي واقعها معاً، يقول: [كتبت إليك من بلدة قد أنهض الدهر سكانها، وأقعد جدرانها، فشاهد اليأس فيها ينطق، وحبل الرجاء فيها يقصر، فكأن عُمرانها يُطوى، وكأن خرابها ينشر، وقد وكلت إلى الهجر نواحيها، واستحث باقيها إلى فانيها، وقد تمزقت بأهلها الديار، فما يجب فيها حق جوار، فالظاعنُ منها ممحوّ الأثر، والمقيم بها على طرف سفر..](١) وعلى هذا النحو تمضي الرسالة مستحدثة طرائق جيدة في حسن التعبير.

وبعد فلعل فيما ذكرته من أمثلة قليلة الكفاية للتدليل على فنية النثر في هذه الحقبة، وهي تشير إلى ماوراءها من بديع آثار الكتاب الموهوبين سواء عند المترسلين الشعراء أو عند غيرهم.

---

(١) الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت ١٧٧/٣.

ب – تطور الأساليب:

"الأسلوب هو الرجل" مقولة شائعة، ولكن ماذا تعني على وجه الدقة؟ أتعني الأسلوب الكتابي مثلاً، ومدى إستيفاء صاحبه، وامتلاكه لأدوات الكتابة؟ أم هي أشمل من ذلك وأعم؟ وأقول إن الأسلوب هو النهج العام الذي يخبر عن صاحبه، ويشير إليه، ويدخل في ذلك أسلوب الكتابة ، وقريب من هذه المقولة ماذهب إليه (بوفون) حين قال: [أسلوب المرء قطعة منه][(١)] ويعلق (فان تيجيم) على هذا الرأي بقوله: [يفرّق بوفون بين الأفكار، وهي حظ يشترك فيه جميع الناس، وبين التعبير الشخصي الذي تصاغ به الأفكار ..][(٢)]، أي أن العبرة بالصياغة، وهو ماذكره الجاحظ قبل (بوفون) وقبل "فان تيجيم" بمئات السنين.

وإذا ما خصصنا الحديث عن الأسلوب النثري فإنا نجده قد تطور عن ذي قبل، بعد أن أضحى مادة للامتاع، بجوار وظيفته الأساسية الإخبار، فأصبح – بالتالي – إعلاماً بطريقة فنية، ولعل هذا هو دافع الدكتور/ أنيس المقدسي في وضع كتابه "تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي".

وللمترسلين الشعراء وأندادهم من أفذاذ الكتاب أساليب متطورة، تخبر عنهم، وتدل على رقيهم، أول مايطالعنا – في هذا الجانب – رسائل سعيد بن حميد إلى بعض أصدقائه، يواسيهم عن عزلهم من مناصبهم التي كانوا يلونها، ولكنه عزاء يدل على ذوق ابن حميد ولباقته، ذلك أنه يهنئه بالعزل، ويوهم صاحبه – حتى يخرجه من مأزقه – بأنه أكبر مما ولي، ولذا أستحق التهنئة له، والفرحة معه، لا الحزن عليه؛ وهذا الأسلوب جديد في العطاء النثري، طارئ عليه، إذ لم يتعود العربي في سلوكه أمثال هذه المجاملة، لذا عده الحصري[(٣)] من "الغرائب"، وصنفه

(١)،(٢) فان تيجيم، الأدب المقارن، ترجمة: د/سامي الدروبي، دار الفكر العربي، ص ٧٨.

(٣) زهر الآداب ٢/٤٠٠.

تحت هذا العنوان، يقول سعيد بن حميد في خطاب أحدهم: [حفظك الله بحفظه، وأسبغ عليك كرامته، وأدام عليك إحسانه، إن سروري بصرفك أكثر من سرور أهل عملك بما خصُّوا به من ولايتك، وقد كنت - أعزك الله - فيما يربأ بك عنه بما أنت عليه في قدرتك، واستئيهالك، ولكنا رجونا أن يكون سبباً لك إلى ما تستحق فطبنا نفساً بالذي رجونا، فالحمد لله الذي سلمك منه...][1] ويتخذ الأسلوب ذاته، وسيلة لمواساة آخر، يقول: [... وقد بلغني ما أختار الله لك، فسررتُ من حيث يغتم لك من لايعرف قدر النعمة عليك، ولا يراك بعين استحقاقك، ولئن ساءني ماساء إخوانك من عزلك لقد سرني مايسّر الله لك، والحمد لله الذي جعل انصرافك محموداً، وقضى لك في عاقبتك الحسنى..][2] يقابل هذين النصين في الأسلوب رسالة لـ "حميد بن مهران"* يقول: [بلغني - أعزك الله - انصرافك عن عملك، ورجوعك إلى منزلك، فسررت بذلك، ولم أستفظعه، وأجزع له، لعلمي بأن قدرك أجل وأعلى من أن يرفعك عمل تتولاه، أو يضعك عزل عنه، ووالله لو لم تختر الانصراف، وترد الاعتزال لكان في لطف تدبيرك، وثقوب رؤيتك، وحسن تأتيك ماتزيل به السبب الداعي إلى عزلك، والباعث على صرفك، ونحن إلى تهنئتك بهذه الحال أولى من أن نعزيك، إذ أردتَ الإنصراف فأوتيته، وأحببت الإعتزال فأعطيته، فبارك الله لك في منقلبك، وهنّاك النعم بدوامها، ورزقك الشكر الموجب لها، الزائد فيها][3] ونص حميد بن مهران مقارب لرسالتي سعيد بن حميد في الأسلوب والإنشاء والمفردات، وهذا يعني أن أحدهما قد أفاد من الآخر، وأرجح أن يكون سعيد بن حميد هو المستفيد كعادته مع إبداعات السابقين له، وعلى كل فالنصوص الثلاثة متحدة الشكل والمضمون، وإن كانت الرسالة الأخيرة أكثر إبداعاً من سابقتيها.

---

(١) انظر ص ٩٩ من البحث.

(٢) انظر ص ١٠٠ من البحث.

* حميد بن مهران الكاتب من أصفهان، وكان يكتب للبرامكة مدة حياتهم، وله كتاب رسائل النديم، الفهرست ١٩٣.

(٣) الحصري، زهر الآداب ٢/٤٠٠.

وأروع مما سبق ما كتبه رجل إلى مالك بن طوق حين عُزل عن الأهواز يقول: [أصبحت والله فاضحاً متعباً: أما فاضحاً فلكل والٍ قبلك بحسن سيرتك، وأما متعباً فلكل والٍ بعدك أن يلحقك] (١) وهذا النص تميز عن غيره بعنصر المفاجأة، فأول ما يتبادر إلى الذهن في مطلعها الهجاء، ثم يفجأنا بمدح رقيق، وعزاء من شأنه أن يخفف ألم العزل.

ويتفرد المترسلون بتهنئة من ولي عملاً من ذلك ما كتبه سعيد بن حميد، وهو أسلوب جديد لم يسبق إليه، يقول: [أنا أهنئ بك العمل الذي وليته، ولا أهنيئك به، لأن الله أصاره إلى من يورده موارد الصواب، ويصدره مصادر الحجة، ويصونه من كل خلل وتقصير، ويمضيه بالرأي الأصيل، والمعرفة الكاملة..] (٢)

ومن الأساليب الطارئة على السلوك العربي تهنئة المريض بتمام شفائه، كتب سهل بن هارون إلى صديق له: [بلغني خبر الفترة في إلمامها وانحسارها، والشكاة في حلولها وارتحالها، فكاد يشغل القلق بأوله عن السكون لآخره، وتذهل الحيرة في ابتدائه عن المسرة في انتهائه..] (٣) يقابلها من نتاج غير المترسلين الشعراء قول أحمد بن يوسف: [قد أذهب الله وصَبَ العلة ونصبها، ووفر أجرها وثوابها، وجعل فيها من إرغام العدو بعقباها أضعاف ماكان عنده من السرور بقبح أولاها] (٤) وفي هذا الموضوع كتب عبدالله بن المعتز: [أذن الله في شفائك، وتلقى داءك بدوائك، ومسح بيد العافية عليك، ووجّه وافد السلامة إليك، وجعل علتك ماحية لذنبك، مضاعفة لثوابك] (٥).

---

(١) أحمد صفوت، جمهرة رسائل العرب ١٧٠/٤.
(٢) انظر ص ٩٢ من البحث.
(٣) انظر ص ٩١ من البحث.
(٤) ابن عبد ربه، العقد الفريد ٣٢٢/٤.
(٥) الحصري، زهر الآداب ٢٢٦/١.

وكنا قبل هذا العصر نرى تهنئة بمولود أو بنصر، أو ماشاكل ذلك من الأبواب المطروقة عند الأسلاف، غير أن العصر فرض واجبات اجتماعية أخرى لم يكن للعرب عهد بها من قبل، منها واجب التهنئة "بالنيروز" ، فالكاتب يتقرب إلى الوزير أو الخليفة نفسه بأداء التهنئة، وتلمس هدية تقدم بهذه المناسبة، وهو تقليد متبع عندهم حينذاك، ومن المترسلين الشعراء يأتي سعيد بن حميد في الطليعة من حيث الكم، فقد أكثر من رسائله إلى علية القوم، كتب إلى أحدهم: [هذا يوم سهلت فيه السنة للعبيد الإهداء للملوك، فتعلقت كل طائفة من البر بحسب القدرة والهمة ولم أجد فيما أملك مايفي بحقك، ووجدت تقريظك أبلغ في أداء مايجب لك..](١) وقريب من هذه الرسالة في معناها ومبناها رسالة لـ "أحمد بن أبي طاهر"، تأمل التشاكل بين النصين، كتب: [أنا وإن كنت في عدد الحشم والأتباع الذين يخرجون من تفضيل الخاصة، ويرتفعون عن الدخول في جملة العامة، فإني في وسط القلادة منهم، وبمكان من نظام نعمتك التي تجمعهم، وهذا يوم من أيام الملوك السادة الذين لم تزل تجري لهم السنة على عبيدهم وأصحابهم وقوادهم وكتابهم بالإهداء إليهم، وقبول ما أهدوه منهم، ليعرف مكان التشريف في مرتبته من مكان المنحط عن منزلته، وموضع النعم من المنعم عليه في التقدم بقبول مايهديه إليه، وكل يهدي على قدر بضاعته ورتبته، ومقداره في نفسه، وهمته، وعلى حسب موضعه من سيده ومالكه، وما يحويه ملكه وتبلغه مقدرته، وكرهت أن أمسك عن البر فأخرج عن جملة العبيد والحشم، وأهدي مايقصر عن الواجب اللازم، والحق المفترض، فجعلت هبتي مع الثقة بعذرك، والاعتماد على تفضيلك وصفحك، أبياتا أقتصرت فيها على الدعاء لك، والثناء عليك، أسأل الله تعالى أن يقرنه بالإجابة فيك، كما قرن مدحي لك بالتصديق، فقلت:

---

(١) انظر ص ٨٨ من البحث.

أبا الصقر لازالت من الله نعمةٌ تجدِّدُها الأيام عندك والدهرُ
ولازالتِ الأعيادُ تمضي وتنقضي وتبقى لنا أيامُك الغُررُ الزُّهر
فإنك للدنيا جمالٌ وزينةٌ وإنك للأحرار ذخرٌ هو الذخر
رأيت الهدايا كلها دونَ قدره وليس لشئ عند مقداره قدر
فلا فضلَ إلا وهو من فضل جُوده ولا برٌّ إلا دونَهُ ذلك البرٌّ...][(١)]

ويبدو تأثر سعيد بن حميد جلياً بهذه الرسالة في قوله: [أيها السيد النجيب، عشت أطول الأعمار في زيادة من النعم موصولة بقرائنها من الشكر... قد تصفحت أحوال الأتباع الذين تجب عليهم الهدايا إلى السادة في هذا اليوم، والتمست التأسي بهم في الإهداء إليك، وإن قصرت الحال عن الواجب لك..

إن أهدِ نفسي فهو مالكها وله أصون كرائمَ الذُّخر
أو أهدِ مالاً فهو واهبه وأنا الحقيقُ عليه بالشكر...][(٢)]

وأهدى أحمد بن يوسف إلى المأمون سفط ذهب، فيه قطعة عود هندي في طوله وعرضه، وكتب معها:[هذا يوم جرت فيه العادة بألطاف العبيد إلى السادة، وقد قلت:

على العبد حقٌ فهو لاشك فاعله وإن عظمَ المولى وجلت فضائله
ألم ترنا نُهدى إلى اللهِ مالَهُ وإن كان عنهُ ذا غنى فهو قابله

---

(١) العسكري، ديوان المعاني ١/٩٣، ٩٤.
(٢) انظر ص ٨٩ من البحث.

ولـو كـان يُهـدى للقليـل بقـدرهِ لقصـر عـل البحـر عنـك وناهلـه

ولكننـا نُهـدي إلـى مـن نُجلـهُ وإن لم يكن في وسعنا ما يُشاكله][١]

يعقب العسكري على هذه الرسالة بقوله: [فأخذ سعيد بن حميد هذه المعاني، وكتب إلى ابن صالح بن يزداد: النفس لك، والمال منك، والرجاء موقوف عليك، والأمر مصروف إليك، فما عسانا أن نهدي لك في هذا اليوم، وهو يوم قد شملت فيه العادة للأتباع الأولياء، بإهدائهم إلى السادة العظماء...][٢].

ويأتي الحسن بن وهب مسايراً ذات الإتجاه وإن كان تجويده ظاهراً في كتابه إلى المتوكل يهنئه بهذا اليوم[٣].

يظهر من خلال العرض السابق عامل التأثير بين الكتاب المتزامنين، وهو ماطبع هذا الأسلوب بطابع التوحد، فلا يكاد يتميز أسلوب عن آخر، ولا طريقة عن أخرى، وإن كان لابد من تمييز أحد الكتاب فذاك هو أحمد بن يوسف الذي يرجع إليه الفضل – كما[٤] قال العسكري– في شق هذا الطريق، والسير فيه، ومن ثم تبعه الكتاب على بينة منهم وبصيرة، بعد أن اتضحت الرؤيا، ويأتي الحسن بن وهب مقتفياً هذا الطريق ببراعة الموهوب، وإحسان العارف، أما سعيد بن حميد فقد زاد على معاني غيره، وإن كان ذلك لايخرجه من اتكاله على الآخرين، واعتماده على نتاج المبدعين، وبالذات في تلك الأغراض المجهولة، والمسارب الوعرة.

---

(١)،(٢) ديوان المعاني ٩٥/١.

(٣) انظر ص ٩٠ من البحث.

(٤) انظر ص ٤٥ من البحث الهامش.

جـ - تعدد الوظائف:

سنة الحياة الحركة الدائمة، والتطور المستمر، فلا تهدأ ولا تستكين، ولا تكاد تستقر على حال، والناس مع ماتهبه الحياة بين راضٍ عنها، ومهادن لها، وساخط عليها، أما الراضي فهو المدرك لحقيقتها، المتفهم لطبيعتها، فهو يساير عصره مع اعتزازه بأصالته وبموروثه، أما المهادن فهو ذلك السلبي الذي لايعرف أين يضع قدمه ألِلى الأمام أم إلى الخلف أم يقف حائراً مكانه، وأما الساخط فهو المتقوقع في الماضي لايخرج منه، فيؤمن بقول سلفه المتواكل [ماترك الأول للآخر شيئاً][1] فوقف عند هذا الحد، يقدس الماضي ويعظمه، ويحقر الحاضر ويبغضه.

وهذا شأن كل جديد في عصره، وإذا قصرنا الحديث عن الأدب فإن التاريخ يثبت هذه الحقيقة، فكثير من قضاياه الجديدة وجدت اعتراضاً عليها من فئة لايروق لها الإبتكار، "فالتوقيع" مثلاً كانت نشأته رسمية، فهو كما يقول القلقشندي سبيل المنع والمنح[2].. وبالتالي كان يليه رجال الدولة ممن في أيديهم توجيه السياسة، وإدارة المملكة، ثم أتى المترسلون الشعراء فأحدثوا فيه تطوراً ملموساً، حين أضافوا إلى وظيفته النفعية وظيفة أخرى إمتاعية، فخرج التوقيع عن طريقه - الذي سار عليه جل الكتاب - إلى آفاق أرحب، وكأن هذه النقلة الطبيعية من طور إلى طور لم يستوعبها بعض النقاد، ولم تحظ بإعجابهم، بل وجدت رفضاً لها، وثورة عليها، فيشير ابن درستويه[3] صراحة - بعد أن لاحظ هذه الظاهرة الجديدة - إلى وجوب أن يبقى التوقيع عند حده الأساسي في الأداء الرسمي فقط، وهذا أمر محال في عُرف الحياة، وقد أورد الباحث بعض نماذج التوقيع الأدبي الخالص للمترسلين الشعراء، وهذا يعني من حيث الموازنة تفوقهم على سائر الكتاب.

---

(١) ابن رشيق، العمدة ٩١/١.

(٢) انظر ص ١٥١ من البحث.

(٣) انظر ص ١٥٢ من البحث.

والرسالة أيضا كانت رسمية، ومع دوران الزمن، والحاجة نبت بجوارها الرسائل الخاصة يتبادلها الأقرباء والأخلاء الذين تباعدت بهم السُكنى، ثم حل الافتنان محل الحاجة حينما أصبحت مادة للتواصل الأدبي بين الكتاب على قرب الديار وتجاور الأصحاب، ولعل هذه الخطوة وجدت اعتراضاً من ذات الفئة.

والمترسلون الشعراء في رسائلهم الرسمية والخاصة كانوا تبعاً لمن سبقهم، وتفردوا في نوعين من الرسائل، أولهما: الرسائل الشعرية، وتميزهم فيها من حيث الكم والكيف، وهذا أمر بدهي من شعراء متمكنين، وثانيهما: الرسائل الأدبية ذات التوجهات الفلسفية، ممثلة في رسالة البخل لسهل بن هارون، ولا يعتبر هذا تفرداً من جانبهم على إطلاقه، فقد سقطت هذه الرسالة – كما أشرت مراراً في أماكن متفرقة من البحث – من حيث قيمتها الخلقية، ونجحت أدبياً، ولم يأت رفض النقاد لها، واعتراضهم عليها من أجل جدليتها المفرطة، بل من دعوتها إلى فكر يخالف العرف والدين، على أن هذه الجدلية غير المسبوقة بهذا الشكل من الإتقان والتجويد يحسب للمترسلين وعلى رأسهم سهل، وكان لها ولمثيلاتها من عطاء سهل تأثير عميق على كبار الأدباء والمفكرين بعده، ويكفي أن أشير إلى الجاحظ كمثال على نبتة أرتوت، واشتد عودها من نبع سهل بن هارون.

والاتجاه العام في مأثورهم لم يكن سلبياً عند جملة المترسلين الشعراء، فهذا العتابي يوظف قدراته المنطقية في خدمة الإسلام(١)، فنجح في المعيارين معاً الخلقي والأدبي.

---

(١) انظر ص ١٦٨ من البحث.

د - رقة الألفاظ

رقة الألفاظ، وعذوبتها، ودقة المعاني سمة الاتجاه النثري العام في هذا العصر، وتزداد هذه الصفة سطوعاً في نثر الشعراء منهم، وخاصة المترسلين موضوع بحثنا، لإبداعهم – بشهادة النقاد – في كلا الفنين بدرجة واحدة، وإذا كان عطاء المترسلين رقيقاً لانعكاس شاعريتهم عليه في جلّ ماسطروه، فإن هذه العذوبة تتجلى في أحلى صورها، وأجمل هيئتها في رسائل العتاب والاستعطاف على وجه الخصوص، لأن موضوعها يستحث الكاتب غير الموهوب في أن يبذل من الجهد أقصاه، ويتخير من اللفظ المؤدى أحلاه، حتى يجني الثمرة التي يرجوها، وإذا كان هذا حال غير الموهوب فإن غيره من المقتدرين يأتي بالطريف الرائع، وبالجيد الممتع عن غير مكابدة أو كبير عناء، لأنه مجبول على الأداء الجميل، متمرس في ميادينه.

وقد أسلفنا القول فيما يجب أن تكون عليه ألفاظ العتاب من اللين والعذوبة، واستشهدنا بكلام الكلاعي[١] في ذلك، ومعلوم أن الاعتراف بالتقصير – إن حدث – هو السبيل الأقرب إلى نفس المتلقي، ومن ثم يأتي العفو.

ومرت بنا رسائل الاعتذار والاستعطاف عند المترسلين الشعراء، والتي كانت مقنعة إلى حد كبير، لالتزامها بالمعايير التي ذكرها النقاد، ونستثني من ذلك رسائل أبي علي البصير لإخلالها بكثير مما كان ينبغي أن تتحلى به، وإذا وازنا مامضى من عطاء مترسلي الشعراء برسالة لـ "محمد بن مكرم" إلى بعض الرؤساء يعتذر فيها عن زلة سبقت منه لوجدنا الأثر الجميل في العطائين، حتى ليصعب على الباحث أن يقرر أيهما أصدق قولاً، وأرق لفظاً، وأبعد أثراً هذه أم تلك، يقول: [نبت بي عنك غِرّة الحداثة، فردتني إليك التجربة، وباعدتني عنك الثقة بالأيام، فأدنتني

(١) انظر ص ١٠٩ من البحث.

إليك الضرورة، ثقة بإسراعك إليّ وإن أبطأت عنك، وقبولك لِعُذري، وإن قصرتُ عن واجبك، وإن كانت ذنوبي قد سَدت علي مسالك الصفح عني، فراجع في مجدك وسؤددك، وإني لا أعرف موقفاً أذلّ من موقفي، لولا أن المخاطبة فيه لك، ولاخُطة أدنأ من خطتي لولا أنها في رضاك][1] وكتب أبوالعيناء إلى عبيد الله بن سليمان: [أنا – أعزك الله تعالى – وولدي وعيالي زرع من زرعك، إن سقيته راع وزكا، وإن جفوته ذبل وذوى، وقد مسنى منك جفاء بعد بر، وإغفال بعد تعاهد، حتى تكلم عدو، وشمت حاسد، ولعبت بي ظنون رجال كنت بهم لاعباً، ولهم مجرساً ولله در أبي الأسود في قوله:

لا تُهنّي بعد إذ أكرمتني   وشديدٌ عادةٌ منتزعة][2]

وإيداع هذه الرسالة يفسره رأى محمد بن مكر في صاحبها، يقول: [من زعم أن عبد الحميد أكتب من أبي العيناء إذا أحس بكرم، أو شرع في طمع، فقد ظلم][3]، ومن الرسائل الشاعرة ماكتبه عبد الله بن المعتز إلى القاسم بن عبيد الله يعتذر فيها عن ذنب لم يقترفه – كما يقول – ورغم براءته التي يؤكدها بالقسم بالله إلا أنه يستهلها بطلب العفو سواء أكان مذنباً عند صاحبه أو غير مذنب، يقول: [ترفع عن ظلمي إن كنت بريئاً، وتفضل بالعفو إن كنت مسيئاً، فوالله إني لأطلب عفو ذنب لم أجنه، وألتمس الإقالة مما لا أعرفه، لتزداد تطولاً، وأزداد تذللاً، وأنا أعيذ حالي عندك بكرمك من واشٍ يكيدها، وأحرسُها بوفائك من باغٍ يحاول إفسادها، وأسأل الله تعالى أن يجعل حظي منك بقدر ودي لك، ومحلي من رجائك، بحيث أستحق منك](٤).

وتأتي رسالة السيدة زبيدة – أم الأمين – إلى المأمون آية في الرقة، قالت

(١) أحمد صفوت، جمهرة رسائل العرب ٢١٧/٤؛ ابن قتيبة، عيون الأخبار ١٢٠/٣.
(٢) الحصري، زهر الآداب ٣٢٤/١.
(٣) السابق نفسه.
(٤) المصدر السابق ٢٢٧/١.

تستعطفه: [كل ذنب ياأمير المؤمنين - وإن عظم - صغير في جنب عفوك، وكل زلل - وإن جل - حقير عند صفحك، وذلك الذي عوّدك الله، فأطال مُدّتك، وتمم نعمتك، وأدام بك الخير، ورفع بك الشر.

هذه رقعة الواله التي ترجوك في الحياة لنوائب الدهر، وفي الممات لجميل الذكر، فإن رأيت أن ترحم ضعفي واستكانتي، وقلة حيلتي، وأن تصل رحمي، وتحتسب فيما جعلك الله طالباً، وفيه راغباً، فافعل وتذكر من لو كان حياً لكان شفيعي إليك](١) وتجد الكثير(٢) من هذه الرسائل - لرقتها وصدقها - القبول الحسن من "المستعطَف" والتفاعل السريع معها.

وإذا كانت رقة الألفاظ، وجمال اللغة أمراً مألوفاً في الرسائل الخاصة التي تدور بين الأخلاء، كما رأينا ذلك عند المترسلين الشعراء، فإن هذه العذوبة لا تتحول إلى جفاء جارح وإن كان موضوعها الهجاء، لأن من عوّد نفسه على لباقة الخطاب، واللين في التعامل يصعب عليه التحول من الضد إلى الضد، والانتقال من تهذيب الحضارة إلى جلافة البداوة، ورأينا في مبحث الهجاء عند المترسلين الشعراء اعتداله في الألفاظ، واتزانه في الأساليب، وأين منها ماسطره عمرو بن مسعدة - رغم أنه شاعر وإن لم يكن مجوداً، ولا مكثراً كحاله مع الكتابة - في ذم محمد بن عبدالحميد المعروف بالرازي*، كتب إليه في قسوة لم نعهدها في سلوك المتحضرين [إنه قد بلغ أمير المؤمنين ماكان من الزيادية وخلعك إياها إذا كانت من قريش ، فمتى تحاكمت إليك العرب - لا أم لك - في أنسابها؟ ومتى وكلتك قريش يا بن اللخناء بأن تلصق بها من ليس منها؟ فخلِّ بين الرجل وإمرأته، فلئن كان

---

(١) أحمد صفوت، جمهرة رسائل العرب ٣/٣١٤، ٣١٥.

(٢) انظر رد المأمون على زبيدة. المرجع السابق ٣/٣١٥ ورد عبيد الله بن القاسم على رسالة أبي العيناء السابقة زهر الآداب ١/٣٢٤، ٣٢٥ وغيرهما كثير.

* هو محمد بن عبد الحميد المعروف بأبي الرازي، ولاه المأمون اليمن سنة ٢١٢هـ تاريخ الطبري ٨/٦١٩.

زياد من قريش إنه لابن سمية، بَغيِ عاهرة، لا يفتخر بقرابتها، ولا يتطاول بولادتها، ولئن كان ابن عبيد الله لقد باء بأمر عظيم، إذ أدعى إلى غير أبيه، لحظ تعجله، ومُلْكٍ قهره][1] ومثل هذه الرسالة في قسوة الهجاء ماكتبه[2] الرشيد إلى علي ابن عيسى بن ماهان، وكان قد ولاه خراسان سنة ١٨٣، فعاث فيها فساداً، وظلم أهلها، فكان رده عنيفاً يوازي الحالة التي آلت إليها الأمور، كتب: [بسم الله الرحمن الرحيم، يابن الزانية، رفعت من قدرك، ونوهتُ باسمك، وأوطأت سادة العرب عَقِبك، وجعلتُ أبناء ملوك العجم خولك وأتباعك، فكان جزائي أن خالفت عهدي، ونبذت وراء ظهرك أمري، حتى عثتَ في الأرض، وظلمت الرعية، وأسخطت الله وخليفته، بسوء سيرتك، ورداءة طُعْمتك، وظاهر خيانتك، وقد وليتُ هرثمة بن أعين مولاي ثغر خراسان، وأمرته أن يشد وطأته عليك وعلى ولدك، وكتابك، وعمالك، ولا يترك وراء ظهوركم درهماً، ولا حقاً لمسلم، ولا معاهد إلا أخذكم به، حتى ترده إلى أهله، فإن أبيت ذلك وأباه ولدك، وعمالك فله أن يبسط عليكم العذاب، ويصُب عليكم السياط، ويُحِلَّ بكم ما يَحِلُّ بمن نكث، وغيرّ، وبدّل، وخالف، وظلم، وتعدى، وغشم، انتقاماً لله عز وجل بادئاً، ولخليفته ثانياً، وللمسلمين والمعاهدين ثالثاً، فلا تعرض نفسك للتي لا شَوَى لها، وأخرج مما يلزمُك طائعاً أو مكرهاً][3]

ولا أريد أن أنتهي إلى إثبات رقة نثر المترسلين الشعراء مقابل تلون نثر غيرهم بحسب الموضوعات التي عالجها، فلكل مقام مقال، فالقسوة في مكانها مناسبة، كما أن الرقة في موقعها ملائمة، ولكن لغة الهجاء عند المترسلين أقل جفاء، وأخف حدة من نظائرها عند غيرهم.

---

(١) أحمد صفوت، جمهرة رسائل العرب ٣/٤٣٤.

(٢) يروي الطبري ٨/٣٢٦ أن الرشيد كتب هذه الرسالة بنفسه. وهذا أمر طبعي، فالمهمات الجسيمة يليها الخليفة دون غيره من كتابه وأعوانه

(٣) المصدر السابق ٨/٣٢٧.

ولا يعني ماقدمته أن نثر غير المترسلين كان على شاكلة الرسالتين السابقتين، فهنالك من الرسائل ماجمعت بين العتاب والتهديد، كتب عبد الله بن طاهر إلى نصر بن شبث – الخارج عن طاعة المأمون – [أما بعد، فإنك يانصر ابن شبث قد عرفت الطاعة وعزها، وبرد ظلها، وطيب مرتعها، وماقي خلافها من الندم والخسارة، وإن طالت مدة الله بك، فإنه إنما يملي لمن يلتمس مظاهرة الحجة عليه، لتقع عبرة بأهلها على قدر إصرارهم واستحقاقهم، وقد رأيت إذكارك وتبصيرك لما رجوت أن يكون – لما أكتب به إليك – موقع منك، فإن الصدق صدق، والباطل باطل، وإنما القول بمخارجه، وبأهله الذين يعنون به، ولم يعاملك من عمال أمير المؤمنين أحد أنفع لك في مالك ودينك ونفسك، ولا أحرص على استنقاذك، والانتياش لك مني.

فبأي أول أو آخر أو سِطَةٍ أو إمرة إقدامك يانصر على أمير المؤمنين، تأخذ ماله، وتتولى دونه ماولاه الله، وتريد أن تبيت آمناً، أو مطمئناً، أو وادعاً، أو ساكناً، أو هادئاً! فوعالم السر والجهر، لئن لم تكن للطاعة مراجعاً، وبها خانعاً، لستوبلن وخيم العاقبة، ثم لأبدأن بك قبل كل عمل، فإن قرون الشيطان إذا لم تقطع كانت في الأرض فتنة وفساداً كبيراً][١].

---

(١) المصدر السابق ٥٩٩/٨.

المبحث الثالث
الغلو النثري

كان النثر في نشأته الأولى، وبعد ذلك بحين محور الاتصال بين الباعث والمتلقي، ولذا كان بعيداً عن المبالغة والتهويل، فهو يخاطب العقل فقط، ويحفل به، أما العاطفة فلم يكن لها دور – آنذاك في النثر – من قبل الكتاب إلا لماماً.

أما الشعر فهو شأن آخر فالغلو فيه سمة أصيلة ومستحبة، لذا قالت العرب: [أحسن الشعر أكذبه](١) وبالتالي كان أحسن النثر – في عرفهم آنذاك – أصدقه، غير أن المقاييس اختلفت، والمعايير تبدلت أو قل تطورت، بفعل الزمان، والحضارة الجديدة، فأصبح النثر – لذينك السببين ولدور الشعراء الناثرين – أشد غلواً من الشعر، ولهذا السبب اخترت الغلو معياراً انتقي من خلاله النص النثري ومن ثم موازنته بما لدى المترسلين الشعراء، فهذا يعني أننا بإزاء نثر من نوع خاص، شارك الشعر في أدق سماته، ونجح فيه إلى حد لايمكن معه أن يحكم الناقد أيهما أكثر إبداعاً في الوفاء بهذه السمة الشعر أم النثر.

ذكرت في موضع(٢) سابق من البحث غلو الحسن بن وهب وإفراطه في مدح بلاغة أبي تمام، وأرجعت السبب هناك إلى صدور ابن وهب عن عاطفته الشعرية التي لا تلتزم بحد المعقول، وهذا النهج في الغلو مستملح في المدح عند الكتاب في هذا العصر بالذات، كتب ابراهيم* بن إسماعيل بن داؤد رسالة في مدح بلاغة ذي الرياستين، وإن لم يبلغ درجة الغلو عند الحسن بن وهب، ولا يخفى السبب في ذلك فابن وهب – كما أشرت – كان واقعاً تحت السيطرة الشعرية فيما ينتج، بينما نجد العقل عند إبراهيم يضبط إيقاع المبالغة، لأنه لم يكن شاعراً كصاحبه، يقول: [وصل إليّ كتابك بخط يدك المباركة، فلم أر قليلاً أجمع، ولا

---

(١) قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ت: د/ محمد خفاجي، ط: الأولى، ١٩٧٨، ص ٩٤.

(٢) انظر ص ٨٤ من البحث.

* هو: إبراهيم بن إسماعيل بن داؤد، له تقدم في البراعة والبلاغة، وله كتاب رسائل النديم، الفهرست ١٣٧.

إيجازاً أكفأ من إطناب، ولا اختصاراً أبلغ في معرفة وفهم منه، وما رأيت كتاباً على وجازته أحاط بما أحاط...][1].

وتأتي الرغبة والرهبة معاً دافعاً مهماً للغلو، خاصة إذا كانت في صاحب سلطان، فيغلو الكاتب في مدحه، ويفرط في إطرائه طمعاً في عطاء، أو خوفاً من عقاب، وأمثال هذه النصوص تخلو من الصدق الفني، وتفتقد إلى دفء الإحساس، ونقاء المشاعر، وتكون غير مقنعة وإن حرص الكاتب على ذلك، وأجهد نفسه في تحقيق تلك البغية، وقد رأينا رسالة أبي على البصير في مدح "ابن خاقان" التي أوردتها كمثال للصورة الأدبية، وهي صالحة أيضاً لأن تكون نموذجاً جيداً للغلو المفرط، الذي كان دافعه خوفاً من نقمة، ورجاء لنعمة، من هذه الرسالة قوله – موازناً بينه وبين نظرائه – [.. وبعد أن ميّل بينك وبين الذين سموا لمرتبتك، وجروا إلى غايتك، فأسقطهم مضمارك، وخفوا في ميزانك، ولم يزدك – أكرمك الله– رفعة وتشريفاً إلا أزددتَ له هيبة وتعظيماً، ولا تسليطاً وتمكينا إلا زدت نفسك عن الدنيا عزوفاً وتنزيهاً، ولا تقرباً واختصاصاً إلا ازددت بالعامة رأفة، وعليها حدبا.. تمضي ماكان الرشد في إمضائه، وترجي ماكان الحزم في إرجائه.. وتلين في غير تكبر، وتخص في غير ميل، وتعم في غير تصنع][2] ثم يختمها – بعد كل هذا الجنوح – بقوله: [.. وهذا يسير من كثير، لو قصدنا لتفصيله لأنفذنا الزمان في تحصيله، ثم كان قصدنا الوقوف دون الغاية منه][3] تشاكل هذه الرسالة في غلوها رسالة أبي جعفر المنصور في المهدي، والفرق بين النصين أن الأول منهما – كما أشرت سابقاً – باعثة الرغبة، ذلك أنه بعث من الأدني للأعلى، أما الثاني: فباعثه الدعاية للمهدي بنشر محاسنه والمغالاة فيها، والتزود عليها، حتى يحسن في نظر العامة والخاصة، وتتم له البيعة، واجتزئ منها التالي، كتب: [المهدي – معشر المسلمين – في عفافة وصلاحه، وورعه وطبائعه، وشيمه وحلمه، ورأفته، واستصلاحه، واستبقائه، وعفوه، ومقدرته، ورأيه، ومكيدته،

---

(١) أحمد صفوت، جمهرة رسائل العرب ٣/٣٣٦.

(٢)،(٣) انظر ص ٨٦ من البحث.

وشوكته على عدوه، وحسن تدبيره في ولايته، وسياسته لجنده، ورفقه، وعدله، وأدبه، وفقهه، ونجابته، ويمن نقيبته، وتوسعة ذات يده، واغتفاره وهديه، وحسن جزائه أهل الغناء عنه، والبلاء معه، والطاعة له، والسمع منه، ولينه وحزمه وعزمه، ووفائه وصدقه، هو المصطنع لولايتكم، والمتخير لسياستكم، واجتماع ألفتكم، وتمام نعمة الله عليكم، ولم يكن الله ليعد لهذه الأمور إلا مصطنعاً في رأيه، كاملاً في فضله وسياسته، قوياً على طاعة الله، ونصر دينه، والذب عن حقه وملّته..][(١)]

وكما يكون الغلو في المدح يأتي في الذم أيضاً، ذلك أن الغلو ثمرة تمرد العاطفة على سلطة العقل، وعدم التزامها بمنطقة المتوازن، فإن رضيت – أي العاطفة – جعلت من الممدوح آية في الكمال، ونهاية في الجمال، وإن سخطت بدلته من الكمال نقصاً، ومن الجمال قبحاً، هكذا دون قصد أو حساب، ومرت بنا سخرية أبي على البصير من أبي العيناء، وهي مثال جيد للغلو النثري عند المترسلين الشعراء، تقابلها رسالة لـ 'أحمد بن أبي طاهر' موغلة في ذم ابن ثوابة حين ولي[(٢)] طساسيج الكوفة، وعزل عنها بعد ذلك، ولعله نشأ بين الرجلين خلاف لأمر ما، مما حدا بأحمد بن أبي طاهر في أن يسخر منه، ويتندر به، بأسلوب مصوّر بليغ لعله أرقى من أسلوب أبي علي البصير، وأشد منه تهكماً، وأعمق إيلاماً وتأثيراً، يقول: [أما بعد: فإن فلاناً قدم إلينا شامخاً بأنفه، عاقداً لعنقه، ذاهباً بنفسه، يرى أن الجنة خلقت لمن أطاعه، والنار لمن عصاه، وأن الملائكة المقربين لم تنزل على من نزلت عليه من الأنبياء إلا بتوكيد ذلك له، فلا يعذب الله العباد إلا على معصيته، ولا يثيبهم إلا على طاعته، ولا أن الصيحة أخذت قوم ثمود إلا لاعتراضٍ

(١) أحمد صفوت، جمهرة رسائل العرب ١٢٥/٣.

* هو: أبوالفضل أحمد بن أبى طاهر، أحد البلغاء الشعراء، وهو صاحب تاريخ بغداد، مات سنة ٢٨٠هـ، الحموى، معجم الأدباء ٨٧/٣.

(٢) جاء في ترجمة ابن ثوابة في معجم الأدباء ١٥٨/٤ [وكان عبيد الله بن سليمان الوزير قد صرف أحمد بن محمد بن ثوابة عن طساسيج كان يتقلدها] فهي إذن مواضع متفرقة.

كان منهم على أولية أجداده، ولم يرسل الله الريح العقيم على قوم عاد إلا عن خلاف كان منهم لآبائه، وأن الواجب على هذه الأمة، والفرض المحتوم الذي لا يُقْبَل منهم غيره، طاعته، وقلة الخلاف عليه، بالاستحقاق منه لذلك في نفسه، وللوراثة عن آبائه وأجداده، كأنه قُدَارٌ عاقر ناقة ثمود في خلقته، وفرعون ذو الأوتاد في جبريته، يحسب الجود ذلاً، والبخل عزاً ، والجور عدلاً، وأن مانهى الله عنه من قبيح فهو الجميل الذي أمره به، وما أمر من جميل فهو القبيح الذي نهاه عنه، لايستكثر الخلافة فيحدِّث بها نفسه تيهاً، ولا النبوة يتمناها على ربه عجباً، وإذا قعد على فراشه، وأخذ مجلسه، ورمى بطرفه في منازله، دخلته العزة، وغلب عليه الكبر، حتى يخيّل إليه أن بيت الله الحرام بعض داره، وأن صحنها هو الصرح الممرد الذي ذكره الله في كتابه، وأن مَهْبِط الملائكة على ظهر كنيسته، وبئر زمزم من بعض آباره، ومابين الصفا والمروة مراغة لدوابه، يضع من قدر نفسه، ويرفع من قدر طعامه، فيرى أن مائدته هي التي ذكر الله في كتابه، فمن أكل منها كان رقاً له بأكلته، تجري عليه أحكامه، وينفذ فيه أمره، ضيفُه أشد الناس شبهاً بالملائكة طعامه التسبيح، وشعاره الصبر، وكل حشمه طائفة من الجن، مبرحون بالشم دون الأكل، وبالمص دون الشرب، ولولا ما كفى الله من غَرْبه، بالغَرْب الذي به لضجت الأرض إلى الله من تيهه، ولتعبدت الأئمةُ لله بالابتهال إليه من تجبره، يرى أن قارون كان من بعض أكرته، والخِضْرَ صلوات الله عليه من بعض فيُوجه، ولولا ماتقدم من حقه، وماسبق من مودته، والذي أنا عليه من الميل ناحيته، والنصرة لمذاهبه، والحيطة من ورائه، والذَّبِّ عنه، وأني لا أرى أن أصفه إلا بأحسن مافيه، ولا أستحل ذلك منه، لأنطلق لساني من وصف عجائبه، بما لم يخطر على قلب بشر](١).

---

(١) أحمد صفوت، جمهرة رسائل العرب ٤/٢٢٩، ٣٠٠.

والرسالتان تجتمعان في محاكاة الأنموذج في هذا الباب "التربيع والتدوير" للجاحظ، وليس من وكدي أن أضرب أمثلة من التربيع لأن العبرة في رسائل السخرية بالأثر العام الذي يتركه النص في قارئه، وقد أفلح الجاحظ إلى حد كبير في النيل من غريمه، وصاغ له من خياله صورة "كريكاتورية"

والحق أن رسالة أحمد بن أبي طاهر كانت مؤثرة، وتشترك في ذلك مع رسالة الجاحظ، أما نص البصير فقد كبله السجع، وحد من معانيه، وإن كان استخدامه له كان من قبيل السخرية، لا عن تعلق به، فقد كان صاحبه أبوالعيناء يلوي به لسانه، فأراد أن يقلده في ذلك إمعاناً في السخرية من ناحية، وإظهاراً لمقدرته البيانية من ناحية أخرى، فنجح مرة، وأخفق مراراً.

بقي أن أشير إلى قضية جد مهمة، وهي أن الهاجي عموماً يعبر عن نفسه، ويكشف معايبه – بلا وعي – من خلال هجائه، والأدلة على ذلك كثيرة، فالجاحظ – مثلاً – كان قصيراً عريضاً دميم الخلقة، وصورته التقريبية في مصادر الأدب والتاريخ أقرب إلى التربيع والتدوير منها إلى غيره، لذا حينما ذم صاحبه إنما ذمه بما يجده في نفسه، وبما يعانيه هو، وما يدرينا لعل أحمد بن عبد الوهاب كان وسيماً ذكياً على غير مارسمه الجاحظ، وعلى خلاف ماصوره، وهذا هو الراجح عندي، على أساس أن العيَّاب يرمي بعيبه على الناس فراراً من النقص إلى الكمال الذي ينشده.

والبصير أيضاً كان مهدر الكرامة، وفيه من العيوب[١] القدر الذي نقلها إلى خصمه.

ويرى الباحث أن ملمحاً دقيقاً كهذا جديرٌ بدراسة مستقلة، تُعنى بمعالجته، وتبين عن ملامح الهاجي الخُلقية والخَلْقية من خلال هجائه لخصومه.

---

(١) انظر ص ١١٩ من البحث.

المبحث الرابع

اعتدال المفردة

ذكرت في مبحث "وسطية الكلمات" إتزان المفردة عند المترسلين الشعراء، فلا هي موغلة في الغرابة، ولا مستعجمة على الأفهام، ثم إنها ليست مبتذلة، ولا مطروقة عند العامة، ولكنها بين بين، نسجت في قوالب سهلة، يسمعها السامع فيظن أنه قادر على الإتيان بمثلها أو بما يشاكلها، ولكن هيهات أن يتأتى له ذلك، فلا يقدر على مثلها إلا أمثالهم من جلة الأدباء، وموهوبي الكتاب، وهذا الاعتدال هو دأبهم فيما سطروه، نستثني من ذلك ثلاث كلمات، وهي: العثنون والإبساس، واستئهالك، وهي – كما ترى – ليست موغلة في الغرابة ولكنها قياساً بسائر مفرداتهم تحمل شيئاً من الشذوذ، إذْ لم يكن لها في نثرهم أخوات من جنسها.

ولعل سبب اعتدال الكلمات عندهم يعود إلى عاملين مهمين، أولهما: هو استقرار أمزجتهم، ورضاهم بما هو متاح في عصرهم، يؤكد هذا مقولة[١] سهل بن هارون، والتي ينكر فيها لجوء بعض معاصريه إلى الغريب، فلا يمكن إذن أن يلومهم ثم يقع هو ومن معه فيما وقعوا فيه.

وثانيهما: اقتصادهم في السجع، فلا يأتون به إلا في حدود المباح، نجده في مأثورهم بين القينة والأخرى، من غير جور على المعنى، ولم يكن هذا النهج طريق غيرهم من الكتاب المعاصرين، خذ – مثلاً – كاتباً كبيراً في قامة عبدالله بن المعتز ستجده واقعاً في حبائل الغريب، لأنه آثر السجع على حسن الاعتدال اللفظي، يقول في رسالته التي يرثي فيها سامراء [٠٠٠ وطعامها هنئ، وشرابها مرئ، وتاجرها مالك، وفقيرها فانك[٢]، لا كبغدادكم الوسخة السماء، الومدة[٣] الهواء، جوها نار،

---

(١) انظر ص ١٧١ من البحث.

(٢) فانك: مقيم أي أنه لا يرحل عنها، إذ يجد بها مايسد عوزه.

(٣) الومدة: سكون الريح من شدة الحر.

وأرضها خبار[١]، وماؤها حميم، وترابها سرجين[٢]، وحيطانها نزور[٣]، وتشرينها تموز..][٤] فعلى الرغم من إبداع هذه الرسالة إلا أن الغريب ثمرة السجع قد قلل من نجاحها، وإذا أخذنا كاتباً آخر مثل أبي العيناء – له قدره ومكانته في الصنعة – نجده يغوص في الماضي البعيد ليجتني مفردات لا تمثل بيئته، ولا ذوق عصره، وهذا نتيجة السجع – كما ذكرت – يريد الكاتب أن يوافق بين فاصلتين، الثانية منهما تابعة للأولى، لداعي الوزن، ومن هنا يأتي التمحل، ويتولد الغريب، يقول من رسالة إلى رجل يهنئه بإسلامه: [.. ولله أبوك! لقد قدحت فأوريت، واستضأت فاهتديت، ومخضت الأمر ثم اقتنيت، لا كمن فكر وقدر، فقتل كيف قدر، فالحمد لله الذي أفاز قدحك، وأعلى كعبك، وأنقذ من النار شلوك[٥]..][٦] وقال من رسالة أخرى يصف بغلة حُمِلَ عليها [أعلمُ الوزير – أعزه الله – أن أبا علي محمداً أراد أن يبرني فعقني، وأن يركبني فأرجلني، أمر لي بدابة تقف للنبرة[٧]، وتعثر بالبعرة، كالقضيب اليابس عَجَفاً[٨]، وكالعاشق المهجور دنفاً[٩]... حباقه[١٠] مقرون بسعاله..][١١].

والمزاج – كما أشرت آنفاً – له تأثير على اللغة، لأنه عندما يتصادم ذوق الكاتب الخاص مع الذائقة السائدة، فإن صاحبه يكون شاذاً لا متميزاً كما قد يذهب

---

(١) الخبار: مالان في الأرض وأسترخى.
(٢) السرجين: الزبل.
(٣) نزور: النزر مايتحلب من الأرض.
(٤) الحموي، معجم البلدان ١٧٨/٣.
(٥) الشلو: الجسد.
(٦) أحمد صفوت، جمهرة رسائل العرب ١٣٨/٤.
(٧) النبرة: الصيحة.
(٨) العجف : الهزال.
(٩) الدنف: المرض الملازم.
(١٠) الحباق: الضراط.
(١١) الحصري، زهر الآداب ٥٨٧/٢.

به الظن، ومن ثم لا ينتج إلا غريباً، فلا هو أستطاع أن يتأقلم مع عصره ويمثله، ولا نتاجه كان ملائماً مع غيره.

والتفرد المنشود ليس في الخروج على القاعدة، ولكنه يأتي من خلال إعادة اللغة واثبات الذات في حسن استثمار اللبنات الواحدة، التي تعبر عن زمن الكاتب وذوق عصره، والحق أن المترسلين كانوا متفردين عن غيرهم من الكتاب، فخلا نثرهم من الغريب أو كاد، ولست أنا الذي يحكم بذلك ولكنه مأثورهم الشاهد على توازنهم.

ولم يكن همي أن أتتبع الغريب عند سائر الكتاب من غير المترسلين، ولو فعلت ذلك لوجدته أكثر من أن يحصى، ولكن يكفيني شاهداً ماذكرته لعلمين هما في عرف النقاد من كبار الكتاب، فإذا كان هذا حالهما مع الغريب، فغيرهما – ممن هم دونهم – أولى به، وأشد كلفاً وتعلقاً.

الخاتمة

نتائج البحث:

بعد مصاحبتي لنتاج مترسلي الشعراء فترة من الزمن، وبعد طول بحث في فنهم، توصلت إلى جملة من النتائج أشير هنا إلى بعض منها، وهي:

أ - أرتقى نثر هؤلاء الأدباء حتى قارب الشعر في لغته ونسيجه وتشكيله ومن ذلك تولد مصطلح النثر الشعري أو الشاعري وصفاً لما أنتجوه.

ومعلوم أن هذا التداخل بين الفنين كان من عطاء الحضارة الجديدة إضافة إلى تميز هؤلاء الأدباء في ذواتهم، كل ذلك حقق عملياً الالتقاء بين النثر والشعر بعد أن كانت المسافة بينهما كبيرة.

ب - أحدث المترسلون الشعراء تطوراً ملحوظاً في بعض الأساليب العربية النثرية، فأخرجوا التوقيع من حده الرسمي إلى فضاءآت إبداعية لا صلة لها بالنواحي الرسمية، مما حدا ببعض النقاد - حينذاك - إلى استنكار هذه الظاهرة الأدبية الجديدة، وهذا يغير ما وقر في الأذهان من ارتباط النثر بالنفعية.

جـ - رسالة سهل بن هارون في مدح البخل الشهيرة بما حوته من سرد عقلي، وحوار جدلي، وما امتازت به من إحكام فني في بنائها كانت رافداً مهماً من روافد نشأة المقامات الأدبية بعد ذلك.

د - الرسائل المذيلة بالشعر لا تخرج عن حالتين: إما أن يكون الشعر من قول الكاتب أو من منقوله، فإن كان من قوله فهو تابع للنثر في اللغة والأفكار، لأن النثر كان السابق إلى التفكير، والشعر متولد عنه، وامتداد له، وإن كان الشعر من منقوله فالنثر تابع للشعر لأن الفكرة الشعرية المجتباة تسلطت على عقل الكاتب فما زاد على نثر البيت، وهذا يأتي من باب الاجبار الذهني.

هـ - أنتهى مبحث الرسائل الشعرية عند هؤلاء الأدباء إلى نتيجة مهمة وهي أن الشعر لا يزال له المساحة الكبرى في قلوب الناس، وأنه فارس لكل زمان لم يترجل عن وجدان العربي حتى في زمن الكتابة ودولة الكتاب، وعلى الرغم من شاعرية النثر ومقاربته للشعر.

ثبت المصادر والمراجع

- الأبشيهي، شهاب الدين بن محمد

المستطرف في كل فن مستظرف، ت: عبد الله أنيس الطباع، دار القلم بيروت.

- ابن أبي الأصبع المصري

تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، ت: حفني محمد شرف، القاهرة، ١٣٨٣هـ.

- ابن الأثير، ضياء الدين

المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، الفجالة، مصر.

- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد

المقدمة، دار القلم، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٨١م.

- ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ت: د/ إحسان عباس، دار صادر بيروت.

- ابن درستوية

كتاب الكتاب، ت: إبراهيم السامرائي وعبد الحسين الفتلي، دار الكتب الثقافية، الكويت، ١٩٧٧م.

- ابن رشد

جوامع الشعر رسالة ملحقة بكتاب أرسطو في الشعر، ت: محمد سليم سالم، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٩٧١م.

- ابن رشيق القيرواني

العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد.

- ابن شهيد الأندلسي

رسالة التوابع والزوابع، ت: بطرس البستاني، دار صادر، بيروت، ١٩٨٠م.

- ابن طباطبا العلوي، محمد بن أحمد.

عيار الشعر، ت: د/ محمد زغلول سلام، المعارف الاسكندرية.

- ابن الطقطقا، محمد بن علي بن طباطبا

الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار صادر بيروت، ١٩٦٦م.

- ابن طيفور، أحمد بن طاهر

كتاب بغداد، السعادة ١٩٦٨م.

- ابن عبد ربه، أحمد بن محمد

العقد الفريد، دار الكتب العلمية، بيروت، ت: د/ مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م.

- ابن عربي، محيى الدين

محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار، دار اليقظة، ١٩٦٨م.

- ابن قتيبة، أبومحمد عبدالله بن مسلم

– أدب الكاتب، دار المطبوعات العربية، بيروت، ت: محمد محيي الدين عبدالحميد.

– الإمامة والسياسة، ت: د/ طه محمد الزيني، دار المعارف، بيروت.

– الشعر والشعراء، ت: أحمد محمد شاكر، دار المعارف.

– عيون الأخبار، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م.

– المعارف، دار المعارف، ت: د/ ثروت عكاشة، الطبعة الرابعة.

- ابن المعتز، عبد الله

– البديع، تعليق: اغناطيوس كراتشقوفسكي

– طبقات الشعراء، ت: عبد السلام أحمد فرّاج، دار المعارف، مصر، الطبعة الثالثة.

- ابن المقفع

الأدب الكبير والأدب الصغير، دار الجيل، بيروت.

- ابن منقذ، أسامة

لباب الآداب، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٠م.

- ابن نباتة، جمال الدين محمد

سرح العيون شرح رسالة ابن زيدون، الطبعة الأولى، ١٩٥٧م.

- أبوالأسود الدؤلي

ديوانه، صنعه الحسن السكري، ت: الشيخ محمد بن حسن آل ياسين، مؤسسة جيم للطباعة، بيروت، ١٩٨٢م.

- أبوتمام

الديون، ضبط: شاهين عطية، طبعة بيروت، ١٨٨٩م.

- أحمد أمين

ضحى الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة العاشرة.

- أحمد بن حنبل

المسند، المكتبة الإسلامية.

- أحمد صفوت

جمهرة رسائل العرب، المكتبة العلمية، بيروت.

- الأصبهاني، أبوالفرج على بن الحسين

الأغاني، جمال للطباعة

- الآمدي، أبوالقاسم الحسن بن بشر بن يحيى

الموازنة بين أبي تمام حبيب بن أوس الطائي وأبي عبادة الوليد بن عبيد البحتري الطائي، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد.

- البحتري

الديوان، دار بيروت للطباعة، ١٩٨٠م.

- البخاري

الصحيح، ت: محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت.

- بسام قطوس

مجلة جامعة ام القرى للبحوث العلمية المحكمة، العدد التاسع، ١٩٩٤م.

- البغدادي، الخطيب أحمد بن على

البخلاء، ت: محمد إبراهيم سليم، مكتبة ابن سينا.

– تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية، بيروت.

- البغدادي، عبد القادر بن عمر

خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، ت: عبدالسلام هارون، الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٩م.

- البيتي، جعفر بن السيد العلوي

مواسم الأدب وآثار العجم والعرب، السعادة، الطبعة الأولى، ١٣٢٦هـ.

- البيهقي، إبراهيم بن محمد

المحاسن والمساوئ، دار صادر، بيروت، ١٩٧٠م.

- التنوخي، أبوعلى المحسن بن علي (ت: ٣٨٤هـ).

الفرج بعد الشدة، دار صادر بيروت، ت: عبود الشالجي، ١٩٧٨م.

– نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، ت: عبود الشالجي، ١٩٧٣م.

- التنوخي، أبوالقاسم علي بن المحسن (ت: ٤٤٧هـ)

لطائف الأخبار وتذكرة أولي الأبصار، دار عالم الكتب، الرياض، ت: د/ على حسين البواب، ١٩٩٣م.

- التوحيدي، أبوحيان

الإمتاع والمؤانسة، مكتبة الحياة، بيروت، تصحيح أحمد أمين وأحمد الزين.

– البصائر والذخائر، ت: د/ إبراهيم الكيلاني

– الصداقة والصديق، المطبعة النموذجية، ت: على متولى صلاح.

– مثالب الوزيرين، ت: إبراهيم الكيلاني، دار الفكر، دمشق.

- الثعالبي، أبومنصور عبد الملك بن محمد (ت: ٤٢٩هـ)

أحسن ماسمعت، ت: محمد إبراهيم سليم، دار الطلائع.

- آداب الملوك، ت: د/ خليل العطية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م.
- التمثيل والمحاضرة، ت: عبد الفتاح محمد الحلو، عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦١م.
- ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، ت: محمد أبوالفضل، دار نهضة مصر، ١٩٦٥م.
- خاص الخاص، مكتبة الحياة، بيروت.
- فقه اللغة وأسرار العربية، الطبعة الأخيرة، ١٩٧٢م.

● الجاحظ، عمرو بن بحر.

البخلاء، دار صادر، بيروت.
- البرصان والعرجان والعميان والحولان، ت: عبدالسلام هارون.
- البيان والتبيين، ت: عبد السلام هارون، دار الفكر، الطبعة الرابعة.
- الحيوان، ت: عبد السلام هارون، دار إحياء التراث، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٦٩م.
- رسائله، الطبعة الأولى، ١٩٨٨م.
- المحاسن والأضداد، مراجعة د/ عاصم عيتاني، دار إحياء العلوم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م.

● الجرجاني، عبد القاهر

الطرائف الأدبية، المكتبة الأزهرية للتراث، صححه، عبد العزيز الميمني.

● الجهشياري، محمد بن عبدوس

الوزراء والكتاب، البابي الحلبي، مصر، الطبعة الثانية، ١٩٨٠م.

● الحصري، أبوإسحاق إبراهيم بن علي

ذيل زهر الآداب، الرحمانية، مصر، ١٣٥٣هـ.
- زهر الآداب وثمر الألباب، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، الطبعة الرابعة.

- الحموي، تقي الدين على بن محمد
ثمرات الأوراق، الطبعة الأولى، ١٩٧١م.
- الحموي، شهاب الدين ياقوت.
معجم الأدباء، دار الفكر، ١٩٨٠م.
– معجم البلدان، دار صادر، بيروت.
- الخرساني، محمد غفراني.
عبد الله بن المقفع، الدار القومية للطباعة والنشر.
- الخضري، محمد
تاريخ الأمم الإسلامية، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ١٩٧٠م.
- خفاجي، د/ محمد عبدالمنعم.
الأدب العربي وتاريخه، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٠م.
- الخفاجي، شهاب الدين أحمد بن محمد
ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا، ت: عبد الفتاح الحلو، الطبعة الأولى، ١٩٦٧م.
- خليل بك
محاضرات الخليل في الإنشاء العربي، مطبعة خالد بن الوليد، الطبعة الأولى، ١٩٨٥م.
- دائرة المعارف الإسلامية، مراجعة د: محمد مهدي علام، دار الفكر.
- الدروبي، سامي.
علم النفس والأدب، دار المعارف، الطبعة: الثانية.
- الدقاق، عمر
ملامح النثر العباسي، دار العباسي، دار الشرق العربي، بيروت.
- الدميري، كمال الدين محمد بن موسى
حياة الحيوان الكبرى، دار التحرير، ١٩٦٥م.

- الذهبي، الحافظ

العبر في خبر من غبر، ت: محمد السعيد زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٥م.

- رجاء عيد

مجلة علامات، المجلد الخامس، ١٩٩٥م.

- الزجاجي، عبد الرحمن بن إسحاق

مجالس العلماء، ت: عبدالسلام هارون، الطبعة الثانية، ١٩٨٣م.

- الزركلي، خير الدين

الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة السادسة، ١٩٨٤م.

- زكي مبارك

الموازنة بين الشعراء، البابي الحلبي، مصر، الطبعة الثالثة، ١٩٧٣م.

– النثر الفني في القرن الرابع الهجري، دار الجيل، بيروت.

- الزيات، أحمد حسن

تاريخ الأدب العربي، دار الثقافة، بيروت.

- السامرائي، يونس بن أحمد

آل وهب، المعارف، بغداد، الطبعة الأولى، ١٩٧٨م.

- السراج، محمد بن جعفر

مصارع العشاق، دار صادر، بيروت.

- سعيد حسين منصور

القيم الخلقية في الخطابة، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ.

- سيبويه

الكتاب، ت: عبد السلام هارون، الخانجي.

- الشايب، أحمد

الأسلوب، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثامنة، ١٩٨٨م.

- الشريف الرضي
نهج البلاغة، ت: محمد أبوالفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٨م.
- الشكعة، د/ مصطفى
الشعر والشعراء في العصر العباسي، دار العلم للملايين، الطبعة السابعة، ١٩٩١م.
– معالم الحضارة الإسلامية، دار القلم، بيروت، ١٩٨٢م.
- شوقي ضيف
العصر العباسي الأول، دار المعارف، مصر، الطبعة السابعة.
– الفن ومذاهبه، دار المعارف، مصر، الطبعة الخامسة.
- صالح آدم
الثقافات الأجنبية في العصر العباسي الأول، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٩٨٨م.
– فصول وقطوف.
- الصولي، أبوبكر محمد بن يحيى
أخبار أبي تمام، المكتبة التجارية، بيروت.
– أدب الكتاب، دار الباز
- الطبري، محمد بن جرير
تاريخ الرسل والملوك، ت: محمد أبوالفضل إبراهيم، الطبعة الثالثة، دار المعارف.
- طه حسين وغيره.
المنتخب من أدب العرب، دار الكتب، القاهرة، ١٩٣١م.
– من حديث الشعر والنثر، دار المعارف، ١٩٥٣م.
- الطيب، عبدالله
المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، مطبعة جامعة الخرطوم، الطبعة الرابعة، ١٩٩١م.

- العاملي، بهاء الدين
الكشكول، ت: الطاهر أحمد الزاوي.
- العباسي، عبد الرحيم بن أحمد
معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، ت: محمد محيي الدين، عالم الكتب، بيروت، ١٩٤٧م.
- عبد الحكيم بلبع
النثر الفني وأثر الجاحظ فيه، مطبعة الاستقلال الكبرى، مصر، الطبعة الثالثة، ١٩٧٥م.
- عبد الحميد جيدة
إنشاء الكتابة عند العرب، منشورات دار الشمال، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م.
- العجلوني، إسماعيل بن محمد
كشف الخفاء ومزيل الألباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، الطبعة: الثانية، ١٣٦١هـ.
- العسكري، أبوهلال
ديوان المعاني، عالم الكتب.
– الصناعتين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨٤م.
- عمر فروخ
الأدب العربي، دار العلم للملايين، الطبعة الرابعة، ١٩٨١م.
- غانم جواد على
الرسائل الفنية في العصر الإسلامي حتى نهاية العصر الأموي، المكتبة الوطنية، بغداد، ١٩٧٨م.
- فان تيجيم
الأدب المقارن، ترجمة: سامي الدروبي، دار الفكر العربي.
- القالي، إسماعيل بن القاسم
الأمالي، دار الكتب العلمية، بيروت.

- ذيل الأمالي، دار الكتب العلمية، بيروت.

- قدامة بن جعفر

نقد الشعر، ت: د/ محمد خفاجي، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م.

- القرشي، عبد الرحيم بن علي بن شيث

معالم الكتابة ومغانم الاصابة، ت: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٨م.

- القرطاجني، حازم

منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ت: محمد الحبيب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٨١م.

- القرطبي، يوسف بن عبدالله

بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذهن والهاجس، ت: محمد مرسي الخولي، دار الكتب العلمية، بيروت.

- القزويني، الخطيب.

الإيضاح في علوم البلاغة، تعليق: د/ محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتاب اللبناني، الطبعة الخامسة، ١٩٨٠م.

- القزويني، زكريا بن محمد بن محمود

آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت.

- القلقشندي، أحمد بن علي

صبح الأعشى في صناعة الإنشا، دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م.

- مآثر الأناقة في معالم الخلافة، ت: عبد الستار أحمد فراج، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٠م.

- الكتبي، محمد بن شاكر

فوات الوفيات، ت: د/ إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

- الكرخي، محمد بن سهل بن المرزبان

الشوق والفراق، ت: د/ جليل العطية، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٩٨٨م.

- الكروي، إبراهيم سلمان

نظام الوزارة في العصر العباسي الأول، الطبعة الثانية، ١٩٨٩م.

- الكلاعي، محمد بن عبد الغفور

إحكام صنعة الكلام، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٥م.

- الماوردي، علي بن محمد بن حبيب.

أدب الدنيا والدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٨م.

- المبرد، محمد بن يزيد

الكامل، ت: محمد أحمد الدالي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م.

- محمد بركات

سخرية الجاحظ من بخلائه، الطبعة الأولى، ١٩٧٤م.

- محمد حميد الله

الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، دار النفائس، الطبعة الخامسة، ١٩٨٥م.

- محمد بن سعد

كلثوم بن عمرو العتابي، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م.

- محمد بن شريفة

أبوتمام وأبوالطيب في أدب المغاربة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م.

- محمد كرد علي

أمراء البيان، دار الكتاب، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٦٩م.

- محمد بن مريسي الحارثي

الأخلاق في النقد العربي، مطبوعات نادي مكة الأدبي، ١٩٨٩م.

- محمد نبيه حجاب

بلاغة الكتاب، مكتبة الطالب الجامعي، الطبعة الثانية، ١٩٨٦م.

- المرتضى، على بن الحسين

أماليه غرر الفوائد ودرر القلائد، ت: محمد أبوالفضل، عيسى البابي، الطبعة الأولى، ١٩٥٤م.

- طيف الخيال، عيسى البابي، الطبعة الأولى، ١٩٦٢م.

- المرزباني، محمد بن عمران بن موسى
الموشح مآخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع من صناعة الشعر، ت: على محمد البجاوي، دار الفكر العربي، القاهرة.

- المسعودي، علي بن الحسين بن علي
مروج الذهب ومعادن الجوهر، ت: محمد محيي الدين عبدالحميد، دار المعرفة، بيروت.

- مسلم
الصحيح بشرح النووي، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية، ١٩٧٢م.

- المقدسي، أنيس
تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة السابعة، ١٩٨٢م.

- الملك الأفضل العباسي بن علي
نزهة الظرفاء وتحفة الخلفاء، ت: نبيلة عبد المنعم، دار الكتاب العربي، مكتبة الثقافة، مكة المكرمة.

- الميداني، أحمد بن علي.
مجمع الأمثال، دار الفكر، الطبعة الثالثة، ١٩٧٢م.

- النديم، أبوالفرج محمد بن أبي يعقوب
الفهرست، دار المسيرة، الطبعة الثالثة، ١٩٨٨م.

- الوشاء، محمد بن أحمد
الظرف والظرفاء، ت: د/ فهمي سعد، عالم الكتب، الطبعة الأولى، ١٩٨٥م.

- اليازجي، كمال.
الأساليب الأدبية في النثر القديم، دار الجيل، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م.

فهرس الموضوعات

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة
ب – التشكيل الفني	٢٤٢ – ٢٦٨
١ – التناسب	٢٤٢ – ٢٤٦
٢ – هرمية النص النثري	٢٤٧ – ٢٦١
المقدمة	٢٤٨ – ٢٥٢
الغرض	٢٥٢
الخاتمة	٢٥٣
النتائج	٢٥٣
التكثيف	٢٥٤ – ٢٥٦
التذييل	٢٥٦ – ٢٦١
٣ – التكرار	٢٦٢ – ٢٦٨
تكرار التقسيم	٢٦٣ – ٢٦٧
التكرار العبثي	٢٦٧ – ٢٦٨
الفصل الثاني: الموازنة	**٢٦٩ – ٣٠٥**
تمهيد	٢٧٠ – ٢٧١
منهج الموازنة	٢٧١ – ٢٧٢
المبحث الأول : الصورة الأدبية	٢٧٣ – ٢٨١
المبحث الثاني : الأداء الشاعري	٢٨٢ – ٢٩٧
أ – استحداث العلاقة	٢٨٣ – ٢٨٤
ب – تطور الأساليب	٢٨٥ – ٢٩٠
ج – تعدد الوظائف	٢٩١ – ٢٩٢
د – رقة الألفاظ	٢٩٣ – ٢٩٧
المبحث الثالث : الغلو النثري	٢٩٨ – ٣٠٢
المبحث الرابع : اعتدال المفردة	٣٠٣ – ٣٠٥
الخاتمة	٣٠٦
نتائج البحث	٣٠٧
ثبت المصادر والمراجع	٣٠٨ – ٢١٩